

أبو الأعلى المودودي

نفهم القرآن

الجزء الأول
من الفاتحة إلى آل عمران

تقريب
أحمد دريس



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تصدير

أحمدك ربى نزلت اصحق الحديث كتابا يهدى الى صراطك المستقيم .
واصلى واسلم على خير من فسر لنا كتابك عملا وشرح لنا هديك واقمعا
سيدنا محمد امام الانبياء والمرسلين ونبى الحق واليقين وعلى آله وصحبه
اجمعين وبعد ..

فلقد سألت الله كثيرا أن يوفقنى فى أن أنقل لقراء العربية كتاب
استاذى الكبير أبى الأعلى المودودى « تفهيم القرآن » بعد أن سمعنا الكثير
عن قيمته وتطرق اليها العديد من أبناء الشروع أو محاولات الشروع فى
ترجمته منذ أمد بعيد دون أن تقع أبصارنا على شيء يؤيد ما سمعت به
آذاننا .

وراسلت استاذى حول هذا ولبثت دهرا أحاول هنا وهناك أن أعثر
على نسخة منه باللغة الأردية حتى وجدت منه نسخة منقولة الى الانجليزية
فأمسكت بالجزء الأول منها — ويضم مقدمة وتفسيرا لسورتى الفاتحة والبقرة
وشرعت فى ترجمته على الفور . وأتم الله ذلك منذ عام مضى .
غير أن صدوره تاخر لاسباب يعلمها سبحانه وتعالى .

ثم تفيض الله من أرسل لى المجلد الاول من « تفهيم القرآن » باللغة الأردية
ويحوى مقدمة وتفسيرا لسور القرآن الكريم من الفاتحة الى الأعمام .
فأمسكت به وبالنسخة الانجليزية وبالترجمة العربية وحاولت التوفيق بينهم
قدر الاستطاعة اذ رايت من العسير أن أعيد ترجمة ما فرغت منه عن
الأردية من البداية . ثم نقلت تفسير سورة آل عمران من الأردية خالصة
والحقتها بأختيها على أن يصدر ثلاثتهم فى كتاب واحد ثم اتبع ذلك بغية
السور نقلا عن الأردية مباشرة لتظهر فى أجزاء مناسبة ان شاء تعالى .

ولى كلمة أود ذكرها في تقدمتى هذه وهى أن هذا الكتاب ليس بتفسير تقليدى كالتفسير التى نعرفها فاستاذى الكبير أبو الاعلى المودودى لم يقصد منه ذلك ، وانما هو أضواء يسلطها المؤلف كلما رأى الى ذلك ضرورة لتعين قارئ القرآن على فهم ما قد يستشكل على ذهنه . ولعل اسم الكتاب هو خير ما يوضح لنا ذلك اذ المقصود به تفهيم القرآن .. مجرد انتفهم .. لا التفسير .

واختم قولى بضراعة الى الله أن يوفقنى في اتمام هذا العمل فهو سبحانه القريب المجيب والسميع العليم وهو من وراء القصد .

١٨ شعبان ١٣٩٧هـ

٣٠ أغسطس ١٩٧٧م

أحمد ادريس

معيد بكلية اللغات والترجمة

جامعة الأزهر

مقدمة

أهدف من وراء كتابي هذه المقدمة لدراسة القرآن الى امرين :

الأول : اننى أبغى تعريف القارىء بالاشياء التى تساعد على فهم معانى القرآن والتى تستظل تعاود كرتها على ذهنه — ما لم يعرفها بادية الأمر — وغالبا ما تشكل عائقا أمام استكناهاه معانى القرآن وروحه .

الثانى : أود أن أجيب مسبقا على بعض من الأسئلة التى تثور عادة فى ذهن الدارس أثناء تناوله للقرآن ، وقد اقتضت على الأسئلة التى طرأت على ذهنى شخصا عندما شرعت فى دراستى النقدية للقرآن وكذلك تلك التى بدت لى فيما بعد ، ولو تكشففت اسئلة أخرى فسوف أرد عليها فى الطبعة القادمة أن شاء الله

كتاب فريد :

ينبغى على القارىء — قبل أن يبدأ دراسته للقرآن — أن يضع فى ذهنه حقيقة هامة هى أن هذا الكتاب فريد فى أصله وفصله ، مختلف تمام الاختلاف عما اعتاد أن يقرأه من كتب فهو — على عكس الكتب التأليفية المعهودة — لا يحوى معلومات وافكارا وتصورات ومناقشات حول قضايا وافكار معينة معدة فى قالب ادبى . ومن ثم فالدارس الغريب عن القرآن تغشاه الحيرة عند تناوله للمرة الأولى إذ لا يجد فيه اعلانا عن فكرته ولا يراه مقسما حسب التقسيم المألوف الى أبواب وفصول ، ولا يلقى فيه معالجة مستقلة لنقاط مختلفة ، أو تعاليم قائمة براسها حول اشكال عديدة للحياة مكتوبة فى أسلوب مسلسل ، بل يجد نفسه أمام شئ ليس له به عهد من قبل ، ولا يطابق تصوره عن «الكتاب»

كذلك يراه يقر عقائد ويسدى تعاليم اخلاقية ويشرع قوانين ويدعو الناس للاسلام وينذر الكافرين ويعطى دروسا وعبرا من حوادث تاريخية ويرهب ويرغب وينذر ويبشر كل هذا ممزوج ببعضه متجانس فى أسلوب رائع فالموضوع الواحد يتكرر بطرق متباينة وكل نقطة تلى الأخرى دونما اتصال ظاهر ، وأحيانا تبرز نقطة جديدة وسط نقطة ما دون سبب واضح والمتكلم والمخاطب واتجاه الخطاب يتبدل بغير ملاحظة ، وليس فيه عنوان لباب أو علامة لفصل ، والحوادث التاريخية مبسوبة فيه ولكن لا كما فى كتب التاريخ ، ومشاكل الفلسفة وقضايا ما بعد الطبيعة تعالج فيه بأسلوب ومنهج لاشبه بينه وبين منهج الكتب الاصطلاحية التى تطرق هذه الأمور .

وكل من «الانسان» و «العالم» مذكور فيه بلغة تغاير لغة العلوم الطبيعية ومصطلحاتها .

كذلك يرى القارىء أن القرآن يتبع طريقته في حل المشاكل التعليمية والثقافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية كما يتناول مبادئ القانون واصوله بأسلوب يخالف منهاج علماء الاجتماع والقانون ويلتقن الاخلاق بطريقة ليس لها نظير من قبل ولا من بعد .

لكل هذا تعتصر الحيرة ادراك القارىء لان كل هذه الاشياء تخالف تصوراته السابقة عن «الكتاب» بوجه عام فيبدأ يحس بان القرآن كتاب ينقصه الترتيب ويعوز آياته الترابط ، ويفتقر الى استمرار موضوعه واتصاله ، وانه يتناول موضوعات شتى بمنهج مفكك غير منسق ، وانه أعطى هيكل الكتاب المتصل على الرغم من أنه ليس كتابا بالمعنى العام المصطلح عليه لهذه الكلمة .

ونتيجة لهذا يثير خصوم القرآن اعتراضات غريبة حوله ، ويتبنى أتباعه المحدثون تفاسير مستغربة في محاولة تفادى شكوك المعارضين واعتراضاتهم ، فتراهم بين نزاع الى الهروب في التفسير ومتخذ لشروح وتأويل بعيدة مبتورة بغية التماس الراحة لعقولهم وتفكيرهم . وأحيانا تجددهم يقدحون أذهانهم لخلق اتصال وترابط صناعى بين آيات الكتاب ليفسروا التفكك والتشعب الظاهر عليها . او تراهم يقبلون الزعم بان القرآن يعالج موضوعات شتات دون ترتيب أو اتساق أو ارتباط وعلى هذا فأياته مفصلة عن سياقها ومعانيه منثورة بلا انسجام .

هذا هو ما يحدث عندما لا يضع القارىء في اعتباره حقيقة أن القرآن كتاب متفرد في نوعه لا يكشف من أول صفحة فيه — كغيره من الكتب — عن الموضوع الذى يتحدث عنه او الغرض الذى يعتزم تحقيقه وانجازة وطريقته في تفسير الأشياء وشرحها تخالف أيضا طريقة الكتب الاخرى التى يقرأها الانسان عامة مخالفة واضحة ، ولا يسير على أى ترتيب من ترتيبات الكتب ، وفوق هذا وذاك فهو ليس كتابا عن الدين بالمعنى العام لهذا اللفظ . ومن ثمل فلو تفحص القارىء القرآن معتمدا على الافكار العامة عن « الكتاب » فلا مناص من وقوعه في شراك الحيرة والدهشة نتيجة لأسلوب وطريقة عرضه فلا ذكر « للخلفية » في مواضع كثيرة فيه ولا تقرير للظروف التى حدثت فيها حادثة بعينها ، لهذا فليس في مكنة القارىء العادى أن يفند من كنوز القرآن الثمينة تماما بالرغم من أنه قد يصادف نجاحا — أحيانا — في التقاط واكتشاف بعض الجواهر هنا وهناك .

أن من تنقصهم معرفة هذه الملامح الأساسية المميزة للقرآن هم وحدهم الذين يسقطون ضحايا هذه الريب وامثالهم فلا يجدون على صفحات القرآن غير موضوعات مبعثرة ويصعب عليهم سبر معاني آياته ، بل حتى الآيات الواضحة التى تنطق بمعانيها لأول وهلة تبدو في عيونهم مبتورة السياق مشتتة الاتصال .

وقد يأمن القارئ كل تلك المصاعب إذا أخبر بادی الامر بأن هذا الكتاب الذى سيقراه هو كتاب فريد وحيد من نوعه فى العالم اجمع ، وان طرازه ويختلف تماما عن كافة الكتب الأخرى وان بحثه منفرد فى ذاته ، وان كل التصورات المسبقة فى ذهنه عن «الكتاب» لاتساعده على فهم القرآن وانما تشكل عائقا فى سبيل فهمه ، ولذا فعليه اولا أن يحرر ذهنه من الافكار والتصورات التى كونها واكتسبها سلفا ثم يقف على الملامح المميزة لهذا الكتاب . عندئذ يستطيع أن يفهمه ويغوص فى معانيه .

ومن الضرورى لفهم القرآن فهما تاما أن نعلم أصله وبجثة الرئيسى وهدفه ، كما ينبغى أن يعرف القارئ أسلوبه ومصطلحاته وطريقته فى شرح الاشياء معرفة تامة ، ويضع أمام ذهنه الخلفية والظروف التى أنزلت فيها آية معينة .

هداية الهية :

واول ما يتحتم على القارئ فهمه هو طبيعة القرآن وأصله سواء كان يؤمن به كتابا منزلا من الله أم لا ، فلا بد له من أن يقبل بادی ذى بدء دعواه كما ينطق بها بذاته وكما أوضحها من جاء به (محمد عليه الصلاة والسلام) وهى أنه — أى القرآن — هداية الهية .

أن اله هذا العالم وخالقه وسيدّه وحاكمه خلق الانسان وادعاه قدرات العلم والكلام والفهم والتمييز بين الصواب والخطأ والخير والشر ، وحباه حرية الاختيار والارادة وحرية العمل وأعطاه سلطة اكتشاف ما يحيط به واستغلاله . باختصار شديد منحه نوعا من الاستقلال الذاتى وجعله خليفة له على الارض وارشده ليعيش وفق هدية .

وحين عين الله تعالى الانسان فى هذا المنصب أخبره — فى وضوح ودقة لا يبقى معها أى شك — بنوعية العلاقات التى بينه وبين خالقه فقال له اننى أسيدك وحاكمك وسيد وحاكم كل العالم ولهذا فعليك أن تعبدنى وحدى ، فلا أنت حر مستقل فى مملكتى ولا أنت عبد خاضع لسواى ، وانك مبعوث الى الأرض ومعك قوى معينة لفترة معينة اختبارك وأجربك فيها ، ولا مفر من رجوعك الى فأزن أعمالك التى اقترفتتها فى الدنيا وأقرر نجاحك أو اخفاقك ، لذا فبالطريق الصحيح أن تؤمن بى — طوعا واختيارا — حاكما فردا ، وتعبدنى وحدى وتعيش فى دنياك بما يطابق الهدى الذى ابعته انيك وتحيا فى الدنيا وكلك ادراك وايمان ويقين من أنها مجرد مكان للاختبار ، وهدفك الحقيقى فى الحياة الدنيا أن توفق فى يوم الحكم النهائى . وعلى هذا فإى مسلك آخر تسلكه يخالف الهداية الالهية هو مسلك خاطيء غير مقبوع فان سلكك الطريق الأول — وأنت حر فى اختياره — فسوف تحظى بالراحة والسعادة فى الدنيا ، وتفوز بدار السعادة الابدية ذات النعيم المقيم (الجنة) فى الآخرة التى أنت عائد فيها لينا لا محالة . وان اتخذت وجهة وطريقا آخر — وأنت حر أيضا فى اختيارك هذا — فسيتجلب على نفسك غضبى

وكراهيته في الدنيا ، وتجبر على نفسك العذاب المخلد والخراب والاسى
حيث تلقى في هاوية جهنم في الآخرة .

ثم بعث مالك الكون — بعد هذا التحذير — آدم وحواء عليهما السلام الى
الأرض — وهما أول أفراد النوع البشرى — . واعطاهما الهداية التى يتحتم
عليهما وعلى ذريتهما أن يحيوا طبقا لها وفى نورها . فاول اثنين من أفراد
البشر لم يخلقا فى جهالة وظلمة ولكنهما وهبا نورا وضاء يهديهما سبيل
السلام ، ومنحا القانون الذى كان عليهما اتباعه وهو الاسلام (الاذعان
والخضوع لله) وقد طبقاه ونفذه قبل أن يغادرا الدنيا وعلماه أبناءهما
واحفادهما واوصياهم أن يعيشوا مسلمين (عبادا طائعين لله)

غير أن الناس ما لبثوا على كر القرون أن حادوا شيئا فشيئا عن جادة
الطريق القويم للحياة (الاسلام) وسلكوا سبلا وممالك أخرى ضالة ،
ولم يفقدوا الهداية اهمالا وتراخيا فحسب ، بل عبثوا بها ومسخوها ،
فنسبوا قوى الله وصفاته الى آخرين ، واشركوا معه غيره فى الالهوية
والربوبية وابتدعوا الوانا من المذاهب وصنوفها من الاديان بخلطهم ما
أعطاهم الله من هداية ورشد بكل نوع من الخرافات والشعبدات والنظريات
الفاسدة والفلسفات العقيمة الزائفة ، فالحق بالحق ظهريا — حتى المبادئ
الأخلاقية التى لقنهم الله اياها — وحرفوا الكلم واخترعوا قوانين للحياة
تنسجم وامزجتهم واهواءهم وملوا ارض الله جورا وظلما واثما مبينا .

ورغم هذا لم يشأ الله أن يكره الناس على اتباع الطريق الصحيح لان
فى هذا تعارضا مع حرية العمل المحدودة التى أعطاها بنفسه للانسان ، كما
أنه لم يرد أن يسقط عليهم كسفا مدمرة من السماء فور عصيانهم ، لما فى ذلك
من مجافاة لقواعد الحياة الدنيا التى جعلت دار بلاء واختبار وانما قطع
تعالى على نفسه عهدا منذ بداية حياة الانسان على تراب الارض أن يرسل
اليه هدية خلال فترة حياته تاركا اياه حرا فى اتباعه أو لفظه ورفضه .

لهذا اتخذ الله ترتيبات بشأن هداية الانسانية ، فاصطفى رسله من
بين الناس أنفسهم ، واعطاهم معرفة الحقيقة وانزل عليهم منهاج الحياة
الصحيح وكلفهم بدعوة الناس الى الصراط السوى الذى انحرفوا عنه .

هؤلاء الرسل يؤمنون بالله ويعملون وفق هديه وقانونه الذى تلقوه عنه
وقد ظهروا فى أمم مختلفة فى أقطار مختلفة ، وبعثت الاف منهم على مدى الاف
من السنين ، وكان دينهم واحدا وعقيدتهم واحدة وهى وحدانية الله والايمان
بالحساب فى الآخرة . ولقد علموا نفس طريقة العيش التى لقنت للانسان
الاول فى أول برهة من حياته على وجه البسيطة ، واتبعوا جميعا هديا
واحدا يقوم على تلك المبادئ الجوهرية الخالدة فى الاخلاق والحضارة التى
نصح الانسان الاول باتباعها منذ اول يوم فى حياته .

ومهمة هؤلاء الانبياء مهمة واحدة هى دعوة البشرية كافة الى الهداية
التي تلقوها ، وتوحيد الانسانية فى أمة واحدة . فمن قبلوا دعوتهم صاروا

أمة واحدة وهى التى يجب عليها اتباع الهداية الالهية والجهاد لاقامتها وحمايتها من أى انتهاك أو تعدد .

ولقد أدى هؤلاء الانبياء مهمتهم احسن اداء واكملته خلال فترات حياتهم الطاهرة الشريفة ، ومن أسف أن غالبية الناس لم تكن نزاعة لقبول دعوتهم ، وحتى من قبلوهم وانضموا اليهم دب الفساد بينهم رويدا رويدا حتى تعاضم وبلغت شدته الى أن خلع بعضهم ربقة الهداية الالهية من عنقه تماما ، وحرف البعض الآخر كلام الله عن مواضعه وخلطه بأشياء زائفة ما أنزل الله بها من سلطان .

عندئذ أرسل رب العالمين محمدا عليه الصلاة والسلام آخر رسول من لدنه لانجاز نفس المهمة التى أرسلت من أجلها الانبياء قبله فجعل دعوته تتسع لتعم البشرية كلها بما فيها اتباع الانبياء السابقين الذين انحرفوا عن دعوة أنبيائهم ، وناشد الانسانية اتباع الصراط القويم ثم جمع من آمنوا بالهداية الالهية فى أمة واحدة هى التى أمرت بدورها أن تعيد بناء حياتها الجماعية على أساس هداية الله ، وتجاهد لاصلاح العالم الذى ضل وفسد والقرآن الذى أنزل على محمد عليه الصلاة والسلام هو الكتاب الذى يحوى هذه الدعوة ويضم الهداية الالهية بين جنبيه .

بحثه الرئيسى :

ها نحن قد عرفنا أصل القرآن فأصبح من اليسير أن نقرر موضوعه وبحثه الرئيسى وهدفه .

فموضوع القرآن هو الانسان . حيث يناقش أنماط وأنواع حياته التى تقوده الى النجاح المحقق أو الى دار البوار .

وبحثه الرئيسى هو توضيح الحقيقة ودعوة البشرية الى الطريق الذى يتخذ الحقيقة له أساسا .

فالقرآن يبين أن الحقيقة هى بعينها التى أوحاها الله لنفسه الى آدم عند تنصيبه خليفة والى كافة الرسل من بعده ، وأن المسلك الصحيح هو الطريق الذى علمه الانبياء طرا وأن كل النظريات التى تخالف هذه الحقيقة والتى ابتدعتها الناس ووضعوها عن الله والعالم والانسان وعلاقاتها بالله وبقية خلقه إنما هى نظريات فاسدة وكل نظم الحياة التى تتخذ أيا من هذه النظريات ركيزة لها وعمادا إنما هى نظم عقيمة فاسدة تورث الانسان دمارا وبوارا .

أما هدف التنزيل فهو دعوة الانسان الى الطريق الحق والنهج السديد وتوضيح الهداية التى يفقدها إهمالا منه وتراخيا أو حرفها صلفا وتكبرا وسنوعا .

فان استجلى القارئ هذه الأشياء الأساسية الثلاثة أمام عينيه وذهنه فلن يجد في هذا الكتاب انفصاما وتنافرا في الأسلوب ، أو هوة وفجوة تقطع استمرار موضوعه واتصاله وترابطه ، أو نقصا في ارتباط موضوعاته العديدة ببعضها .

حقا أن هذا الكتاب ليس (غير مترابط) في أى موضع منه بالنظر الى موضوعه وبحثه الرئيسى وهدفه . فالمباحث والمواضع التى يعالجها — من أوله الى آخره — تتصل ببحثه الأساسى وهدفه اتصال لالىء العقد الواحد ببعضها رغم تباين ألوانها وأحجامها ، اذ يضع القرآن أمامه هدفا بعينه لا يتغير سواء حين يتحدث عن قصة خلق السماوات والارض والإنسان ، أو حين يشير الى ظواهر الكون ، أو يأتى بحوادث من واقع التاريخ البشرى . ولما كان هدفه هداية الإنسان لا تعليمه علوم الطبيعة أو التاريخ أو الفلسفة أو تلقيه أى فن أو علم من الفنون والعلوم ، تراه لا يولى هذه الموضوعات اهتماما . والأمر الوحيد الذى يعطيه كبير اهتمام هو اجلاء الحقيقة وتبيينها لحو أغلاط الفهم والتصور عنها وأقرارها وتثبيتها فى الالباب ، ولتحذير البشر من مغبة المواقف الخاطئة ودعوة الإنسانية كى تسلك سبل السلام . كذلك تراه ينتقد المعتقدات والنظم الاخلاقية ، ويفند أعمال الافراد والجماعات ويورد مناقشاته وحججه لمشاكل ما بعد الطبيعة .. الخ

لهذا فهو اذ يقرر شيئا أو يذكر أمرا أو يناقش مسألة انما يفعل ذلك لاتصال هذا الشيء بهدفه وغرضه ، على حين يترك تفاصيله غير الضرورية التى لا صلة له بها ، ثم يعود كرة أخرى الى بحثه الرئيسى ودعوته التى يدمر حولها كل موضوع فيه .

الا ان القرآن حين يدرس تحت ما سلف من أضواء فليس من شك فى رؤيته كله منائشة عقلية محكمة وليس من ريب فى التيقن من استمرار موضوعه وبحثه واتصاله ببعضه عبر حروفه وكلماته وسطورته وصفحاته .

الخلفية :

والمرء لا يستطيع فهم عديد من المباحث التى يتناولها القرآن بالعرض والنقاش فهما جيدا ما لم يكن قد الم بخلفية تنزيلها ، ومن ثم يتحتم عليه أن يقف على الأحوال والظروف الاجتماعية والتاريخية ونحوها التى تعينه على شرح وتفسير أى موضوع خاص . اذ القرآن لم ينزل كلا متكاملا فى آن واحد ، كما أن الله تعالى لم يلق الى محمد عليه الصلاة والسلام نسخة منه مكتوبة منذ بداية مهمته ويطلب اليه أن ينشرها ويدعو الناس كى يتبنوا نهجا خاصا فى الحياة .

كذلك ليس القرآن عملا أدبيا على النمط التأليفى المؤلف تنمو فكرته الأساسية وتتطور فى تناسق وترتيب منطقى مطرد كما أنه لا يشاكل هذا الصنف من الاعمال فى أسلوبه . فالقرآن يتخذ سياقا يتناسب وقيادة الحركة

الاسلامية التي اشعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت اشراف القرآن وقيادته المباشرة وعلى هذا فالله سبحانه وتعالى اوحى القرآن وانزله رويدا رويدا ليوفى متطلبات الحركة ويسد احتياجاتها ولوازمتها في كافة مراحلها المختلفة .

السور المكية :

حين امر الرسول الكريم أن يبدأ مهمته في مكة أنزل الله عليه تلك الارشادات والتعاليم التي يحتاجها في تدريبه على هذا العمل الجليل الذي أسند اليه . كذلك أوضح الله الحقيقة ورد باختصار على أخطاء الفهم الشائعة التي أضلت الناس ودفعتهم الى الدخول مداخل السوء في حياتهم ودعاهم الى قبول مبادئ الأخلاق الأساسية واتخاذ الموقف الصواب الذي يؤدي الى فلاح البشرية وسعادتها .

هذه الرسائل الاولى المكبرة تتالف من جهل قصيرة مختصرة صيغت في لغة فصيحة سلسلة ذات جرس قوى مؤثر لتلائم ذوق من كانت تخاطبهم آنذاك فجاء أسلوبها الأدبي رائعاً أخذاً حتى انها خالطت سويداء قلوبهم وبلغت في سحرها أن أستحوذت على مشاعر سامعيها فراحوا يرددونها اعجاباً بجمالها وتألقها . ورغم أن الحقائق العامة كانت جليلة في هذه الرسائل (السور) الا انها كسيت لونا محليا وزودت بالادلة والمجالات والامثلة والشواهد والصور التوضيحية المستوحاة من البيئة التي كان المخاطبون الأوائل على علم تام بها . ولكي تحرز هذه الرسائل تاثيرها الفعال المطلوب تم تسديدها الى تاريخهم وتقاليدهم وآثارهم ومعتقداتهم واهللاقهم وطرقهم الفاسدة المفعمة بالشرور والآثام .

هذه المرحلة المبكرة أسفرت بعد أعوام أربعة عن ايمان بعض من خيار القوم بالدعوة ، وأسسوا نواة الأمة الاسلامية التي اكتملت فيما بعد . غير أن الأكثرية العظمى من قريش راحت تعارضهم وتقف في وجههم فهم قد ظنوا في جاهليتهم أن هذه الجماعة تستهدف مصالحهم ورغائبهم ونزواتهم وتقاليد آبائهم وأجدادهم العتيقة الموروثة . ورغم هذا استمرت رسالة القرآن تنتشر خارج حدود مكة حتى وصلت الى أماكن أخرى وقبائل أخرى .

هناك دخلت الحركة الاسلامية مرحلتها الثانية التي امتدت أعواما تسعة وبدأت حركة مقاومة عنيفة في وجه الجماعة الاسلامية لا من جانب قريش وحدها ، وانما شمر أغلب الزعماء المؤيدين لها عن سواعدهم ليخنفوا هذه الحركة او على الاقل يحاصروها ويمنعوا تقدمها مجندين لهذا العمل كل الطاقات وجميع انواع الاسلحة . فاشاعوا عنها الشائعات والدعاوى الكاذبة ، ونسجوا التهم وحكوها ، وأثاروا ضدها اعتراضات واهية ، وضوعوا الأجواء من حولها برياح الشكوك والريب كي يبعدوا العامة عن الانضمام اليها والتحالف معها وحجبوا الزائرين من غير أهل البلاد عن الاستماع الى النبي الاعظم وصبوا أنواع القساوات وصفوف العذابات

على أبدان من قبلوا الاسلام وقاطعوهم اجتماعيا واقتصاديا كى يتضوا عليهم المضاجع ويكرهوهم على طاعتهم وبلغ اضطهادهم للمسلمين مبلغا لا يحصى حتى اضطر بعضهم ان يتركوا منازلهم فارين الى الحبشة مرتين ثم هاجروا كلهم آخر الامر الى المدينة .

غير ان الحركة استمرت فى الاتساع والانتشار رغم كل الاضطهادات والمعوقات ونادرا ما خلت أسرة أو عائلة فى مكة لم يقبل احد أفرادها دعوة الاسلام الأمر الذى خلق بالطبع مرارة وأسى فى قلوب المعارضين فاشتد اضطهادهم للمسلمين وبلغ ذراه حين راوا اخوانهم وأبناء اخوانهم وأبناءهم وبناتهم وأخواتهم وعشيرتهم المقربين قد دخلوا فى الاسلام وآمنوا به وغدوا من مؤيديه ومعاضديه الذين كانوا على استعداد لبذل أرواحهم ونفوسهم ونفائسهم دفاعا عنه وذودا .

ولقد اشدت ساعد الحركة باجتنابها خيرة الناس الى حظيرتها وهم الذين تحولوا بعد قبولهم الاسلام أمثلة مجسدة للفضيلة مما جعل الدنيا تستشعر سمو الحركة الخلقى الذى كان يصهر شخصيات تابعيها ويصبها فى قالبه .

وعبر هذا النضال المر الطويل واصل الله تنزيهه بما يطابق مطالب الحالة آنذاك ، فأوحى الى نبيه آيات اثرت فى أفكار سامعيها وسلوكهم تأثيرا جد كبير ، وعرفت المسلمين بواجباتهم الأولية ، وغرست فيهم روح الاخلاص والفداء لتضمهم الى بعضهم لبنات أعضاء فى الجماعة الاسلامية . كذلك لقنتهم الرحمة والخلق الدمث وعفاف الشخصية وطهرها ، ودربتهم ليكونوا دعاة للاسلام . ومن وجهة أخرى واست هذه الرسائل الالهية المسلمين وطمانتهم وروحت عنهم وحثتهم بالوعود الغالية فى نجاح دنيوى وسعادة أخروية وحرضتهم على الجهاد فى سبيل الله بجأش رابط وعزم ثابت وشجاعة فائقة . ولقد امتلات قلوب المسلمين آنذاك بروح التضحية والفداء فى سبيل هذه القضية الشريفة حتى انهم كانوا على استعداد لأن يتحملوا كافة ألوان البلاء ويقاتلوا ضد المعارضة المريرة القاسية .

وفى الوقت ذاته أُنذرت هذه الآيات معارضى الحركة وأشياعهم ، وسيقت الامثلة من تواريخ الامم المجاورة لاثبات ذلك وحولت انظارهم ومدراكهم الى آثار دورهم التى يمرون عليها فى رحلاتهم ، وجعلت أطلال مساكنهم عبرة لتلقى الدروس والعظات وطالبتهم الآيات أن ينظروا الى الظواهر الطبيعية التى يرونها فى المساء وحين يصبحون سواء فى السماوات أو فى الأرضين كدليل على وحدانية الله وحتمية البعث والحساب فى الآخرة .

لقد كشفت الرسائل الالهية الاولى عن عورات الوهية الاوثان والوثنيين الكاذبة وشركهم بالله وعبادتهم تقاليد الالباء والاجداد البالية بغية اقتناع اولى الالباب السليمة بخطئهم ونقدت تصوراتهم المجوجة المتهترئة وبينت مدى انفصالهم عن الله وعدم أيمانهم بحسابه لهم يوم الدين بمعقولية ظاهرة لم تترك فى البابهم وافئدتهم شجرة للشك والارتياب ، فأنهى كل ظن واندثرت

كل ربة ، واجيب كل اعتراض وانجلي كل تعقيد وقعوا فيه واوقموا فيه
غيرهم .

وزبدة القول أن هذه الخطابات برهنت في جلاء على أن تلك الطرق القديمة
البالية كانت قائمة على الجاهلية ويعوزها المعنى والحجة ، كما أنذرت
الكافرين سوء المآل لسوء أخلاقهم وفساد نهوجهم في الحياة وعاداتهم
الجاهلية النافقة . ومعارضتهم الحق واضطهادهم المؤمنين واخراجهم
رجالا أن يقولوا آمنا بالله الواحد القهار . وإلى جانب هذا كله قدمت
هذه السور المبكرة بشكل عام مبادئ الحضارة والأخلاق الأساسية
التي حازت قبولا على الدوام والتي كونت الحضارة الالهية المضيئة .

وفي أثناء هذه المرحلة المكبة طرأت على الحركة تغيرات عدة إذ اتسعت
يوما بعد يوم واشتدت معارضتها ومقاومتها على قدر انتشارها وقوتها ، ثم
ما لبثت أن اصطدمت بأصحاب العقائد المختلفة وأنصار أساليب الحياة المتباينة
مما نتج عنه ظهور مشاكل جديدة فبدأت السور والآيات تتناول مواضيع
جديدة متعددة وهذا يفسر لنا اختلاف أسلوبها عن أسلوب الخطابات والسور
الاولى .

هذه هي خلفية السور التي نزلت على مدى ثلاثة عشر عاما من
الحياة المكية .

السور المدنية :

بعد الوقوف في وجه المقاومة ثلاث عشرة سنة داخل مكة وجدت الحركة
الاسلامية لها مركزا جديدا في المدينة حيث يتيسر عليها أن تلم شعث اتباعها
من كل أحذاب الجزيرة العربية وأصوابها ، وتوحدهم وتقوى عضدهم ، وعلى
هذا هاجر الرسول الاكرم عليه الصلاة والسلام ومعه أغلب المسلمين الى
يثرب .

وهنا دلفت الحركة الى طورها الثالث في ظل ظروف مغيرة تماما ، فهاهي
قد نجحت في تأسيس دولة منظمة مما نجم عنه اشتباك مسلح بينها وبين أمة
الجاهلية القديمة . كذلك نزل اليهود والنصارى الى حلبة الصراع يناوشونها
رغم ادعائهم أنهم أهل كتاب واتباع من سبق من الانبياء ، كما أضحي لزاما
على الحركة الاسلامية أن تلقى ضروبا متعددة الامزجة والالوان من المسلمين
المنافقين الذين دخلوا الاسلام بوسيلة أو باخرى

غير أن الحركة قدر لها النجاح رغم كل جبال العوائق الراسيات وتمكنت
من نشر لوائها على الجزيرة العربية بأكملها بعد خوض نضال وكفاح عنيف
دام عشرة أعوام وغدت في مركز ثابت ووضع رأس يمكنها من بسط رسالتها
الأهمية الإصلاحية الى العالم الخارجي .

ان عديدا من التغيرات قد وقع أيضا في هذه المرحلة وكل أمر انقلب

وتغير أضحت له مشاكله الخاصة ، ولذا أوحى الله تعالى الى رسوله صنفوا من الرسائل التي تتطلبها كل مناسبة جديدة ، وهذا هو السبب في مجيء بعضها مصاغاً في بيان ناري متقد صادر من منذر محذر ، على حين أتى البعض الآخر في صيغة مرسوم ملكي من لدن المشرع المقنن ، وبعضها في أسلوب المعلم والمدرّب والمصلح معلماً مبادئ وطرق تأسيس وإنشاء المجتمع وبناء وارساء الحضارة الراقية من أجل تصريف شئون الحياة المختلفة وتدبيرها ، والبعض الآخر يسدى تعليمات بشأن كيفية التعامل مع المنافقين والكفار وقد صاروا رعايا للدولة ، ثم لقن المسلمون في بعض من هذه الرسائل الالهية الاسس التي تضبط العلاقات بينهم وبين أهل الكتاب وشئون الحرب وعلاقاتهم بالحلفاء على حين تم تدريبهم وتربيتهم في آيات أخرى ليؤدوا واجباتهم ويفوا بعهودهم بوصفهم خلفاء رب العالمين كذلك يلقي بعض هذه الايات أضواء وتعاليم لهداية المسلمين ويحذّره أن يهنوا ويضعفوا غتذهب ريحهم ويحضهم على التضحية بالحياة وما فيها ومن فيها في سبيل الله ، بينما البعض الآخر تراه يعلمهم الدروس الأخلاقية التي تلزمهم في الهزيمة والنصر وفي الشدة والرخاء وفي الحرب والسلام .

وقصارى القول أن هذه الايات كلها دربتهم على كيفية أنجاز المهمة المتعلقة بالرسالة من أجل نشر الاسلام وسيادته باعتبارهم خلفاء الرسول الاكرم عليه الصلاة والسلام ، لذا فقد دعا بعض آيات القرآن أهل الكتاب والمنافقين والكفار والمشرّكين الى الاسلام ووبخهم وعنفهم على قسوة قلوبهم وتحجرها ، وانذرهم نارا تلتظي ، وحذرهم عاقبة إهمالهم الدروس والعبر المستقاة من قصص التاريخ الماضي وحوادثه كي لا تكون لهم حجة على الله في اتباعهم ما ضل من السبيل .

هذه هي خلفية السور التي نزلت على مدى سنوات عشر في يثرب وواضح تمام الوضوح ان أسلوبها ولا بد مخالف لأسلوب السور المكية .

الاسلوب :

لا بد أن يتضح مما سبق أن نزول القرآن ووحيه بدأ مع بداية الحركة الاسلامية واستمر ثلاثاً وعشرين سنة ، وأن سوره نزلت وفقاً لمقتضيات أطوار الحركة ومراحلها المختلفة ومن ثم يتضح أن كتاباً مثل هذا من المحال أن يحوى تشاكلاً واتساقاً في الأسلوب على نحو يناظر ما هو متبوع في كتب الديانات المماثلة له . وعلى المرء أن يضع في ذهنه كذلك أن سور القرآن المختلفة — ما طال منها أو قصر — لم يكن القصد منها أن تنشر فور نزولها في هيئة كتيبات بل قصد منها أن تلقى وتوجه كدروس وتشر وتذيع كما هي وبالتالي لم يكن ممكناً أن تنزل في أسلوب كتاب مؤلف مكتوب أضف الى هذا أن هذه الصور ذات طبيعة تختلف بالضرورة عن المحاضرات التي يلقيها أستاذ من الاساتذة ومن ثم فأسلوبها لا يجانس أسلوب المحاضرات كما أن الرسول الاعظم صلوات الله عليه وسلامه أسندت اليه مهمة خاصة وكان عليه أن يخاطب العواطف والألباب على السواء ويتعامل مع أناس ذوي

أذهان تتباين في مستوياتها ومواجهتها ، ويقابل أوضاعا متلوثة ويصادف ضروبا كثيرة من التجارب خلال زمن مهمته فمثل هذا الشخص ذي المهمة الشاقة كان عليه أن يقوم بكل ما يتطلبه أنتشار الرسالة وتقتضيه قيادة الحركة . فكان عليه أن يقر رسالته في عقول الناس من كافة وجوهها كي يتحقق تغيير تلال الأفكار المتخلفة العفنة ، وأن يؤجج المشاعر والعواطف كي تواجه قوى المعارضين وأن يدرّب أتباعه ويصلحهم كي يملأهم بالطاقة الروحية والشجاعة والاقدام، وأن يدحض حجج معارضييه وبراهينهم ويكشف سوءات أخلاقهم الى غير ذلك من مقتضيات انجاح المهمة لهذا كان لابد من ملائمة أسلوب ما أنزل الله على رسوله للوازم الحركة ومتطلباتها ، ومن هنا نقف على مدى الخطأ في أن نفتش في القرآن وآياته عن أسلوب الكنب التأليفى أو أسلوب محاضرات الجامعة .

أن ما سبق يفسر لنا تكرار الاشياء مرارا في القرآن . فإى مهمة وحركة يلزم لها بسط ما تتطلبه في مرحلة من مراحلها مع ضرورة التزام الصمت ازاء ما تحتاجه في مرحلتها المقبلة لهذا فان احتياجات الحركة ما تقفا تتكرر ما دامت الحركة لم تدخل في مرحلة أخرى سواء استمرت شهورا أم أعواما . وطبيعى أن تكرر هذه الأمور يتخذ ألفاظا وأساليب متنوعة لتجنب الرتابة كما أنها تصاغ في لغة جميلة جلييلة لتكون ذات تأثير فعال ، أضف الى هذا أن القرآن يكرر عقيدته ومبادئه الاساسية في مواضع مناسبة ليحفظ الحركة قوية في كل مرحلة ودور .

لذا فالسور التى نزلت في مرحلة من المراحل تشترك في معالجة نفس الموضوعات بشكل عام مع اختلاف الالفاظ والاشكال والصور ، كذلك تحوى كل سور القرآن أشارت الى العقيدة الرئيسية وهى وحدانية الله وصفاته والاخرة والحساب والثواب والعقاب والنبوة والايمان بالكتاب وما فيه . كما أنها تعلم الرحمة والشفقة والجلد والايمان والثقة في الله والاعتماد عليه وما الى ذلك لكيلا تهمل هذه الفضائل في أى من مراحل الحركة ولو كانت إحدى هذه القواعد او المبادئ قد ضعفت في أى مرحلة ولو باقل القليل لما استطاعت الحركة الاسلامية أن تحرز تقدما في روحها الحقيقية وجوهرها .

الترتيب :

وقليل من امعان النظر والتفكير في ضوء التباين بين السور المكية والمدنية يجيب على من يسأل : لماذا لم ترتب سور القرآن حسب ترتيب نزولها ؟ والحق أن هذا السؤال على جانب كبير من الأهمية لان أعداء الاسلام قد تصيدوه وراحوا يستخدمونه في خلق المزاعم الشوهاء حول القرآن وبث الظنون والمزاعم السخيفة بشأن ترتيب السور الحالى ، فهم يرون ، أن أتباع محمد (عليه الصلاة والسلام) قد نشروا القرآن دون أى ترتيب يسهل ادراكه وملاحظته كالترتيب الزمنى أو غيره وانهم فقط حاولوا — كما هو واضح من الكتاب — أن يقدموا السور الكبيرة على الصغيرة ..

هذه الشكوك والمزاعم مبنية في أصلها على جهل الحكمة الكامنة في ترتيب القرآن الحالي فرغم حتمية أن يكون القرآن كتابا لكل عصر وأوان كان تنزيله لأبد وأن يكون تدرجا على فترة ظلت ثلاثا وعشرين سنة ورفق مقتضيات ومستلزمات الأدوار المختلفة التي كانت تعيشها الحركة الإسلامية ومن الواضح أن تسلسل الوحي — الذي كان يناسب التطور التدريجي للحركة الإسلامية — لم يعد له وجه مناسب بعد أكمال القرآن . وهنا استلزم الأمر ترتيبا آخر يتفق مع الظروف التي تبدلت ويناسبها . فلقد كان القرآن في دور المرحلة الأولى للحركة يخاطبهم كانوا على جهل تام بالإسلام ومن ثم كان عليه بالطبع قبل أي شيء أن يعلمهم ويلقنهم أسس الإيمان ومواده الأساسية أما بعد نضوجها واكتمالها اهتم القرآن في المقام الأول بمن قبلوا الإسلام وكونوا جماعة لتنفيذ المهمة التي كلفهم بها الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام . وواضح من هذا أن ترتيب الكتاب الكامل كان لابد من اختلافه عن ترتيب نزول آياته الزمنية حتى يناسب مستلزمات الأمة الإسلامية في كل العصور والدهور . فكان على القرآن — أولا — أن يوقف المسلمين على واجباتهم بشأن تنظيم حياتهم وأن يهيئهم لحمل رسالته إلى العالم الخارجي الذي يجهل الإسلام كما كان عليه أن يحذر المسلمين من المفاسد والشرور التي ظهرت بين أتباع من سبق من الأنبياء لكي يبقوا في مأمن عنها . وعلى هذا كان لزاما أن تكون سورة البقرة ونظيراتها المدنية وليست سورة العلق ومثيلاتها المكية في مستهل القرآن وبدايته .

وثمة أمر آخر ينبغي أن يؤخذ في الاعتبار وهو أن ليس مما يناسب هدف القرآن وغرضه أن تجمع كافة السور التي تعالج موضوعات متجانسة وتصنف مع بعضها . ولتفادي النزعة الواحدية في دراسته كان لابد كإمر أساسي وجوهري — أن تتخلل السور المكية أخواتها المدنيات وأن تتبع السورة المدنية قريناتها المكيات وحتى تظل صورة الإسلام الكاملة منشورة أمام القارئ عبر صفحات الكتاب كان لابد وأن تتناثر الدرر التي نزلت في المراحل الأولى بين الجواهر التي نزلت في المراحل المتأخرة وهذه هي حكمة الترتيب الحالي .

وجدير بالإشارة أن ترتيب السور القرآنية الحالي لم يقم به الصحابة كما يزعم البعض ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام نفسه هو الذي رتبها بهدى من الله وتحت إشرافه ومباشرته . فكان صلوات الله وسلامه عليه كلما أوحيت إليه سورة من ربه استدعى أحد كتابه وأملاها عليه كلمة كلمة كما نزلت وطلب إليه أن يضعها قبل سورة كذا وبعد سورة كذا . والحال نفسه في شأن الآيات التي لم يقصد بها أن تكون قائمة برأسها إذ كان عليه الصلاة والسلام يرشد كتبه إلى مكانها الصحيح الذي يجب أن توضع فيه من سورة كذا بحيث تكون جزءا منها . كذلك كان الرسول عليه الصلاة والسلام يتلو القرآن في مناسبات أخرى بنفس الترتيب الحالي وكان يوجه أصحابه لحفظه وتلاوته على نفس النحو . لذا فالحقيقة التي لا تقبل قلازمة ظفر من شك أن سور القرآن قد تم ترتيبها على النحو الحالي يوم أن اكتمل القرآن وأن من رتبها هو من أوحى إليه وبهedy وإشراف ومتابعة من أوحاها .

جمع القرآن :

ان الله الذي نزل الذكر قد حفظه بنفسه وأعد لحفظه وصيانيته السرمدية ترتيبات وتجهيزات فكان الرسول اذا نزلت آية من الله أملاها غدونت على جريد النخل ورقاع الجلد ولحاء الشجر وقطع العظام العريضة ثم جمعت كل هذه القطع ووضعت في كيس كبير . وكان بعض الصحابة رضوان الله عليهم يتخذون من هذه القطع نسخا يستخدمونها في منازلهم على حين حفظ المسلمون آيات الكتاب عن ظهر قلب . إذ كان عليهم ترتيلها في صلواتهم التي فرضت عليهم منذ بداية الاسلام .

ورغم أن كثرة من الصحابة حفظوا القرآن كله أثناء حياة النبي إلا أنه لم يجمع في شكل كتاب غير أنه فور موت الرسول عليه الصلاة والسلام وقع ما استلزم جمع القرآن في كتاب فلقده هبت عاصفة عنيفة من الارتداد عن الاسلام واستشهد كثير من الصحابة الكرام أثناء خوضهم معارك اخماد الردة وكان من بينهم عدد من حفظة القرآن عندئذ خطر ببال سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ضرورة اتخاذ تدابير لحفظ القرآن على رسمه الاصلى ضد أى من صنوف الاخطار والمهلكات إذ ليس من الحكمة والتعقل الاعتماد على الحفظ اعتمادا كليا . فطالب عمر بضرورة تدوينه على هيئة كتاب صحيح معتمد واراد أن يحمل سيدنا أبابكر رضى الله عنه على القيام بهذه الخطوة لكن أبابكر أبدى ترددا أول أمره من أن يفعل ما لم يفعله النبي إلا أنه وافق بعد نقاش وتباحث واوكل هذه المهمة الى زيد بن ثابت الذى تردد أيضا في البداية ولنفس السبب الذى من أجله تردد أبو بكر رضى الله عنه ثم ما لبث أن اقتنع واطمأن قلبه وتعهده هذا العمل التاريخى .

لقد كان سيدنا زيد بن ثابت رضوان الله عليه كفاء لهذه المهمة فهو قد عمل من قبل كاتب وحى للرسول عليه الصلاة والسلام وكان واحدا من بين من تعلموا القرآن عن رسول الله مباشرة هذا الى جانب أنه كان حاضرا وقت أن قرأ الرسول عليه الصلاة والسلام القرآن على جبريل عليه السلام . وعلى هذا أتخذت إجراءات جمع كافة القطع التى دون عليها القرآن وتركها لهم رسول الله ثم التى كانت فى حوزة الصحابة (١) وعن طريق الصحابة الكرام الذين حفظوا القرآن كله أو بعضه عن ظهر قلب تمت مقارنة سائر القطع وتحقيقها وكان زيد لايدون الا ما أتفقت عليه هذه المصادر الثلاثة (القطع التى تركها الرسول والقطع التى فى حوزة الصحابة وصدورهم) وبهذا جمعت نسخة صحيحة معتمدة وحفظت فى دار أم المؤمنين السيد حفصة بنت عمر ابن الخطاب احدى زوجات النبي وأذن فى الناس من شاء فلينسخ منها له نسخة ومن شاء فليضبط او يقارن ما عنده عليها .

(١) تطلعنا الروايات الصحيحة على أن بعض الصحابة الكرام قد نسخوا قطعاً من القرآن أثناء حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ليستخدموها فى دورهم ومنهم على وجه التحديد سيدنا عثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمرو بن العاص وسالم مولى حذيفة ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبى بن كعب وأبو زيد قيس بن السكن وغيرهم رضوان الله عليهم أجمعين .

هذه الشكوك والمزاعم مبنية في أصلها على جهل الحكمة الكاملة في ترتيب القرآن الحالي فرغم حتمية أن يكون القرآن كتابا لكل عصر وأوان كان تنزيله لأبد وأن يكون تدرجا على فترة ظلت ثلاثا وعشرين سنة ورفق مقتضيات ومستلزمات الأدوار المختلفة التي كانت تعيشها الحركة الإسلامية ومن الواضح أن تسلسل الوحي — الذي كان يناسب التطور التدريجي للحركة الإسلامية — لم يعد له وجه مناسب بعد اكتمال القرآن . وهنا استلزم الأمر ترتيبا آخر يتفق مع الظروف التي تبدلت ويناسبها . فلقد كان القرآن في دور المرحلة الأولى للحركة يخاطب من كانوا على جهل تام بالاسلام ومن ثم كان عليه بالطبع قبل أى شئ أن يعلمهم ويلقنهم أسس الايمان ومواده الأساسية أما بعد نضوجها واكتمالها اهتم القرآن في المقام الاول بمن قبلوا الاسلام وكونوا جماعة لتنفيذ المهمة التي كلفهم بها الرسول الاعظم عليه الصلاة والسلام . وواضح من هذا أن ترتيب الكتاب الكامل كان لأبد من اختلافه عن ترتيب نزول آياته الزمنى حتى يناسب مستلزمات الامة الإسلامية في كل العصور والدهور . فكان على القرآن — أولا — أن يوقف المسلمين على واجباتهم بشأن تنظيم حياتهم وأن يهيئهم لحمل رسالته الى العالم الخارجى الذى يجهل الاسلام كما كان عليه أن يحذر المسلمين من المفاسد والشرور التى ظهرت بين أتباع من سبق من الانبياء لكى يبقوا فى مأمن عنها . وعلى هذا كان لزاما أن تكون سورة البقرة ونظيراتها المدنية وليست سورة العلق ومثيلاتها المكية فى مستهل القرآن وبدايته .

وثمة امر آخر ينبغى أن يؤخذ فى الاعتبار وهو أن ليس مما يناسب هدف القرآن وغرضه أن تجمع كافة السور التى تعالج موضوعات متجانسة وتصنف مع بعضها . ولتفادى النزعة الواحدية فى دراسته كان لأبد كامن أساسى وجوهري — أن تتخلل السور المكية أخواتها المدنية وأن تتبع السورة المدنية قريناتها المكيات وحتى تظل صورة الاسلام الكاملة منشورة أمام القارئ عبر صفحات الكتاب كان لأبد وأن تتناثر الدرر التى نزلت فى المراحل الاولى بين الجواهر التى نزلت فى المراحل المتأخرة وهذه هى حكمة الترتيب الحالى .

وجدير بالاشارة أن ترتيب السور القرآنية الحالى لم يقم به الصحابة كما يزعم البعض ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام نفسه هو الذى رتب بهدى من الله وتحت أشراغه ومباشرته . فكان صلوات الله وسلامه عليه كلما أوحيت اليه سورة من ربه استدعى أحد كتابه وأملاها عليه كلمة كلمة كما نزلت وطلب اليه أن يضعها قبل سورة كذا وبعد سورة كذا . والحال نفسه فى شأن الآيات التى لم يقصد بها أن تكون قائمة برأسها اذ كان عليه الصلاة والسلام يرشد كاتبه الى مكانها الصحيح الذى يجب أن توضع فيه من سورة كذا بحيث تكون جزءا منها . كذلك كان الرسول عليه الصلاة والسلام يتلو القرآن فى مناسبات أخرى بنفس الترتيب الحالى وكان يوجه أصحابه لحفظه وتلاوته على نفس النحو . لذا فالحقيقة التى لا تقبل دلاية ظفر من شك أن سور القرآن قد تم ترتيبها على النحو الحالى يوم أن اكتمل القرآن وأن من رتبها هو من أوحى اليه وبهدى واشراف ومتابعة من أوحاها .

جمع القرآن :

ان الله الذي نزل الذكر قد حفظه بنفسه وأعد لحفظه وحسيانته السرمدية ترتيبات وتجهيزات فكان الرسول اذا نزلت آية من الله أملاها فدونت على جريد النخل ورقاع الجاد ولحاء الشجر وقطع العظام العريضة ثم جمعت كل هذه القطع ووضعت في كيس كبير . وكان بعض الصحابة رضوان الله عليهم يتخذون من هذه القطع نسخا يستخدمونها في منازلهم على حين حفظ المسلمون آيات الكتاب عن ظهر قلب . اذ كان عليهم ترتيبها في صلواتهم التي فرضت عليهم منذ بداية الاسلام .

ورغم أن كثرة من الصحابة حفظوا القرآن كله أثناء حياة النبي الا أنه لم يجمع في شكل كتاب غير أنه فور موت الرسول عليه الصلاة والسلام وقع ما استلزم جمع القرآن في كتاب فلقد هبت عاصفة عنيفة من الارنداد عن الاسلام واستشهد كثير من الصحابة الكرام أثناء خوضهم معارك اخماد الردة وكان من بينهم عدد من حفظة القرآن عندئذ خطر ببال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ضرورة اتخاذ تدابير لحفظ القرآن على رسمه الاصلى ضد أى من صنوف الاخطار والمهلكات اذ ليس من الحكمة والتعقل الاعتماد على الحفظ اعتمادا كليا . فطالب عمر بضرورة تدوينه على هيئة كتاب صحيح معتمد واراد أن يحمل سيدنا أبابكر رضي الله عنه على القيام بهذه الخطوة لكن أبابكر أبدى ترددا أول أمره من أن يفعل ما لم يفعله النبي الا أنه وافق بعد نقاش وتباحث واوكل هذه المهمة الى زيد بن ثابت الذي تردد أيضا في البداية ولنفس السبب الذي من أجله تردد أبو بكر رضي الله عنه ثم ما لبث أن ائتمن واطمأن قلبه وتعهده هذا العمل التاريخي .

لقد كان سيدنا زيد بن ثابت رضوان الله عليه كفاء لهذه المهمة فهو قد عمل من قبل كاتب وحى للرسول عليه الصلاة والسلام وكان واحدا من بين من تعلموا القرآن عن رسول الله مباشرة هذا الى جانب أنه كان حاضرا وقت أن قرأ الرسول عليه الصلاة والسلام القرآن على جبريل عليه السلام . وعلى هذا اتخذت إجراءات جمع كافة القطع التي دون عليها القرآن وتركها لهم رسول الله ثم التي كانت في حوزة الصحابة (١) وعن طريق الصحابة الكرام الذين حفظوا القرآن كله أو بعضه عن ظهر قلب تمت مقارنة سائر القطع وتحقيقها وكان زيد لايدون الا ما اتفقت عليه هذه المصادر الثلاثة (القطع التي تركها الرسول والقطع التي في حوزة الصحابة وصدورهم) وبهذا جمعت نسخة صحيحة معتمدة وحفظت في دار أم المؤمنين السيدة حفصة بنت عمر ابن الخطاب احدى زوجات النبي وأذن في الناس من شاء فلينسخ منها له نسخة ومن شاء فليضبط او يقارن ما عنده عليها .

(١) تطلعنا الروايات الصحيحة على أن بعض الصحابة الكرام قد نسخوا قطعاً من القرآن أثناء حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ليستخدموها في دورهم ومنهم على وجه التحديد سيدنا عثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمرو بن العاص وسالم مولى حذيفة ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبى بن كعب وأبو زيد قيس بن السكن وغيرهم رضوان الله عليهم أجمعين .

وقد نهج زيد رضي الله عنه في ترتيب السور عين الترتيب الذي اقره الرسول بنفسه وما كان لزيد ان يتبع أو يبتدع ترتيبا آخر وهو الذي اشتهر باتباعه الدقيق لرسول الله عليه الصلاة والسلام في كل أمر حتى انه تردد في البداية في القيام بهذا العمل للشئء الا لان الرسول لم يفعله خلال حياته الشريفة . ولهذا فمن الخطأ والراى الافن أن يزعم أمرؤ أن ترتيب السور على وضعها الحالى قد تم بعد وفاة الرسول الكريم . والحقيقة التى تؤكد أن النبى تلا القرآن مرتين أمام جبريل في آخر رمضان في حياته (١) ما هى الا حجة وبرهان على أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان بكل تأكيد يتبع ترتيبا واحدا لاغير . والحديث النبوى يقطع بأن زيدا بن ثابت قد حضر التلاوة الثانية من آخر تلاوتين . كما أن الصحابة الذين حفظوا القرآن في صدورهم لايد وانهم حفظوه مرتبا على النحو الذى علمه لهم رسول الله عليه الصلاة والسلام .

يقول الامام مالك أن القرآن جمع كما سمعه الصحابة من النبى . كذلك يتحدث القرآن عن نفسه (ككتاب) في مواضع عديدة فمثلا في سورة المزمل وهى من السور المكية الأولى يقول تعالى لرسوله **ورتل القرآن ترتيلا** آية ٤ . وهذا يوضح أن القرآن قد قصد به أن يكون كتابا منذ أول الوحي . والكتاب لا بد له من ترتيب .

أختلاف اللهجات :

بالرغم من أن اللغة العربية كانت لغة عامة مشتركة لكل سكان الجزيرة العربية الا أنه كان هناك بعض الاختلافات في لهجات بعض المناطق والقبائل .

ولاسباب واضحة أنزل القرآن بلهجة قبيلة قريش في مكة ومع هذا رخص للعرب القاطنين في مناطق مختلفة من الجزيرة أن يقرأوا القرآن — تيسيرا عليهم — بلهجاتهم الاخرى ، لكن هذا لم يؤد الى فرق أو أختلاف في معانى آيات الكتاب . وحين اتسع نطاق دعوة الاسلام ونشر خيمته خارج حدود الجزيرة وتوشج العرب بالمسلمين من غير العرب (العجم) بدأت اللغة العربية تتأثر تدريجا ببيئتها الجديدة فخيف أن ينتهى أختلاف اللهجات في قراءة القرآن الى مشاحنات ومنازعات بين ذوى اللهجات المتباينة فيتهم كل منهم الأخرى بتحريف القرآن ويزعم كفره . بالإضافة الى الخوف من احتمال تغير لغة القرآن العربية الجميلة النقية على يد العرب الذين أختلطوا بالعجم وعاشوهم .

(١) تقول الأحاديث الصحيحة أن النبى عليه الصلاة والسلام اعتاد أن يتلو القرآن مرة خلال شهر رمضان أمام جبريل عليه السلام ولكنه تلاه عليه — مكثلا — مرتين في آخر رمضان في حياته وأن زيد بن ثابت حضر التلاوة الثانية من آخر تلاوتين .

لهذا استشار الخليفة عثمان بن عفان صحابة رسول الله وانتهى الامر بان قرر استخدام النسخ المعتمدة التي جمعت بأمر سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله عنه فى العالم الاسلامى دون غيرها وحظر كافة النسخ الاخرى المكتوبة بلهجات مغايرة وتحريمها وكاجراء وقائى أحرق عثمان كافة النسخ الاخرى الموجودة تجنباً لوقوع خطأ أو نزاع مستقبلاً . فبعض الصحابة — مثلاً — كان قد سجل بعض الكلمات التفسيرية والتعليقات على هوامش ما بأيديهم من نسخ فخيف أن تختلط هذه الحواشى بالنص الاصلى وبالرغم من أن هذا الاحتمال كان بعيد الوقوع فى ذلك الوقت الا أن أحراق النسخ الأخرى كان عملاً سديداً حكيماً صادراً من ذى نظر بعيد ثاقب كى يبقى القرآن حصيناً ضد أى تحريف فى المستقبل .

والقرآن الموجود فى العالم كله ليوم هو النسخة الصحيحة من القرآن الذى أصدر أبو بكر الصديق أمره بجمعه والذى أرسل منه عثمان بن عفان رسمياً نسخاً عديدة الى أماكن مختلفة من العالم . ومن به شك فى دسوس القرآن وبقائه حصيناً ضد التغيير والابدال فليقارن أياً من النسخ بالنسخة القديمة ليطمئن قلبه الى جانب أنه لو ابتاع نسخة من القرآن من إحدى مكتبات لجزائر فى غرب أفريقيا مثلاً وقارنها بنسخة حصل عليها من دار للكتب فى جاوة فى أقصى الشرق لوجد النسختين منطبقتين تمام الانطباق على بعضهما وعلى النسخ التى كتبت ووزعت فى عهد عثمان بن عفان ، ولو كان الشك لايزال يرين على قلبه فليأخذ نسخة من القرآن من أى بقعة فى العالم ويطلب الى واحد من الملايين الذين يحفظونه أن يتلوه عليه كلمة كلمة من الالف الى الياء وسيجد أن التلاوة لا بد مطابقة للنص المكتوب بحذافيره . وهذا دليل لا يأتية الدحض من بين يديه ولا من خلفه على أن القرآن الذى بين أيدينا اليوم هو نفس القرآن الذى جاء به محمد عليه الصلاة والسلام الى العالم . وقد يثير الشاك ريباً حول نزوله من عند الله ولكن احداً أياً كان لا يرتاب قيد أنملة فى أصالته وصحته وحصانته ونقائه من كافة أنواع الحذف أو الاضافة والابدال اذ ليس فى تاريخ الانسانية شىء أصح وأصدق من القول بأن القرآن الذى معنا الآن هو بعينه الذى أتى به محمد عليه الصلاة والسلام الى العالم .

ولنتدارس الان موضوع القراءات واختلافها لان وجودها خلق كثيراً من الظن والالتباس وسوء الفهم والزعم بان القرآن لم يبق سليماً كما هو . ولعل الحقائق التالية تساعدنا على فهم طبيعة هذه القراءات ومداها : —

١ — لم يكن الخط العربى الذى كتب به كتاب الرسول اثناء حياته الشريفة يشتمل على نقاط أو حركات صوتية وكذا الحال فى النسخة التى جمعها زيد بن ثابت فى عهد أبى بكر وكذلك النسخ التى وزعها عثمان بن عفان رضى الله عنهم جميعاً .

٢ — رغم أن صحة النص القرآنى قد تاكدت فى الرسم المكتوب الا ان انتشاره كان مشافهة وذلك لانتشار الامية بين الناس وندرة الورق ومع هذا فقد كان العرب القادرون على القراءة والكتابة يلقون بعض المصاعب فى

استكناه معنى هذا الخط . وكان هناك آلاف منهم ممن حفظوا القرآن كله عن ظهر قلب على يد الرسول بشخصه أو صحابته الكرام فاتبعوا القراءة التي علمها الرسول لهم وعلموها لغيرهم .

٣ — أن عثمان بن عفان رضى الله عنه حين أرسل الى كل مراكز الاسلام نسخا من القرآن صحيحة لم يكتف بذلك بل أرسل مع كل نسخة قارئاً ليحافظ على شكل قراءته الصحيحة التي علمهم الرسول بنفسه أن يقرأوها .

٤ — وعلى كر الايام والليالي رأى ضرورة وجود حركات صوتية لتحافظ على قراءة القرآن الصحيحة ومن ثم تحولت النقاط الى حركات صوتية بأمر من زيد حاكم البصرة (٤٥ — ٥٣ هـ) . وفي عهد عبد الملك بن مروان (٦٥ — ٨٥ هـ) عين الحجاج بن يوسف علماء ليضعوا رموزاً جديدة للحركات الصوتية والنقاط بغية التمييز بين الحروف المتشابهة واستمر استخدامها الى يومنا هذا .

ينبغي أن يتضح من الحقائق التاريخية السالفة أن قراءة القرآن (باختلافات طفيفة جداً) هي نفس القراءة التي قراها الرسول عليه الصلاة والسلام ويجمع علماء القرآن على تأكيد القراءة الصحيحة بأنها القراءة التي :

أ — تطابق نص النسخة التي وزعها عثمان بن عفان .

ب — تخضع لمعجم اللغة العربية واستخدامات ألفاظها وتعبيراتها وقواعدها . وفوق كل هذا .

ج — القراءة الماثورة عن النبي نفسه والواردة بحلقات متصلة واسانيد مربوطة في روايتها .

هذا هو سبب وجود اختلافات طفيفة في قراءة القرآن وهي اختلافات لا تتعارض مع معانيه بل توسعها وتجعلها أكثر فهماً . وبهذا لا يوجد أدنى شك في أن الرسول عليه الصلاة والسلام نفسه قد مارس هذه القراءات على اختلافها ورسمها الموجود الان .

ولناخذ القراءتين الصحيحتين للآية ٣ من سورة الفاتحة والآية ٦ من سورة المائدة مثالا على هذا .

فثم قراءتان للآية الثالثة من الفاتحة ، الأولى (مالك يوم الدين) والثانية (ملك يوم الدين) ومن الواضح الجلى أن هاتين القراءتين تجعلان معنى الآية واضحاً متسعاً تماماً (١) .

(١) ذلك أن الملك ولا بد ملك أما المالك فقد لا يكون ملكاً — المترجم .

أما الآية السادسة من المائد فالقراءة الأولى (فاغسلوا وجوهكم . . وأرجلكم) كما يحدث في الوضوء بتقديم عاريتين . والقراءة الثانية (فاغسلوا وجوهكم . . . وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم (١) وهذه القراءة الثانية تبيح للمرء أن يمسح على قدميه بيديه مبتلئين شريطة أن يكون قد غسل قدميه وارتدى خفا أو جوربا سميكاً أو نحوه بعد آخر وضوء ، وهذا الترخيص معمول به لمدة أربع وعشرين ساعة إذا كان المرء ملازماً داره وأثنى وسبعين ساعة ان كان على سفر .

وواضح من المثالين أن القراءات المختلفة لا تضم تعارضاً مع جوهر المعنى على الإطلاق كما أنها تجعله أكثر وأيسر فهماً . والامر ينطبق على كافة القراءات الأخرى .

الشمولية :

يعرف كل أفسان أن القرآن يقول بتقديمه الهداية للإنسانية كلها لكنه ما أن يقرأه حتى يجده موجهاً في أساسه الى العرب الذين كانوا يعاصرون نزوله ورغم أنه يخاطب غيرهم حيناً ويوجه كلامه الى البشرية قاطبة أحياناً الا أنه يناقش بشكل أساسي تلك الأشياء التي يألها ذوق العرب وتتصل ببيئتهم وتاريخهم وعاداتهم . وهذا بالطبع يجعل المرء يتساءل : إذا كان القرآن موجهاً للبشرية كلها فلماذا يضم بين سورته عديداً من العناصر المحلية والقومية المرتبطة بوقت تنزيله ؟ والذين لا يفهمون حكمة هذا الأمر يجمعون على أن القرآن كان متصوداً به اصلاح العرب آنذاك ثم ادعى فيها بعد أنه نزل لهداية البشرية كلها في جميع آونتها ودهورها .

وإذا كان من يثير مثل هذه الاعتراضات لا يدفعه اليها حبه للاعتراض في ذاته بل يبغي الوصول الى حقيقة الامر بالفعل غاى اسأله ان يقرأ القرآن ويستخرج من بين آياته ما يثير في ذهنه هذا الشك وينتقى منه عقيدة أو فكرة أو مبدأ قد يكون المقصود به العرب آنذاك دون سواهم ويتصيد مبدأ أو قاعدة سلوكية خالية من الصبغة العمومية الشاملة وموجهة الى العرب وحدهم حينذاك .

ان مجرد كون القرآن — حقيقة — يدحض العقائد الوثنية الكافرة ويدين العادات المبنية على الشرور والفساد في قوم بعينهم يعيشون في وقت ومكان محدد معلوم ، ثم يقيم ادلته وبراهينه في اثبات وحدانية الله متخذاً المادة المجموعة من بيئتهم عمادة في ذلك فهذا ليس دليلاً دامغاً يثبت

(١) الآية « فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم الى الكعبين » في القراءة الأولى تقرأ « أرجلكم » بفتح اللام على أنها معطوف على « وجوهكم وأيديكم » فيقع عليها فعل « اغسلوا » والقراءة الثانية بكسر اللام على أنها معطوف على « رؤوسكم » فيقع عليها فعل « امسحوا » ثم تكسر لمعطوفها على مجرور بالياء قبلها — المترجم .

الزعم بأن دعوته كانت محلية مؤقتة . وعلينا ان نتفحص المسألة عن كذب وبصيرة متقدمة ثم نقرر ما اذا كان قوله مقصورا على كفار الجزيرة وحدهم ام لا ، وما اذا كانت دعوته تشكل حقيقة تنطبق وكل زمان ومكان ام لا ، وما اذا كنا نستطيع اولا نستطيع في اى مكان وآن تقديم نفس الادلة والحجج التى يقدمها القرآن بنفس القوة لازهاق الكفر ودمغه وما اذا كان فى مقدورنا فى اى عصر ووقت استخدام الدلائل التى يعرضها القرآن لاثبات وحدانية الله — مع تغيير طفيف — ام لا ، فان جاءت اجابة هذه الاسئلة بالقبول والايجاب فليس هناك ما يدعو لضرورة وصف هذا الوحي العام والتنزيل الشامل بأنه محلى مؤقت بحجة واهية هى انه يخاطب مجتمعا خاصا فى فترة خاصة .

ونحن لا نعرف فلسفة ولا منهج حياة ولا عقيدة قط فى العالم تفسر وتشرح كل شيء من مبتداه الى منتهاه بالنظر والتجريد دون أن تشير الى حالات خاصة او تستدل بأمثلة وشواهد اذ من المستحيل — بداهة — ان يتأسس نموذج للحياة على اساس النظر وحده . وحتى اذا فرضنا جدلا امكان تحقق هذا فبالأكيد ان مثل هذا النظام سيبقى مجرد نظرية مخطوطة على الورق ولن ترى النور فى الواقع العملى .

وغوق هذا ، ليس من الضروري ولا من المجدى بدء اية حركة فكرية — جعلت لتكون حركة عالمية — منذ اول امرها على خطوط واسس عالمية وانما الطريقة المثلى لبدئها ان تنشأ فى بلدها الاصلى الاول ، ثم تقدم بوضوح نظرياتها ومبادئها الاساسية التى تكون عمدا نظام الحياة المطلوب وهنا يتحتم على انصارها واشياعها ان يقرروا مبادئها واسسها فى اذهان شعبهم الذى يتكلم لغة واحدة وله عاداته وظروفه الواحدة . ثم ينبغى عليهم قبل كل شيء أن يحققوا مبادئ حركتهم فى داخل بلدهم ويبرهنوا على صلاحيتها وكفاءتها بتحقيقهم نظاما حياتيا سعيدا ناجحا وهذا بالطبع سوف يجذب اليه أما أخرى وستقبل أقوامها العاقلة على تفهم الحركة وتنكب على دراستها وتعقلها ليشرعوا من بعد فى تطبيقها بينهم . ان اى نظام فكرى لا يصح ذا صبغة قومية محلية لمجرد انه قدم اول امره الى امة بعينها ووجهت ادلته وحججه الى شعب بعينه . والحق ان ما يميز بين النظام المحلى والنظام العالمى ويفرق بين النظام المؤقت والنظام الدائم ان النظام المحلى يهدف اما الى بسط سيادته ورفعته او دعوته الخاصة على الامم الاخرى واما الى تقديم مبادئ ونظريات لا تصلح — من حيث طبيعتها — لأن تقدم الى أمم أخرى غيره . ومن جهة أخرى فان النظام العالمى يعطى البشرية كلها درجات ورتبا وحقوقا متساوية ويقدم مبادئ ذات روح عامة وتطبيق شامل اما النظام المحلى فهو لا يفعل هذا . كذلك تتسم مبادئ النظام الدائم بقابليتها للتطبيق فى اى وقت على حين تفقد مبادئ النظام المؤقت واقعيته وامكانية تطبيقها بمرور الزمن وتوالى العصور ولو تدبر المرء القرآن فى ضوء ما تقدم فلسوف يخلص الى ان تعاليمه ذات سمة عامة وتطبيق شمولي واسع .

دستور كامل :

وشمة أمر آخر يثير لغطا ويسبب خلطا ذهنيا وهو الادعاء الذى يتردد دائما بأن القرآن دستور كامل للحياة على حين اذا سرح القارىء طرفه بين آياته لم يجد فيه قواعد ولوائح تفصيلية حول المشاكل الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية وما يشاكلها فيدهش ويحار لعدم رؤيته اى شروح تفصيلية حتى عن الصلاة والزكاة وهما من الفروض الهامة التى يؤكد عليها القرآن نفسه تأكيدا بالغا وما يفتأ يكرر تأكيده هذا ما تواتر آياته وسوره ، لذا فالقارى العادى لا يستطيع أن يفهم كيف يمكن تسمية هذا الكتاب دستورا كاملا .

ومرد هذا الخلط والعجن أن صاحب الاعتراض يغفل جانبا من الحقيقة هو أن الله تعالى لم يرسل الكتاب فحسب بل عين معه رسوله عليه الصلاة والسلام ليرى الناس تعاليمه ويشرح لهم مبادئه بممارستها فى الواقع العملى . وتقريبا للذهن اضرب مثلا بالعمارة او البناء فلو وضع رسم المبنى المقترح دون تعيين مهندس ليشراف على اقامته وانشائه فلا مناص من اعداد كل دقيقة من دقائق رسمه وكل تفصيلة من تفاصيل خطته اما اذا عين مع الرسم مهندس لانشاء المبنى على الفور فبالقطع لا تكون ثمة حاجة الى خطة تحوى ادق التفاصيل بل يكفى آنئذ وجود الخطوط الاساسية للرسم وملامحه الرئيسية ، ومن الخطأ اذن ان نتهم هذه الخطة بالنقص والعيب لأنها لا تحوى التفاصيل الدقيقة .

ولما كان الله قد ارسل مع القرآن رسوله العظيم فإن الحاجة لزمت للمبادئ العامة دون التفاصيل وللتعاليم الكلية الاساسية دون الدقائق الصغيرة ، ومن ثم فوظيفة القرآن الرئيسية ان يقدم قواعد عقلية وخلقية واضحة للطريق الاسلامى ويدعمها بالبراهين العقلية وما يأسر القلب من خطاب . وهو قد خط الحدود الرئيسية لكل شعبة فى الحياة — دون اعطاء لوائح وقواعد — بقدر ما يلزم الجانب العملى لبناء الطريق الاسلامى للحياة الى جانب انه يضع فى اماكن هامة معينة معالم للهداية ليبين لنا كم هو ضرورى أن تقوم هذه الشعوب على ما يرضى الله ووفق رغبته . وقد أسند البناء العملى الفعلى للطريق الاسلامى للحياة — حسب التعاليم التى يحويها الكتاب — الى الرسول عليه الصلاة والسلام الذى بعث خاصة لينشئ النموذج المثالى لحياة الفرد والمجتمع والدولة الاسلامية كى تكون قائمة — فعلا على مبادئ لقرآن . وهكذا فالقرآن دستور كامل بمعنى انه يؤخذ جنبا الى جنب مع السنة النبوية العطرة .

وهناك مسألة أخرى تحير الالباب وترهق العقول وهى اختلافات تفسير القرآن فالناس يرون أن القرآن يعد من يحدثون اختلافات حول كتاب الله ويتقطعون دينهم بينهم وبينهم شيئا سوء العذاب ثم اذا بنا نرى تفاسير عديدة مختلفة للقرآن حتى قل ان يوجد امر تتفق عليه كافتها . ولم يقتصر الامر على المتأخرين وحدهم بل ان العلماء العظام من الرعيل الاول بما فيهم صحابة رسول الله ومن تبعهم لم يتفقوا على تفاصيل الاوامر والتحريمات

والقوانين فهل يستحق أولئك الوعيد والادانة التي وردت في القرآن لتفسيرهم القرآن بمفاهيم شتى ورؤى مختلفة ؟ وإذا كان الأمر ليس كذلك فأي ضرب من الاختلاف يمحّته القرآن ويتوعده بالعذاب السرمدي ؟ .

هذه المسألة واسعة متشعبة وليس في هذا المقام متسع لبسطها ونقاشها ويكفي هنا أن نقول أن القرآن لا يعارض اختلافات الرأي الصحيحة حول تفسير وصاياه وتعاليمه بشرط :

(أ) أن يكون هناك اتفاق بين ذوى الآراء المختلفة حول المبادئ الأساسية .

(ب) أن يبقى الجميع داخل الأمة الإسلامية وبين أفرادها .

والقرآن يستنكر الاختلاف الذى يبدأ بعبادة النفس والغرور والانحراف ويسوق الأمة الى التطاحن والانقسام ولما كان الصنفان من الاختلاف لا يتشابهان في طبيعتهما أو نتائجهما فلا بد ألا يضعهما المرء تحت قسم واحد فالنوع الأول ضرورى لتقدم المجتمع وهو عصب الحياة وروحها وكل مجتمع عاقل مفكر لابد وأن يزكيه ويشجعه لأن وجوده علامة حياة والمجتمع الذى يحتمل كبحة وكظمه هو المجتمع الذى يريد لنفسه أن يتردى في لجج الحماقة والبله أما النوع الثانى فكما تعلمون يضرب بمعاوله في جذور المجتمع ويعمل فيه بالتفسيخ والتقطيع ومن ثم فظهوره في مجتمع ما ليس دليل صحة بل نذير سوء ورمز مرض ومحال أن يأتى بثمار طيبة أو نتائج حسنة .

ولأيضاح هذين الصنفين من انقسام الرأي واختلافه اتمثل باننا لو افترضنا وجود اثنين من العلماء أو الفقهاء يتفقان مبدئيا على أن الله ورسوله فحسب هما الجديران بالطاعة والانصياع وأن القرآن والسنة هما المرجع والسلطة النهائية في سن كافة القوانين ، لكن هذين العالمين أو الفقيهين قد يختلفان حول التفاصيل والدقائق أو حول الفصل في إحدى القضايا بشرط ألا يجعل أحد منهما رأيه معيارا للإسلام أو عدم الإسلام أو يؤخذ في الناس أن الآخر قد خرج على الإسلام ومزق منه متخذا هذا الاختلاف في وجهات النظر ركيزة لدعواه . وفي مقدور كلاهما أن يقدم الى الناس الأدلة والاسانيد التى تدعم رأيه أن كان الأمر يتعلق بهم ويتترك لهم اتخاذ القرار ، أو يرفعها الى مجلس القضاء الأعلى أو الى الهيئة التشريعية في المجتمع إذا كان الأمر يتعلق بمسألة قانونية وعندئذ إما أن يدمغ أحد الرأيين الآخر وينتصر عليه وإما أن يقبلا سويا جنباً الى جنب ولكن ما ينبغي التيقن منه هو أنه لا يسمح أبداً بالاختلاف حول المبادئ الأساسية للإسلام أو حول القضايا والأمر التى قد تؤدي الى انشقاق جماعة جديدة منشقة . فمن الخطأ مثلا أن يتبنى أحد العلماء أو الفقهاء أو المتصوفة أو الزعماء رأيا في أمر لم يجعله الله ورسوله أمرا أساسيا ثم يزعم أنه مبدا أساسى في الإسلام ويعلن أن من خالفوه الرأي ليسوا مسلمين إنما هم مارقون فاسقون خلعوا ربة الإسلام من أعناقهم وعلى هذا يشرع في تكوين جماعة من شيعته مناديا « إنها هي الجماعة الإسلامية

وحدها ومن يشذ عنها يستحق عذاب جهنم فان كنت مسلما فسلم وادخل
والا فأنت لست بمسلم » .

هذا هو اختلاف الراى الذى يمقتة القرآن ويشجبه . وهناك امثلة
كثيرة من النوع الاول الصحى حدثت خلال حياة الرسول نفسه وهو لم
يسمح بوجودها فحسب بل مدحها واثنى عليها لانها كانت دليل صحة وبشائر
خير بيت ان عقلاء القوم كانوا مشغولين بالتفكير والبحث والتدبر مهتمين
بالاسلام وتعاليمه محاولين ان يحدوا حلولا لمشاكل الحياة من خلال الاسلام
لا من خارجه . كذلك كانت هذه الاختلافات محكا لمعدن الحكم الذهبى
آنذاك والذى كان عليه — الى جانب ضرورة بقاء الجميع ملتفين حول
مبادئ واحدة — ان يمنح مفكره حرية البحث والاجتهاد واعمال الراى
فى حدود مفروضة كى تبقى الابواب مفتوحة من أجل التقدم والتطور .

مقترحات حول الدراسة :

وفى ختام القول اورد بعض الاقتراحات بشأن دراسة القرآن :

لما كان القرآن يتناوله اناس يختلفون فى نوعياتهم واهدافهم واغراضهم
فليس فى وسعى ان اقدم ارشادا عاما حول اسلوب دراسته يفى باحتياجاتهم
جميعا على اختلافهم واختلافها ولهذا ارى ان اقصر قولى على من يريدون
فهمه حقيقة ويبحثون فيه عن هدى يحلون به مشاكل الانسانية فأتقدم اليهم
ببعض الاقتراحات التى قد تساعدهم على اجابة مطالبهم وتذلل ما يلقونه
من عقبات مانعات .

والشرط الاساسى لفهم القرآن ان يتناوله الدارس بعقل متفتح مستقل
غير متحيز اليه او عليه . وسواء كان المرء يؤمن به كتابا منزلا من الله ام
لا فعليه ان يحرر ذهنه بأقصى ما يمكنه ويبعد عنه التحيز ويتخلص من
كافة الآراء التى كونها واكتسبها مسبقا ثم يقرأه بالرغبة المجردة فى فهمه
اما الذين يدرسونه فى ضوء مفاهيمهم الشخصية المسبقة فلن يجدوا فيه
غير افكارهم فحسب ولهذا لا يستطيعون الوصول الى ما يبغى القرآن
توصيله وتبليغه . واذا كانت طريقتهم هذه لا تجدى نفعا فى دراسة
الكتب الاخرى فكيف تنفعهم فى دراسة القرآن وهو الكتاب الفريد كما
اسلفت ؟

ويتبغى التنويه الى ان المرء اذا كان يريد ان يلم بمحتويات القرآن
المأما سريعا فقد تكفيه قراءته مرة أما ان أراد أن يعرف القرآن معرفة عميقة
فلا بد له من قراءته مرارا ومن وجهات نظر متعددة . ومن ارادوا دراسته
بامعان فعليهم ان يقرأوه على الاقل مرتين بهدف مجرد فهم نظام الحياة
الذى يقدمه ككل متكامل وعليهم ان يستخرجوا اساسياته واسلوب الحياة
التي يرمى الى اقامتها على هذه الأسس .

وإذا عنت للمرء أسئلة أثناء هذه الدراسة التمهيدية فعليه أن يدونها ويواصل دراسته في صبر فقد يجد لأسئلته اجابات في موضع آخر من القرآن فان وجدها فعليه ان يدونها امام الاسئلة وان لم يجد رد سؤال من اسئلته في القراءة الاولى فعليه ان يقرأ المرة الثانية بصبر وتأن . وفي ضوء تجربتي الشخصية استطيع ان اقول ان القراءة الثانية نادرا ما يبقى معها سؤال لا جواب له .

تلك كانت ارشادات عامة لدراسة القرآن وعلى المرء ان يبدأ دراسة القرآن دراسة تفصيلية بأن يكتب مذكرات وملاحظات حول تصورات تعاليمه المختلفة فمثلا ينبغي عليه ان يدون نمط الحياة الذي ينادى به القرآن ويقره وكذلك النمط الذي يرفضه ويكتب جنباً الى جنب صفات الانسان الصالح نفيس المعدن ومواصفات الانسان الطالح غث الاصل كي يتضح كلا النمطين امام ذهنه في آن واحد . كذلك عليه ان يسجل اسباب نجاح الانسان ونجاته وفلاحه الى جانب مسببات فشله وبواره وترديه .

كما ينبغي عليه أن يدون — تحت عناوين مختلفة — كل تعاليم القرآن في شأن العقيدة والأخلاق والحقوق والواجبات والحضارة والثقافة والاقتصاد والسياسة والقانون والنظام الاجتماعي والسلام والحرب وسائر المشكلات الأخرى . هذه الملاحظات التي يدونها الدارس لأبد وأن تتحد أجزاءها فيما بينها وتندمج لتكون خطة كاملة لكل جانب من جوانب تعاليم القرآن ثم تتشابه وتنسجم مع بعضها لتكون نموذجاً كاملاً لنظام الحياة القرآني .

وإذا شاء الانسان ان يعرف حل القرآن لمشكلة من المشاكل فعليه أن يدرس المادة التي كتبت عنها قديماً وحديثاً ويحدد القضايا والنقاط الأساسية في المشكلة ويقف مما كتب من أبحاث حول المشكلة على نهاية ما وصل اليه التفكير البشري في هذه المشكلة والقضايا التي لم يصل الانسان الى حل فيها ثم بعد ذلك يتحول الى القرآن ليدرسه بقصد إيجاد ردود على هذه القضايا .

ومما جربته شخصياً أن الانسان اذا درس القرآن بقصد إيجاد حل لمشكلة من المشاكل على النحو الذي ذكرته فانه يلقي جواباً لها حتى في تلك الآيات التي يحذفها ويتخطاها دون أن يخطر بباله أبداً أن اجابة ما يبحث عنه كامنة بين ألفاظها ومعانيها .

ومهما توفر من وسائل لدراسة القرآن فالمرء لا يستطيع أن يسبر غوره ويصل الى لب روحه ما لم يبدأ في تطبيق رسالته تطبيقاً عملياً لأن القرآن ليس كتاباً يضم أفكاراً نظرية ونظريات مجردة يستطيع المرء أن يقرأه في سريره أو مسترخياً على أريكته ولا هو بكتاب يحوى الغازا وأحجاث لاهوتية يمكن حلها في الأديرة ومعاهد العلم وإنما هو كتاب مبعوث لدعوة الناس لأن يبدأوا حركة إيمانية ثورية وليتقود أتباعه ويوجه نشاطاتهم الى انجاز رسالته ، ومن ثم فعلى الانسان ان أراد أن يفهم معناه الحقيقي أن يغزل الى ميدان معركة الحياة . وهذا هو السبب الذي حتم

على شخص هادئ دمث يعيش في عزلة مثل محمد عليه الصلاة والسلام
أن يخرج من قواقع عزلته ويشعل الحركة الإسلامية ويقاوم ضد العالم
العاتى عن أمر ربه .

فالقرآن هو الذى حثه على أن يعلنها حربا ضروسا على كل أنواع
الزيف والبطلان ويصارع زعماء الكفر وأئمة دون مبالاة بالنتائج . والقرآن
هو الذى جذب الأرواح الطيبة الخيرة من كل دار ونجع وجمعهم تحت لواء
زعيمهم ليقاوموا قادة المجتمع القديم الذين أعدوا أنفسهم في عصابات
لمواجهتهم ومعارضتهم . واستمر القرآن في قيادة الحركة الإسلامية في كافة
مراحل النضال المرير بين الحق والباطل والحقيقة والضلال على مدى
ثلاثة وعشرين عاما حتى كتب لها النجاح في إقامة طريق الحياة الإسلامية
في كماله وتماحه .

هكذا يتضح أن الإنسان ليس في مقدوره أن يدرك بسهولة الحقائق
المتضمنة في القرآن بمجرد تلاوة ألفاظه . ولكي يفهم المرء هذا الكتاب لا بد
وأن يشارك بنصيب فعال في الصراع بين الإيمان والكفر بين الإسلام وغير
الإسلام بين الحق والباطل فالإنسان يستطيع أن يفهم القرآن فقط متى تبني
رسالته ودعا العالم لقبولها وتحرك في كل شيء وفق هدايته هنا سيعايش
المرء كل ما حدث أثناء نزوله ويفهمه وسوف يواجه نفس الظروف التي مر
بها المسلمون الأوائل في مكة والطائف والحبشة ويشق نفس النيران التي
كان لابد من دخولها في بدر وأحد وحنين وتبوك وغيرها ويقابل « أبأ جهلين »
كثيرين « وأبأ لهبين » عديدين ويرى المنافقين ويلقى المرائين واليهود وكل
نوع من البشر ذكره القرآن .

حقا انه اختبار للنوع البشري جد طريف جدير بأن يخوضه الإنسان
ويجربه . وأثناء مرور الإنسان بأى من أدوار هذه التجربة سيجد آيات
وسورا في القرآن تفصح بذاتها أنها أوحيت في المرحلة الفلانية وأنها جاءت
بالتعليمات كذا وكذا لهداية الحركة . وبهذا يكشف القرآن عن روحه حتى ولو
كان الإنسان عاجزا عن فهم كل ما تعنيه مفرداته أو غير قادر على أن يفك
معضلات بيانه وقواعده اللغوية .

والأمر نفسه ينطبق على تعاليم القرآن ومبادئه في الاخلاق والاقتصاد
والثقافة وعلى قوانينه التي تخص مختلف أنماط الحياة الإنسانية فهذه
الأمر كلها هيئات أن تفهم ما لم توضع في قالب عملي وبهذا ينضح أن
الأفراد والجماعات الذين ينزعون القرآن من وسط الحياة ويقذفون به
بعيدا لا يستطيعون فهم معانيه والتشبع بروحه عن طريق استخدامه
الشفوى المجرد .

وأختتم قولى بأنى لم أشأ أن أناقش في هذه المقدمة كافة المشكلات
التي قد تظهر أثناء دراسة القرآن ولذا تركت — عن قصد — الاسئلة
التي قد تعرض أثناء بعض الآيات والسور كي اتناولها في مواضعها على

حين تناولت المسائل التي تتعلق بدراسة القرآن ككل دراسة عامة فعلى القارئ اذن أن يؤجل حكمه النهائي على هذه الامور حتى يفرغ من قراءة « تفهيم القرآن » فان وجد بعد ذلك بعضا من الاسئلة بلا جواب او وجد جوابها غير مستوفى الجوانب فليخبرنى كى اضعها فى الاعتبار مستقبلا .

وما توفيقى الا بالله .

أبو الاعلى المودودى

* * *

(١) سُورَةُ الْفَاتِحَةِ
مَكِّيَّةٌ وَأَوَّلُهَا سَبْعُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ①

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ② الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ③

مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ④ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ

نَسْتَعِينُ ⑤ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ⑥

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ

عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ⑦

الفاتحة

تمهيد :

اسمها :

سميت الفاتحة بهذا الاسم على أساس غرضها ففاتحة الشيء أوله وفاتحة الكتاب تعنى بدايته وبألفاظ آخر الفاتحة ضرب من التصدير والاستهلال .

فترة نزولها :

الفاتحة من بين أول ما أنزل على الرسول عليه الصلاة والسلام وتخبرنا الأحاديث الصحيحة أنها أول سورة كاملة نزلت على النبي . وكانت قد نزلت عليه من قبل آيات شتات هن أجزاء من سورة العلق والمزمع والمدثر .

موضوع بحثها :

هذه السورة في حقيقة الأمر تضرع ودعاء الى الله يعلمه رب العالمين لمن أراد أن يتدبر كتابه . وقد وضعت في أول الكتاب لتقول للقارئ أنك ان كنت تبغى أن تفيد من القرآن فعليك أن تقدم هذا الدعاء بين يدي الله .

ان الانسان يطلب في دعائه — فطرة — ما يتمناه وتجيئ رغبتة في فؤاده وهو لا يفعل هذا الا اذا شعر بأن مطلبه ورغبتة في قبضة ذلك الوجود الذي يدعوه فتعليم الانسان هذا الدعاء في مستهل القرآن كأنه ارشاد وتوجيه له أن يطالع هذا الكتاب بغية البحث عن الصراط المستقيم ويدرسه بعقلية الباحث عن الحقيقة وأن يعلم أن اله العالمين وحده هو مصدر كل علم ونبع كل معرفة . ولذا فهو يبدأ قراءته للقرآن بدعاء الى الله أن يهديه سواء السبيل .

واذا نظرنا الى موضوع الفاتحة وفكرتها بان لنا أنها ليست من القرآن بمنزلة المقدمة من الكتاب وانما هما دعاء الى الله واستجابة منه ، فالفاتحة ضراعة من العبد والقرآن استجابة من المولى لضراعة العبد ورد عليه . العبد يتوسل الى الله أن يهديه والرب يضع أمام عبده القرآن كله استجابة لدعائه وكأنه تعالى يقول له : « هذه هي الهداية التي سألتني » .

بسم الله الرحمن الرحيم

تعلم الثقافة الإسلامية الإنسان أن يستفتح كل شيء باسم الله ، ولو تم هذا بوعى وإدراك وإخلاص فسوف يفضى الى ثلاث نتائج طيبة :
الاولى انه سيحفظه من كل شر لأن مجرد ذكر اسم الله سوف يدفعه الى ان يفكر وقت شروعه في عمل السوء فيما اذا كان محققا في اقران اسمه تعالى بهذا العمل أم لا .
الثانية أن بدء الأعمال الصحيحة باسم الله سوف يخلق في ذهن الإنسان الموقف العقلى الصحيح ويوجهه الى الوجهة القويمة منذ البداية .
الثالثة أنه سيلقى عون الله وبركته ويبقى في صون من نزغات الشيطان ومغرياته لأن الله سبحانه يتوجه الى الإنسان أن يحمي الإنسان وجهه شطره .

الحمد لله

قلنا في مقدمة الفاتحة أنها ضراعة . ولهذا فهي تستهل بحمد الله — وهو من اليه تتوجه الضراعة — كي تعلمنا الأسلوب الأمثل للتوسل والدعاء . فعلياً ألا نقدم طلبنا مبتوراً في فضاة وجفاف وغلظة دون مقدمة مناسبة وانما أفضل طريقة للدعاء أن نعترف بمنن وفضائل المخاطب ذي المقام العلى . وهذا هو سبب استفتاح دعائنا بحمد الله لأنه تعالى قمة الكمال في الفضل والفضائل وهو الممن علينا والمحسن إلينا فنحن نحمد الله وننتى عليه لنؤكد اعترافنا بنعمه علينا وفضله واقرارنا له بالجميل على ما وهبنا من عطاياه وأنعمه التي لا يحصيها عد ولا يبلغها مد .

وتجدر الإشارة الى أن الحمد لله وحده دون سواه وهو قصر وقيّد هام لأنه يجتث عبادة أى من مخلوقاته تعالى . فلا أحد جدير بالحمد والعبادة مما خلقت قدرته من الانس والملائكة والجن والانبيا والنجوم والكواكب ، ولا حمد ولا عبادة لآلهة مزعومة أو أصنام وأوثان ، كما أن أحداً من خلقه لا يرث عن أسلافه حميد الصفات . ولو وجدت في أمرى شميلة طيبة فهي من الله ، وعلى هذا فخالق هذه الصفات والشـمائل وحده هو الجدير بالتقوى والعبادة والعرفان بالجميل وليس أحد من خلقه .

رب العالمين

كلمة « رب » في اللغة العربية تطلق على السيد والمالك والرئيس والكفيل والمربي والحارس والرقيب والحاكم والعاهل والمدير والمنشئ والمؤسس والله هو وحده رب العالمين بكل هذه المعانى جملة وتفصيلا .

الرحمن الرحيم

من خواص الإنسان أنه اذا عظم في نظره شيء بينه في صيغ المبالغة ثم اذا به يشعر أنه لم يوفه حقه وقدره فيورد لفظ مبالغة آخر ليكمل النقص الذى يراه فيما أورده من مبالغة . وعلى هذا فرغم أن الكلمة العربية

« رحمان » صيغة مبالغة وأنها تعبر عن صفات الإحسان والرحمة وتظهرها في أرقى وأعلى مراتبها إلا أنها تعجز عن التعبير عن كمال صفات الله غير المحدود ولذا أضيفت كلمة أخرى من نفس الأصل « رحيم » لسد هذا النقص .

مالك يوم الدين

بعد القول بأن الله رحمن رحيم أضيف إليها على الفور أنه مالك يوم الدين كي لا يغتر أحد من الناس في رحمته وشفقته وينسى أنه تعالى سوف آياتي ببنى آدم زمراً من أولهم إلى آخرهم ويحاسب كلا منهم على ما اقترفت يده . فعلى المسلم اذن أن يضع في ذهنه أن الله ليس رحيماً فحسب لكنه عادل أيضاً وذو سلطان مطلق في أن يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء لأن قوته اللا محدودة تعلو كل شيء ومن هنا ينبغي أن نؤمن تمام الإيمان بأنه تعالى قادر باطلاق على أن يجعل نهايتنا سعيدة أو تعيسة وأن يحسن ختامنا أو يسيئه .

اياك نعبد

العبادة في اللغة العربية تطلق على معان ثلاثة :

١ - العبادة .

٢ - الطاعة والتسليم .

٣ - الخضوع والعبودية .

وهي مستخدمة هنا في معانيها الثلاثة مجتمعة بمعنى أننا يارب عابدون وورعاياك وعبيدك وأننا نعبدك ونطيعك ونخضع لك وحدك دون سواك ولا نخص أحدا الاك بعبادتنا في معانيها الثلاثة .

واياك نستعين

يعنى أننا ننشد عونك ونطلب مساعدتك لأننا نعرف أنك رب العالم كله وفي يديك مفاتيح كل شيء وقوى كل أمر وأنت سيد كل شيء ولهذا نتوجه اليك ونسألك أن تساعدنا على قضاء حاجتنا وتنفيذ مطالباتنا .

اهدنا الصراط المستقيم

يعنى أرنا الطريق الذي بسوقنا الى الصواب والحق في كل خطوة نخطوها في حياتنا واحفظنا من الزلل وسوء العاقبة وخذ بيدنا وأت بنا سعداء موفقين يوم يقوم الحساب .

هذا هو ما يطلبه العبد من الله عند بداية تدبره للقرآن فيسأله أن يهديه في كل خطوة في حياته وأن يحفظه من الانزلاق في متاهات الظنون واللايقين الذي يصدر عن نقص المعرفة الحقيقية وقلتها ، ويطلب الى الله أن يريه الطريق المستقيم من بين الطرق الفرعية المتعرجة العديدة في الحياة الدنيا .

صراط الذين أنعمت عليهم

يعنى أن الصراط المستقيم الذى نضرع اليك لترشدنا اليه وترينا إياه هو الطريق الذى دلف فيه من أنعمت عليهم وساروا وهو الطريق الذى يأتي علينا ببركاتك ويجلب إلينا أنعمك .

غير المفضوب عليهم ولا الضالين

هذه العبارة تبين أن من أسبغت عليهم أنعمك ومنك ليسوا أولئك الذين ينحرفون عن صراطك المستقيم ويجلبون على أنفسهم نيران غضبك ولعنتك رغم أنهم قد يكونون في نعيم دنيوى واسع عرضى ، وأنما الذين أنعمت عليهم حقاً هم أولئك الذين يلقون عطايك وفضولك لأنهم يحيون معيشة سليمة لا اعوجاج فيها ولا انحراف .

كذلك يتضح من هذا أن المقصود بالنعيم هى المكافآت الحقيقية والدائمة التى تحصل بالعيش في مسلك صحيح وباستجلاب رضا الله واستبعاد غضبه وسخطه وليست المتع البراقة الموقوتة في الحياة الدنيا التى كان يتمتع بها الطفافة وعبداء الثراء وخدام المال ولا يزال يستمتع بها اليوم كل مرتكبى الشرور ومقترفى المآثم والذنوب الذين تنكبوا الصراط السوى على اختلاف أنواعهم وفئاتهم وأجناسهم .



تفسير
سُورَةُ الْبَقَرَةِ

مقدمة

اسمها :

سميت بالبقرة على أساس قصة البقرة التي وردت فيها (آيات ٦٧ — ٧٣) إلا أن هذا الاسم لم يطلق كعنوان على موضوع السورة . ولهذا فمن الخطأ أن نترجم اسم « البقرة » الى اللغات الأخرى والعكس بالعكس . ونحن حين نترجم « البقرة » الى لغات أخرى فإن ذلك يحوى ضمنا أن هذه السورة تعالج « البقرة » في ذاتها كموضوع بحث . وقد سمي كثير من سور القرآن بما يشابه هذا لأن اللغة العربية رغم ثرائها ليس فيها من الكلمات ما يتسع للتعبير عن مدى الموضوع الواسع العريض الذى يناقش في هذه السور . والواقع أن كل لغات الانسانية تعاني نفس الضيق في دلالة كلماتها .

السياق :

على الرغم من أن هذه السورة نزلت في المدينة الا أنها تلى سورة مكية هي سورة الفاتحة التي انتهت بالدعاء الى الله أن « اهدنا الصراط المستقيم » ولذا تبدأ سورة البقرة باستجابة هذا الدعاء معلنة « ذلك الكتاب هدى » .

والجزء الأكبر من سورة البقرة نزل خلال العامين الأولين من حياة الرسول عليه الصلاة والسلام في يثرب أما الجزء الأصغر والذى نزل في فترة أخرى فقد وضع في هذه السورة لأن ما يحويه يتصل تماما بما قد عولج فيها . وعلى سبيل المثال : الآيات التي تحرم الربا نزلت في الفترة المتأخرة من حياة الرسول لكنها أدرجت في سياق هذه السورة . ولنفس السبب أيضا ضمت هذه السورة الآيات الأخيرة (٢٨٤ — ٢٨٦) رغم نزولها على النبي في مكة قبل الهجرة .

الخلفية التاريخية :

لكي نفهم معانى هذه السورة علينا أن نقف — أولا — على خلفيتها التاريخية :

١ - كان القرآن الكريم في مكة يخاطب مشركي قريش بشكل عام ، وهم من كانوا يجهلون الاسلام تماما ، أما في المدينة فقد اهتم القرآن - الى جانب هذا - باليهود الذين لم يكونوا غرباء عن عقيدة التوحيد والنبوة والوحى والآخرة والملائكة وكانوا يتظاهرون بالايمان بالقانون الذى أنزله الله على نبيهم موسى عليه السلام وكان طريقهم - من حيث المبدأ - نفس طريق محمد عليه الصلاة والسلام لكنهم حادوا عنه على كر قرون الانحطاط وابتدعوا لهم عقائد ومذاهب وعادات غير اسلامية لا سند لها ولا تصديق في التوراة على الاطلاق وليس هذا فحسب بل انهم عبثوا بالتوراة فأدخلوا تفسيراتهم وتآويلهم الخاصة على نصها الاصلى وامتدت أيديهم الى كلام الله بالتحريف والوضع وطرحوا عنه روح الدين الحقيقى وتشبثوا - الى اليوم - بهيكل شكلى من الطقوس الفارغة التى لا حياة فيها فتبع ذلك أن انحطت معتقداتهم وأخلاقهم وسلوكهم وغاصوا في أعماق الأسفان والهبوط .

ومما يؤسف له أنهم لم يكتفوا بمجرد رضاهم بوضعهم هذا بل عشقوا التمسك به والثبات عليه . أضف الى هذا أن روحهم وعقولهم خلت من أى استعداد أو نية لادنى نوع من الإصلاح ، فأضحوا لذلك ألد أعداء من جاءوا يعلمونهم الطريق الصحيح . فهاك أن منهم الا أن كدحوا في سبيل احباط كل محاولة أو جهد من هذا النوع .

ورغم أنهم - في الاصل - مسلمين الا أنهم انحرفوا عن الاسلام الحقيقى وأحدثوا فيه تغييرات وابتدعوا ما راق لهم ووقعوا فرائس الجدل في أمور تافهة صغيرة ، وغرقوا في لجج الطائفية والعنصرية ، ونسوا الله ونبذوه ، وراحوا يعبدون المال والثراء . وبلغ الامر منهم مبلغا فخلعوا عن ذواتهم اسمهم الاصلى « المسلمين » وتسموا « باليهود » وجعلوا الدين حكرا لبنى اسرائيل من دون البشر .

هكذا كان حالهم الدينى حين شرف الرسول يثرب بقدومه اليها ودعا اليهود الى العقيدة الصحيحة والى هذا يرجع السبب في أن أكثر من ثلث هذه السورة موجه الى بنى اسرائيل ، حيث سددت آياته النقد الى تاريخهم وانحطاطهم الخلقى وضلالهم وانحرافهم الدينى كما عرضت الاخلاقيات الرفيعة العالية ومبادئ الدين النقى العميقة الجوهرية كي توضح في جلاء كيف يسقط قوم نبي من أنبياء الله حين ينحرفون عن نهجه ولكي تفرق - بخطوط بيضاء واضحة - بين التقوى الصادقة الحقيقية وبين التمسك بالشكليات والرسوم وكذلك بين أسس الدين الحقيقية وبين ما ليس كذلك .

٢- كان الاسلام في مكة يولى اهتمامه وعنايته لنشر مبادئه الاساسية وتدريب اتباعه وتشكيلهم خلقيا اما بعد هجرة المصطفى عليه الصلاة والسلام الى المدينة - حيث نزح المسلمون من كل بقاع الجزيرة ليتخذوا لهم مقرا وحيث انشئت بمعاضدة الانصار دويلة اسلامية صغيرة - كان ولا بد - بالطبع - من التفات القرآن الى المشاكل الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية والقانونية الى جوار ما سبق وهذا يفسر الفرق بين موضوعات السور المكية وموضوعات السور المدنية وعلى هذا فان ما يقارب نصف هذه السورة يعالج المبادئ والقواعد الاساسية الضرورية لتكامل وتضامن ودمج جماعة بشرية كما يتناول ايضا الاسس اللازمة لحل مشاكلها .

٣- دخل الصراع بين الاسلام والا اسلام بعد الهجرة الى المدينة دورا جديدا ، وقد كان على المؤمنين - الذين كانوا يدعون للاسلام بين قبائلهم في الدور المكي - ان يجابها من عارضوه مخاطرين بأرواحهم فزادى لكن الحال قد تبدل في المدينة حيث اتى المسلمون من كل حي في الجزيرة ليتخذوا لهم فيها مستقرا دائما واسسوا دولة مستقلة داخل حدود المدينة عاشوا فيها كأعضاء في جماعة واحدة . وهنا تحول النضال الى نضال من اجل الحفاظ على بقاء الجماعة ذاتها ككل لان كافة قبائل الجزيرة غير المسلمة وحدت امرها للقضاء على هذه الجماعة دفعة واحدة . ومن ثم نزلت في هذه السورة ارشادات وتعاليم لا يعتمد عليها نجاح الجماعة فحسب بل بقاؤها ودوامها ... هذه التعاليم هي : -

(١) ان على الجماعة ان تعمل بأقصى طاقة وحماس لنشر افكارها واستقطاب اكبر عدد ممكن الى صفوفها .

(ب) كما عليها ان تكشف معارضيها وتفضحهم بحيث تجعل كل من به مسكة من عقل على يقين من انهم على خطأ جسيم فاحش .

(ج) على الجماعة ان تغرس في اعضائها (وكانت غالبيتهم فقراء بلا زاد او متاع او مسكن تكتنفهم الاخطار والمهالك من كل ناحية) الشجاعة والجلد والصبر والعزم الذي لا غنى عنه ابدا في معركة وجودهم وبقائهم في مثل تلك الظروف التي كانوا يناضلون فيها . وان تعددهم وتهيئهم لمواجهة هذه الظروف في اقدام وجراة .

(د) عليها ان تجعلهم مستعدين في اية لحظة لمواجهة اي خطر مسلح قد يأتي من هنا او هناك ليسحق فكرهم وصدده بكل قواهم دون اعتبار لقوة اعدائهم العددية الضخمة ومواردهم المادية الهائلة .

(هـ) على الجماعة ان تخلق في لبناتها الطاقة والشجاعة اللازمة لاستئصال طرق الباطل واقامة الطريق الاسلامي في مكانها .

من أجل هذا أنزل الله في هذه السورة مثل هذه التعليمات كي تسهم في تحقيق تلك الأهداف آنفة الذكر .

٤ - في هذه الفترة بدأ صنف جديد من المسلمين يرفع رأسه هم المنافقون . ورغم أن بعضا من علامات النفاق قد لوحظ خلال الأيام الاواخر في مكة إلا أن المنافقين لبسوا ثوبا مغائرا في المدينة . ففي مكة كان هناك بعض المسلمين الذين اعترفوا بالاسلام لكنهم ما كانوا مستعدين لتحمل تبعات اعترافهم هذا والتضحية بمصالحهم وعلائقهم الدنيوية وتحمل المصائب والرزايا التي كان لابد من وقوعها بعد الاعتراف بهذه العقيدة . أما في المدينة فقد ظهرت انواع من المنافقين عديدة فكان ثمة من دخلوا في الاسلام كي ينالوا منه من داخله وآخرون حاصروهم المسلمون من كل جانب فأسلموا ليحافظوا على مصالحهم الدنيوية على حين أمسكوا بالعصاة من نصفها على حد تعبير المثل حتى اذا غلب المسلمون بقيت مصالحهم في امان . كذلك كان لا يزال هناك من لم يؤمنوا بالحق ايمانا تاما ولكنهم دخلوا الاسلام في زمرة قبائلهم ، كما كان هنالك من اقتنعوا بحقيقة الاسلام عقليا ولكن لم تكن لديهم الشجاعة الاخلاقية الكافية لان يتركوا سابق تقاليدهم وخرافاتهم ومطامحهم الشخصية ويرتفعوا الى مستوى الاخلاق الاسلامية ويضحوا في سبيلها بالنفس والنفيس .

وحين نزلت سورة البقرة كانت كل تلك الانماط قد شرعت في الظهور على مسرح الاحداث لذا اشار تعالى بايجاز في هذه السورة الى ملامح شخصياتهم ثم لما اكتمل ظهورهم وبرزت سماتهم الشخصية السيئة واعمالهم المؤذية الاليمة ارسل الله الى الجماعة ارشادات مفصلة بشأنهم .



موجز السورة

بحثها الرئيسي : الهداية .

هذه السورة دعوة لقبول الهداية الالهية . وكل القصص والحوادث التي وردت بها تدور حول هذه الفكرة المركزية . وفيها ذكر اليهود على وجه الخصوص بحوادث تاريخية متعددة مستوحاة من سيرتهم الخاصة كي يذكرهم الله وينصحهم بأن صلاحهم وخيرهم يكمن في قبول هذه الهداية المنزلة على النبي صلى الله عليه وسلم ، ولذا فعليهم أن يكونوا أول من يؤمن بها لأنها — في اصلها واساسها — هي نفس الهداية التي انزلت على نبيهم موسى عليه السلام .

موضوعاتها :

من آية ١ الى آية ٢٠

هذه الآيات التمهيدية تعلن ان القرآن هو كتاب الهداية ، وتوضح بنود الايمان ومبادئه الاساسية وهي الايمان بالله والنبوة واليوم الآخر ، وتصنف البشرية — على اساس قبول او رفض ما اعلنته — الى ثلاث جماعات رئيسية : المؤمنين — الكافرين — المنافقين .

من ٢١ الى ٢٩

يدعو الله البشرية في هذه الآيات لقبول هدايته طوعا لا قسرا ، والخضوع له وحده فهو رب العالم والهة وخالقه كما يدعوها للايمان بالقرآن هداية منه وبالبعث والحياة بعد الموت .

من ٣٠ الى ٣٩

قصة تعيين آدم خليفة لله في ارضه وقصة حياته في الجنة وقصة سقوطه ضحية مغريات الشيطان ثم توبته وقبولها . كل هذا يرويهِ الله ليري البشرية (نسل آدم) ان اصح واقوم شيء لهم ان يؤمنوا بهدايته ويتبعوها . وكل ما ورد عن آدم يبين لنا ايضا ان هداية الاسلام هي نفسها التي اعطاها الله لآدم وانها دين البشرية الاصلى .

من ٤٠ الى ١٢٠

في هذه الآيات امتدت الدعوة لقبول الهداية الى بني اسرائيل خاصة

وانتقدت هذه الآيات موقفهم ماضيه وحاضره لتوضح ان انحرافهم عن الهداية كان سبب انحطاطهم وتنزلهم .

من ١٢١ الى ١٤١

امر اليهود في هذا الجزء باتباع من جاء بنفس الهداية التي نزلت على نبيهم موسى عليه السلام وهو محمد صلى الله عليه وسلم سليل ابراهيم الخليل الذي يبجلونه باعتبارهم خلفاءه ويتظاهرون باتباعه كنبى من عند الله . وقد ذكرت في هذا الجزء ايضا قصة بناء الكعبة لانها ستصبح فيما بعد قبلة الامة الاسلامية .

من ١٤٢ الى ١٥٢

هنا اعلان تغيير قبلة المسلمين من بيت المقدس الى الكعبة الشريفة كرمز يدل على انتقال الزعامة من بنى اسرائيل الى الامة المسلمة التي امرت مسبقا بالوقوف في وجه تلك الانتهاكات التي استهدفت الهداية الالهية والتي ادت الى عزل اليهود عن زعامة الدنيا وامامتها .

من ١٥٣ الى ٢٥١

في هذا الجزء فرضت الاجراءات العملية لتمكين المسلمين من النهوض بمسؤوليات الزعامة التي اسندت اليهم لينشروا هداية الله . وفرضت الصلاة والصيام والزكاة والحج لتدريب الامة تدريبا أخلاقيا . وصدرت الأوامر الى المسلمين أن يطيعوا السلطة القائمة عليهم وأن يكونوا عادلين مقسطين وأن يوفوا بالعهد ويرقبوا المعاهدات والمواثيق ويحترموها وينفقوا أموالهم في سبيل الله . وشرعت القوانين ووضعت القواعد واللوائح لتنشئتهم وتكوينهم وتماسكهم وتنظيم سلوك حياتهم يوما بيوم وحل مشاكل حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدولية . ومن جهة أخرى حرمت الخمر والميسر والربا وما اليه لحفظ الامة وصيانتها من الانحلال والتفسخ .

من ٢٥٢ الى ٢٦٠

تعد هذه الآيات تمهيدا لتحريم الربا وفيها تم التأكيد على عدة تصورات حول الله والوحي والبعث وذلك لحفظ معنى الدينونة والحساب حيا في القلوب والمشاعر . ولقد رويت قصة سيدنا ابراهيم عليه السلام وقصة الرجل الذي اماته الله مائة عام ثم بعثه لتبين ان الله قوى بلا نهاية قادر بلا غاية على ان يحيى الموتى ويأتى بهم لتوفى كل نفس حسابها ومن ثم فعلى المؤمنين ان يدركوا هذه الحقيقة ويضعوها نصب اعينهم واذهاتهم ويحجموا عن اكل الربا والتعامل به .

من ٢٦١ الى ٢٨٣

هنا استؤنف الموضوع الذى تناولته الآيات من ١٥٣ الى ٢٥١ وأمر

المؤمنون ان ينفقوا في سبيل الله ابتغاء مرضاته وحده ويفرضوه قرضاً
حسناً . وعلى النقيض من هذا حذروا آثام وشرور التعامل بالربا .

من ٢٨٤ الى ٢٨٦

هنا في نهاية السورة لخصت مواد الايمان وبنوده الاساسية ، تماماً
كما ذكرت في مستهلها ثم تنتهي السورة بالادعية والضراعات التي كانت
الجماعة الاسلامية في امس الحاجة اليها حين كانت تجابه في سبيل تبليغ
الهداية ونشرها ما لا يحتمله البشر من مصاعب وعائقات ومقاعب
وشائكات .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم

هذه الحروف الهجائية التي نقرأها في صدور بعض سور القرآن الكريم كانت شائعة الاستعمال في الأدب العربي في الحقبة التي نزل فيها القرآن وقد استخدمها الشعراء والكتاب على السواء وهناك نماذج لاستعمالها باقية من ادب العصر الجاهلي شعره ونثره .

ولان معناها كان مفهوما لدى كل من كانت تخاطبهم آنذاك لم يعترض عليها أحد قط أو حتى يستفهم عنها وعن استعمالها اذ ما كانت عندهم الغازا وطلاسم يلزم حلها وتفسيرها . وحتى ألد اعداء القرآن الذين كانوا يتصيدون كل صغيرة وكبيرة لاثارة الشبهات وخلق المزامم والافتراءات لم يتخذ احدهم هذه الحروف اساس مطاعن فيه او مأخذ عليه .

غير ان الناس حين تركوا استعمالها وهجروها على كر الزمان غدا عسيرا على شارحيها ان يحددوا معناها الحقيقي . ومع هذا فأى قارئ عاды لا يعرف معناها ، لا يعجز عن الوقوف على طريق الهداية المستقيم اذ ان التماس الهداية من القرآن لا يعتمد اعتمادا جوهريا على فهمها وتعقل معناها . لهذا فليس من الضروري للقارئ العاды ان يشغل نفسه بالبحث فيها وفي تحقيقها .

ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ

معناها البسيط المباشر : « لا شك ان هذا كتاب الله » . لكنها قد تعنى ايضا : « هذا هو الكتاب الذى لا شك فيه » . فهو لا يشابه الكتب العاادية المصنفة عن ما وراء الطبيعة او الديانة والتي تركز على مجرد الحدس والتخمين ولا تخلو حتى اذهان مؤلفيها أنفسهم من الشك فيما أوردوه فيها من نظريات رغم اصرارهم وتأكيدهم على ثقتهم القامة في

صدقها وصحتها ، وانما هو كتاب يعتمد على الحقيقة لأن مصنفه (الله) لا نهائى فى معرفته للحقيقة وعلمه بها ولهذا ليس هناك مجال للشك فى محتوياته ومادته فعلا .

هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢٠١﴾

الشرط الأساسى للاستفادة من القرآن أن يكون المرء « متقيا » يعنى أن يخشى الله ويميز بين الخير والشر وتكون لديه النية الصادقة فى أن يحيا حياة صحيحة قويمه .

ورغم أنه ليس ثمة شك فى وجود شيء آخر سوى الهداية فى هذا الكتاب الا أن آياته توضح أن على الانسان أن يتناوله بفكر سليم ومعقولة صحيحة كى يفيد منه . واول ما ينبغى عليه فى هذا أن يكون تقيا يحب الحقيقة ويميز بين الحق والباطل ويسلك سبل الخير والفضيلة . وعلى عكس ذلك ليس فى القرآن هدى لمن لا يهتم الصواب والخطأ وما ينبغى وما لا ينبغى أن يكون ويتبع شهواته ويعيش عيش الانعام ويمضى فى رحلة الحياة دون هدف او غاية .

الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ

هذا هو الشرط الثانى لنيل الهدى من القرآن . اعنى الايمان بالغيب . والغيب هو تلك الأشياء التى لا تدرك بالحواس ولا تدخل فى نطاق تجربة الانسان ومشاهدته . وبالطبع الله والملائكة والوحى والحياة بعد الموت والجنة والنار ونحوها كل هذه أشياء من المحال أن ترى أو تذاق أو تشم أو تقاس أو توزن وانما يؤمن بها المرء عن طريق الخبراء (الرسل) مثلما يفعل فى أمور وحالات كثيرة فى العالم الطبيعى . فمن يؤمن بالغيب يستطيع الاستفادة من هدى القرآن دون غيره ومن لا يؤمن الا بما يدركه بالحس والتجربة فلا يمكن أن يلقى فى هذا الكتاب هدى ورشدا .

وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ

الشرط الثالث أن يكون بالمرء رغبة واستعداد لتنفيذ تعاليم القرآن تنفيذا عمليا . ولأن الصلاة هى اول دليل عملى دائم من دلائل الطاعة لذا فهى الدليل العملى ايضا على صدق الايمان ومحك اختبار معدنه وقوته فإذا ما أقر المرء باسلامه ثم سمع المؤذن يؤذن للصلاة بعد ذلك ولو

ببرهة وجيزة عليه ان يسعى ويلبى النداء وينضم الى جماعة المسلمين لتأديتها لان ذلك ينبىء بصدقه او كذبه فى اقراره . اما ترك الصلاة فهو فى الحقيقة ترك للطاعة وهجران للخضوع والتسليم .

وعلىنا ان نلتفت هنا الى ان « اقامة الصلاة » هى اصطلاح عام جامع . فليس المقصود به اداء الركعات لا غير وانما يعنى اقامة نظام الصلاة على المستوى الجماعى دائما . فلو أدى أهل بلد الصلاة فرادى فى حين خلت قريتهم من وجود نظام لتأديتها جماعة فلا يمكن ان يقال ان الصلاة قائمة فيها .

وَمَا رَزَقْنَهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣٠﴾

رابع شروط الاستفادة من القرآن ضرورة رضا المرء بتوزيع ماله وانفاقه له حسب تعاليم الكتاب فيؤدى حقوق الله والانسان على السواء . وهذا شرط اساسى لان البخيل الشحيح او عابد الدرهم والدينار الذى يؤثر المال على كل شىء لا تنتظر منه التضحية بماله من اجل الاسلام وفى سبيل قضيته

وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ

الشرط الخامس هو الايمان بالتنزيل اما الذين لا يؤمنون بأن الهدى من الله فلا يستطيعون جنى اية فائدة من القرآن .

ان من اراد الحصول على هدى القرآن عليه ان يؤمن لا بالقرآن وحده بل بسائر الكتب التى نزلت على رسل الله على اختلاف عصورهم ومواطنهم كذلك لا يهتدى بالقرآن من يدعى الايمان بضرورة استمداد الهداية من الله لكنه لا يلتزمها فى التنزيلات وفى اسوة الرسل الكرام ويسمى زعمه هذا « نظرية الهية » . اصف الى هذا ان الهداية لا تقبل على من يؤمنون بما آمن به آباؤهم واجدادهم ويرفضون ما دونه من الكتب السماوية الاخرى .

ان هذا القرآن لا يهدى الا من يؤمن بأن هداية الله أمر ضرورى اساسى للحياة الصحيحة وانها ليست هداية منزلة من الله على الآدميين كل على حدة بل منزلة منه على رسله خاصة دون غيرهم وانها الهداية التى تؤخذ من الكتب التى انزلها هو عليهم .

وعلى هذا فمن ابتغى هدى الله فعليه الا يكون عبدا للاهواء والعنصرية والقومية وانما يلزم عليه أن يكون مستعدا لقبول الحقيقة راغبا فيها خاضعا لها ومذعنا ايا كانت وفى اى شكل يجدها عليه .

وَبِالْآخِرَةِ مَذْهُبُتُونَ ﴿١١﴾

أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٢﴾

سادس الشروط الايمان بالآخرة والحياة بعد الممات بكل مشتملاته
وضمنياته وهى كما يذكرها القرآن :

- ١ — الانسان مسئول ومحاسب امام الله عن كل اعماله وافعاله .
 - ٢ — هذه الحياة الدنيا ليست خالدة ابدية وستنتهى ذات يوم .
 - ٣ — الله وحده من يعلم وقت القيامة واين يبعث البشر اجمعون ليوم
الوقت المعلوم حيث توفى كل نفس ما كسبت خيرا او شرا .
 - ٤ — من يقضى الله بصلاحه فالى جنات عدن يسير ومن يحكم بظلاله
ففى جهنم مدحور مخدول .
 - ٥ — من اجل هذا فالفلاح او الخسران لا يقاس بسعة العيش او
الديقوع والشظف فى الحياة الدنيا . وانما سيقدره الله بعد له يوم الفصل
فمن ثبتت براءته امام المحكمة الالهية فهو على فلاح ورغد عن شمال
ويمين ومن ثبت جرمه ففى خسران ابدى مبين حتى ولو كان اولهما يعيش
فى دنياه طاويا خاويا بائسا تعسا وثانيهما يرفل فى ديباج وحرير ونعيم
مقيم .
- أما من لايؤمن بالآخرة وما تستلزمه وتقضيه فليس فى مقدوره أن يحصل
من القرآن على افادة او يستبين منه جادة . لان من به مجرد ريب قليل —
وليس من يرفضه كلية — لا يقدر على سلوك الطريق الذى يأمر القرآن
البشر بالسير فيه .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا

يعنى اولئك الذين يرفضون تنفيذ هذه الشروط الستة او ينكرونها جملة
او يرفضون احدها .

سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ
وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾

هذا لا يعنى ان رفضهم للحق سببه صدور قرارات تعسفية ضدهم من الله — تعالى عن ذلك علوا كبيرا — دون ذنب اقترفوه فأعرضوا عن الحق لأن الله ختم على قلوبهم ولم يسمعوا للحق لأن الله أصم آذانهم ولم يروا الحق لأن الله طمس على أعينهم . وإنما الحقيقة ان طمس الله على قلوبهم وسمعهم وابصارهم كان حصاد رفضهم واعراضهم عن الحق في اصرار وعناد وليس سببه وعلته .

ان القرآن يضع قانونا طبيعيا يقضى بأن لو اتخذ المرء فكرة غير موضوعية حول شيء ما وكون على اساسها مفاهيم حوله عماها الهوى عمدا واصرارا . فهيئات ان يرى فيه فضيلة او محمدا او يستمتع الى ثناء عليه او يفتح صدره لدراسته بغير تحيز وهوى . هذا قانون طبيعى وبما ان الله هو شارعه فان الختم على القلوب والآذان وطمس الأبصار ينسب اليه تعالى ويعزى .

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾
يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَالدِّينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَدِّعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾

يخدعون انفسهم بتوهمهم ان نفاقهم يحفظ مصالحهم ويحميها . ولقد اثبت القرآن في وضوح ان مسلكهم هذا ضار في الدنيا خاسر في الآخرة بقينا . فقد يحالف المنافق حظ من النجاح في خداع بعض الناس حينما لكنه لا يستطيع ان يطفى خداعه على كافة البشر دوما . وحين يفتضح امره يفقد كل شرفه وحياته دفعة واحدة الى الابد . هذا في الدنيا اما الآخرة فلا ينفع لها مجرد نطق الشفاعة بل الوزن ثمة للأعمال .

فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٠﴾ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧١﴾

يزيد الله مرض النفاق المستشرى في قلوبهم لسوء طريقهم ومسلكهم فتراهم اذا بدا نفاقهم ناجحا الى حين يؤمنون به ويقتنعون بقوته وتأثيره فيما رسونه دائما وباصرار اكثر من ذي قبل .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾
 أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا
 كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ

يعنى اذا كنتم قبلتم الاسلام واقدرتم به فادخلوا فيه باخلاص ووفاء
 كما فعل الآخرون فصدقوا ما عاهدوا الله عليه وسلموا بمقتضياته ونتائجها

قَالُوا أَنْتُمْ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

لقد اعتبروا من قبلوا الاسلام حقيقة وعرضوا انفسهم للمخاطر
 والمتاعب سفهاء حمقى . لانهم استعدوا على انفسهم كل بلدهم واهلها
 فقط من أجل خاطر الحق والصدق . أما الحكمة والاتزان — عندهم — فهى
 ألا يشغلوا بالهم بالحق والباطل والصواب والخطأ وحسبهم الاهتمام
 بمصالحهم ومنافعهم الذاتية الدنيوية .

وَإِذَا لقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ
 إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾

شياطين جمع شيطان وهو يعنى فى اللغة العربية الشخص العاصى
 المتمرد المتفطرس الشرير وكذلك واحد الجن الاشرار . والنفظ يطلق على
 الجن والانس على السواء . ورغم أنه استخدم فى القرآن بوجه عام للدلالة
 على شياطين الجن الا ان معناه ينطبق فى بعض مواضعه على شياطين
 الانس . ويمكننا ان نحدد بسهولة معناه المقصود من خلال السياق . والمراد
 منه فى هذه الآية رؤساء العرب الذين كانوا اول من عارض الاسلام وقاومه
 وناصبه العداء .

اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ

أَشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَّتْ بِجُرَّتِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾
 مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ
 وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾

هذا المثل يعنى انه حين نشر محمد عليه الصلاة والسلام نور الحقيقة الذى يفرق بين الحق والباطل والفضيلة والرذيلة بدأ من اعملوا عقولهم واذهانهم يفرقون بين هذه الاشياء ويميزونها اما المنافقون الذين اعتمد المصالح الشخصية فلم يستطيعوا ابصار السبيل القويم حتى بمساعدة الضوء وعونه .

و « ذهب الله بنورهم » لا تعنى ان مسئولية عدم ابصارهم للحقيقة تقع على الله ولكنها تشير الى القانون الطبيعى الذى سلف تبيانها . فهم حين اختاروا بأنفسهم أن يسيروا فى الظلمات تركهم الله يتيهون ويضلون .

صَمَّ بَكَرْ عَمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾

انهم صم عن سماع الحق بكم عن النطق به عمى عن رؤيته .

أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْبِعَهُمْ فِي
ءِذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾

يخدعون أنفسهم حيناً قليلاً بأن يضعوا أصابعهم فى آذانهم ويتوهموا انهم قد فروا من الدمار هاربين لكنهم فى الحقيقة لا يستطيعون انقاذ أنفسهم لأن الله تعالى — بكل قواه — محيط بهم من كل جانب .

يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَّشَوْا فِيهِ

وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا

يصور المثل الأول المنافقين الذين لم يؤمنوا بالاسلام حقاً وبقينا ولم يخالط الاسلام شفاف قلوبهم . وانما أسلموا حفاظاً على مصالحهم وبدافع من « نفعيتهم » و « انتهازيتهم » . أما هذا المثل الثانى فيصف أولئك المنافقين الذين كانوا مرضى بالشك والريبة وقلة الايمان . ورغم أنهم ماكانوا كفارا تماماً فقد أدوا مقتضيات الاسلام الى الحد الذى لا يسبب لهم رهقا ولا يحشرهم فى مشاكل واضطرابات .

والصيب (سيل الماء) فى هذا المثل يرمز الى الاسلام الذى جاء لیسعادة الإنسانية طراً . أما البرق والرعد والصواعق فتشير الى المصاعب

التي تهدد الناس بقرب وقوعها وكذا الأخطار والعوائق التي خيشت بسبب ما أبداه منكرو الإسلام ومعارضوه من مقاومة صلبة . فلما هدأت الأحوال قليلا راح هؤلاء المنافقون يتحركون صوب الإسلام حتى إذا ما شرعت سحب المخاطر في الظهور أو حين اقتضى الإسلام منهم ما يتعارض مع مصالحهم وأهوائهم الشخصية ومعتقداتهم الخرافية البالية وقفوا مرة أخرى تتخطفهم الحيرة من كل اتجاه .

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢١﴾

وفي مقدوره تعالى — إذا أراد — أن يسلب هؤلاء المنافقين القدرة على ابصار الحقيقة تماما كما سلبها المنافقين الذين جاء وصفهم في المثل الأول لكنه سبحانه لا يفعل ذلك لأنه يريد أن يملأ لهم ليرى الحق ويستمعوا له إلى المدى الذي يريدون رؤيته وسماعه . لهذا فقد تركهم في كامل قوتهم التي يستطيعون بها رؤية الحق وسماعه .

في الآيات السابقة بين الله تعالى أن من يبغ الأفادة من القرآن هو وحده الذي يقدر على استمداد الهداية منه بفضل الله وعونه . ثم هوذا في الآيات التالية يدعو البشرية كلها لتقبل الرسالة التي بعثها من أجلها — ويخبرنا مسبقا بأن هناك نمطا معيناً من البشر لا يستطيعون الاستفادة من هداية على الرغم من أنه يوسع دعوته ويمدها إلى البشرية قاطبة .

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾

معنى « لعلكم تتقون » أنكم ستكونون في منجى من ارتكاب المآثم والشرور في الدنيا ومن العقاب والعذاب يوم القيامة .

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

يؤكد القرآن على هذا الأمر تأكيداً كبيراً لأنه يعتبر سر اتخاذ الإنسان شريكاً مع الله وأنشأ له هو أس بلاء العالم كله . فهو لا يسمح بجعل صنم أو وثن أو أمة أو دولة أو نحو ذلك نداً لله في العبادة والطاعة والخضوع والإخلاص ومن ثم يحض الناس على الخنوع والتسليم لله وحده إن كانوا يؤمنون بأن الله هو خالق وموجد كل شيء .

وإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا
شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾

كثيرا ما تردد ذكر هذا التحدى في القرآن سواء ما نزل منه في مكة أم المدينة . وقد قصد منه اقناع معارضى الاسلام بأن القرآن الذى لا يضارع فى بيانه وموضوعه لا يمكن أن يكون من نتاج البشر بأى حال من الاحوال وعلى هذا فلا بد من كونه منزلا من الله سبحانه (١) .

فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ
أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾

يعنى لن تكونوا وحدكم وقود جهنم وحصبها بل معكم أصنامكم وآلهتكم المزعومة لنريكم أنها كانت أحجارا لا تضر ولا تنفع .

وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رَزَقُوا قَالُوا هَٰذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِنْ
قَبْلُ وَأَتُوا بِهِ مُتَشَبِهًا

سوف يدهش نزلاء الفردوس أن تكون لهم فاكهة كذلك التى كانوا يعرفونها أثناء مقامهم على الارض لكنها سوف تكون بالطبع أحلى طعما وأكثر لذة . فالمانجو والتفاح ونحوه مثلا لن يكون مختلفا فى شكله ولونه وسيعرفه أهل الجنة من فورهم لكنه سيكون — قطعاً — أحلى مذاقا وطعما مما كان منه فى الدنيا .

وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾ *

سيكون الزواج فى الفردوس على أساس التقى والطاعة . فـلو

(١) انظر يونس ٣٨ ، ٣٩ — هود ١٣ ، ١٤ — الاسراء ٨٨ .

عاش رجل — مثلاً — حياته الدنيا تقياً صالحاً دون زوجته فسوف يفسخ
زواجهما في الآخرة . ويزوج بامرأة مؤمنة صالحة — غير زوجته — ففسخ
زواجهما هي الأخرى وهكذا .

أما ان عاش الزوجان حياتهما الدنيا عفيفة طاهرة نقية فسوف تستمر
حياتهما معا في الجنة كما كانت في الدنيا .

إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ
ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ

في هذه الآية رد الله على اعتراض أثاره الرافضون مع عدم ذكر
الاعتراض ذاته . ولقد ضربت الأمثلة في القرآن بالبعوض والعنكبوت والنمل
والذباب وما إليه لتوضيح معناه ومقصوده فما كان من المخالفين إلا أن
قالوا كيف يكون مثل هذا الكلام الذي يستشهد بهذه الأشياء الحقيرة
الضئيلة صادراً عن الله ؟ ولو كان من عند الله حقاً لما جاء فيه هذا
العبث .

وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا

هؤلاء الذين لا ييغون فهم الحقيقة ولا يشغلون بالهم بالبحث عنها
ملأت عقولهم ريبة في هذه المسميات التي تحوى في داخلها مجازات . ولم
تمتد أبصارهم وبصائرهم إلا الى حروفها وألفاظها الظاهرية فاستنتجوا منها
نتائج خاطئة وانحرفوا عن بلوغ الحقيقة بسبب فسادهم الشخصى .

فهم حين ينظرون فيها لا يرون إلا أنها مخلوقات صغيرة حقيرة ولا تصل
بصائرهم الى الدروس والعظات التي من أجلها سيقت هذه التشبيهات .

أما الباحثون عن الحقيقة فيتفكرون فيما بداخلها من حكمة ظاهرة
ويؤمنون بأن هذه الأشياء الصغيرة الدقيقة من صنع الله وخلقه سبحانه .

يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٣٦﴾

فاسق تستخدم من الناحية اللغوية في معنى الفاسجر العاصى . وبذا
تشير الى أولئك الذين يتعدون حدود الله التي أقرها وفرضها .

الَّذِينَ يَقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ

الأوامر والقوانين واللوائح الصادرة من لدن الحاكم الى رعاياه وعمله يعبر عنها في اللغة العربية « بالعهد » . وقد استعملت الكلمة هنا لتدل على نفس هذا المعنى . فعهد الله : أمره الدائم للبشر أن يذعنوا له ويفردوه بالطاعة والعبادة . و « ميثاقه » أى الموافقة عليه وتصديقه . يعود على العهد الذى وثقته وصدقته البشرية جمعاء حين خلق آدم عليه السلام . وهو عهد الخضوع لله وحده وطاعته وعبادته دون سواه . (لمزيد من التفاصيل انظر الاعراف ١٧٢) .

وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوْصَلَ

هذه الآية المختصرة تتسع في معناها لتظل العالم الاخلاقي بأكمله ابتداء مما بين شخصين اثنين من روابط وعلاقات والى الشئون الدولية الكبرى وعلاقاتها . وانتهاك وفساد العلاقات والروابط التى أمر الله الناس بانشائها والحفاظ عليها سليمة متينة يسبب — في نظر هذه الآية — فسادا وفوضى .

وليس المقصود بقطع العلاقات هو قطع الروابط الانسانية بل ان كافة الصور والحالات التى تتخذ فيها العلاقات شكلا يخالف الاستقامة والمشروعية تندرج تحت هذا المعنى . لأن مصير العلاقات العرجة غير المشروعة هو نفس المصير الذى يسوق اليه قطع الروابط وهو فساد المعاملات الانسانية وخراب نظام الاخلاق والمجتمع والتحضر .

من أجل هذا فالقرآن لا يمقت انتهاك العلاقات وقطعها فحسب وانما يمقت حتى مجرد اساءة استخدامها أيضا لما في ذلك من مسببات الفوضى والاضطراب والصراع والفساد فى العالم كله .

وَيَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾

هذه هي الصفة الثالثة التى حددت معنى الفاسق والفسق وأكملت تعريفهما (١) فالنتيجة الحتمية لقطع أو فساد ما بين العبد والرب من روابط وكذا ما بين الانسان والانسان من وشائج هي الفساد ومن نشر هذا الفساد وخلقه وبثه فهو فاسق .

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَانًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ مِمَّا كَفَرْتُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ

(١) الصفة الاولى أن الفاسقين « ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه » والثانية « ويتعضمون ما أمر الله به أن يوصل » — المترجم .

من العسير تحديد معنى السماوات السبع . ولقد بنى الانسان في كل عصر وزمان — بناء على مشاهداته وقياساته — تصورات ونظريات مختلفة تتعارض فيما بينها عن « السماء » أو بالفاظ أخرى « ما وراء الارض » . لهذا فتعيين معنى « السماوات السبع » على أساس اى من هذه الافكار والنظريات لن يكون تعيينا صحيحا . وما ينبغي أن يفهم اذن بشكل عام أن المقصود منها اما أن يكون الله قد قسم الكون — فيما وراء الارض — الى سبع طبقات محكمات ، أو أن يكون الجزء الذى تقع فيه الارض من الكون يشتمل على سبع طبقات .

وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾

هنا تحذير للناس من عصيان الله لانه يعلم خائنة الاعين وما تخفى الصدور ولا يغيب عن علمه مثقال ذرة في السماوات أو في الارض أو في الالباب أو في القلوب . وليس في مكنة أحد من خلقه أن يحجب عنه شيئا أو يدارى عن علمه أمرا .

كذلك تحوى هذه الآية حثا للناس على اتباع هدى الله والخضوع له لانه تعالى أعلم بما يناسب خلقه . ومن يحل وجهه عن هدايته ويعرض عن طريقه فسوف يضل الى الجهل لا محالة لانه عز وجل نبع المعرفة الحقيقية ومصدر العلم الأصيل . ولا خير يرجى اذا نأى الانسان عنه ، اذ ليس للانسان نبع آخر غير الله يستقى منه معرفة الحقيقة . ونوره سبحانه وحده هو الذى يأخذ بيد الانسان ويهديه في الدياجير الحالكة التى تكتنفه من كل جانب .

أما الآيات التالية فقد أمر الانسان فيها بالاذعان لأمر الله لانه سبحانه وتعالى هو الخالق البارئ ومن بيده الموت والحياة وهو مالك هذا الكون الذى يعيش فيه الانسان وهو ربه وحاكمه وليس الانسان سوى خليفة له في الأرض ولذا فعليه أن يخضع لأمره ويمثل لحكمه ويتبع هدايه ولا يمضى في سبل الشيطان عدوه الأزلى الذى يقعد له صراط ربه المستقيم ليضله عن الهدى ويلفته عن الحق فان سلم نفسه له واستجاب لمغرياته وحيله فسوف يرتكب أبشع الجرائم — جريمة عصيان الله والتمرد عليه — حيث ينال سوء العاقبة وبوار المال .

ويلقى القرآن في هذه الآيات أيضا أضواء على ذلك الجزء السحيق من تاريخ البشر الذى خلق فيه الانسان وهى حقبة يستحيل علينا تلمس صدقها والوصول الى حقيقتها يقينا عن أى مصدر آخر .

وليس من شك في أن هذه المعرفة المؤكدة اليقينية التى يعطينا القرآن أوثق وأهم من تلك المعرفة المزعومة التى لا تعدو الحدس والتخمين المقام على أساس العظام المستخرجة من جوف الارض .

كذلك فالمعرفة التي يخبرنا الله بها ترفع قدر الانسان وتعلو مكانته
بجعله خليفة لله في أرضه واسجد الملائكة وكل شيء في الكون له دون غيره .
في حين تجعله المعرفة الأخرى أحقر مخلوقات النشوء والارتقاء .

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ

الملك في اللغة العربية رسول خاص من عند الله . والملائكة ليسوا
قوى لا ذوات لهم بل هم مخلوقات لها شخصياتها المميزة بحيث يستطيعون
التحدث الى خلفاء الله الذين يعينهم سبحانه لحكومة مملكته .

ويتضح من القرآن أن الماديين الذين ينكرون وجود الملائكة أصلاً
يخطئون كما يخطئ الجهلاء الذين يتخذون الملائكة أندادا لله ويعبدونهم
على أنهم أقرباء له سبحانه وتعالى .

إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً

الخليفة هو من يمارس سلطات مفوضة اليه نيابة عن سلطة أعلى .
وعلى هذا فليس الانسان هو السيد والمالك وإنما هو في الحقيقة نائب
الملك الأصلي وبالتالي لا يملك سلطات ذاتية الا ما فوض اليه من سيده
الحقيقي ، وليس له الحق في أن يعمل وفق ما يشاء بل ان مهمته تنفيذ
مشيئة الله . فان اعتبر الانسان نفسه المالك والسيد وراح يستخدم
السلطات المفوضة اليه حسب مزاجه أو سلم بأحد آخر غير الملك الحقيقي
سيدا ومالكا ثم شرع ينفذ أحكامه ويتبع أوامره . فان صنيعه هذا ليس
سوى غدر وخيانة وتمرد على سيده .

قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ

هذا السؤال لم يبدر من الملائكة اعتراضا على كلام الله سبحانه
وانما جاء منهم وكأنه طلب المزيد من المعلومات حول هذا الامر ذلك أن
الملائكة لا يجروون على الاعتراض على أمر من الله أو قول فهم لا يعصون
الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . وما حدث هو أنهم فهموا من لفظ
« خليفة » أن هذا المخلوق سوف تفوض اليه بعض السلطات لكنهم
ما استطاعوا أن يفهموا كيف يكون هذا المخلوق ذو الإرادة والاستقلال
الذاتي صالحا ملائما لنظام مملكة الكون الذي يقوم على حكم وتدبير الله
واحد لا شريك له . كذلك لم يفهموا كيف يخلو جزء من الكون — منح فيه

« كائن ما » استقلالاً ذاتياً واردة حرة — من الشرور والمفاسد . فكانوا
بمسئولهم هذا يريدون فهم ومعرفة هذه الأمور .

وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ

لم يقصد الملائكة بهذا القول اثبات أحقيتهم بالخلافة وإنما قصدوا
به أن يقولوا : يا رب اننا نمثل لأوامرك ونطيعها مؤمنين ونحفظ الكون
كله — وفق مشيئتك — نظيفا طاهرا متسقا ونتغنى بحمدك وتقديسك فأى
شئ يستلزم وجود « خليفة » ؟

وأحب أن أشير الى أن كلمة « تسبيح » ذات معنيين : بيان الطهر
والنقاء وكذا العمل والسعى في جد وانهماك . وكلمة « تقديس » أيضا
تعنى اظهار القدسية وكذا التطهير والتنزيه .

قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾

هذا رد الله على الشق الثانى من « الشك » الذى اعترى الملائكة
ومعناه أنكم أيها الملائكة لا تعرفون حكمة تعيينى خليفة فى الأرض فقدراتكم
وصلاحياتكم لا تكفى لما أريده وأبغيه وهو أكثر وأجل مما ذكرتموه ولهذا
سأخلق كائنا على الأرض وأفوض اليه بعض السلطات .

وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا

الاسماء هى الوسائل التى يميز الانسان بها الاشياء ويتعرف عليها
والحق أن كافة معلومات الانسان عن الأشياء تعتمد أصلا على قدرة
تخصيص الأسماء لها ومن ثم فتعليم آدم أسماء كل الأشياء عنى به نقل
معرفة اليه .

ثُمَّ عَرَّضَهُمْ عَلَى الْمَلَكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ

إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا

إِلَّا مَا عَلَّمَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾

هذا يوضح لنا أن علم « الملك » محدود مقصور على مجاله الخاص :
الهواء والماء والسحب ونحوه وعلى عكس ذلك علم الانسان ومعرفته فهو
شمولى واسع .

وقد لا يعرف الانسان ما هو موجود في مجال « الملك » بنفس درجة
معرفة « الملك » ذاته له الا أن الانسان يعرف شيئا عن كل ما هو موجود
في مجال الملائكة في حين لا تعرف الملائكة شيئا عما هو خارج مجالها .

قَالَ يَتَادِمُ أَنْبِيَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَاهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي
أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٦٣﴾

هذا اثبات واطهار لعلم آدم وهو رد من الله على الشك الاول من
الشك الذى اعترى الملائكة . فكأن الله سبحانه يجيبهم « اننى لم أهب آدم
السلطة بل منحته العلم والمعرفة أيضا » وبذا يكون لتعيينه في هذا المنصب
وجهان . وجهه المظلم وهو أنه قد ينشر الفساد والشرور بسوء استخدامه
للسلطة المفوضة اليه . ووجهه المضيء وهو أنه قد يستعين بالعلم في فعل
الخيرات أكثر من الشرور . والحكيم لا يرفض شيئا فيه خير كبير لمجرد
احتمال صدور الشر عنه بدرجة أقل .

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا

هذا السجود رمز خضوع الملائكة للانسان وهم الذين يتولون ادارة
الارض والجزء المتصل بها من الكون بطريقة أو بأخرى . ولأن الانسان
عين خليفة لله بأمره تعالى كان طبيعيا أن يلتزم الملائكة الذين يعملون في
هذا الجزء بالتعاون معه — بقدر ما يشاء الله — في مجالاتهم سواء أراد
الانسان أن يحسن أو يسيء استخدام السلطات المفوضة له . وهذا يعنى :
« أن عليكم مساعدته فيما أراد فعله بصرف النظر عما اذا كان صوابا
أم خطأ خيرا أم شرا طالما اننى تركته يمارس سلطاته بهذا الشكل . اما أن
جردته من هذه السلطات فأوقفوا عونكم له » .

ولتوضيح هذا القول أقول ان مثل الانسان في هذا مثل الضابط الكبير
فهو مطاع من كل موظف في نطاق سلطته طالما بقى في منصبه ولكن ما ان
تعزله الحكومة من منصبه حتى يحجم عن طاعته حتى اصغر الموظفين الذين
كانوا ينفذون أوامره حتى أمس . بل انهم قد يوثقونه ويلقون به في السجن
اذا أمرتهم الحكومة بذلك . فالأمر الذى صدر الى الملائكة بالسجود لآدم
يمثل في نوعه هذه العلاقة التى ذكرتها لكم . ومع هذا فقد يكون الملائكة
قد أمروا بالسجود الذى نعرفه جميعا تعبيرا عن خضوعهم وادعائهم .

إِلَّا إِبْلِيسَ

ابليس تعنى فى معاجم اللغة اليائس الى أقصى درجة وهذا هو الاسم الذى سُمى به « الجنى » الذى عصى أمر الله ورفض أن يسجد لآدم دليلاً على خضوعه له ولذريته وسأل الله أن ينظره الى يوم يبعثون كي يغوى الانس أجمعين ويقعد لهم صراط ربهم المستقيم .

ويسمى أيضا « الشيطان » وهو ليس قوة شريرة غيبية وانما له شخصيته الخاصة به مثل الانسان . ولم يكن ابليس ملكا كما هو شائع عنه بل كان واحداً من الجن الذين يكونون جنسا خاصا بهم مثلما يكون الملائكة جنسا مستقلا بهم (١) .

أَبْنَى وَأَسْكَبَرَّ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾

يتضح من هذا أن ابليس لم يرفض وحده السجود لآدم وانما كانت هناك مجموعة أخرى من الجن جنبحت الى العصيان وذكر منها اسم ابليس خاصة لانه هو الذى تزعم العصاة .

وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ

يظهر من هذا أن الله أبقى على آدم وحواء فى الجنة بادىء الامر لاختبار رغباتهما ونزواتهما قبل أن يبعثهما الى الارض وهى المكان الذى عينهما فيه خلفاء له . ولأجراء هذا الاختبار اختيرت شجرة من الاشجار وحذرهما سبحانه وتعالى حتى من مجرد الاقتراب منها فان فعلا ذلك فقد أخطأ فى حق الله وعصيا أمره ونالا مصير الظالمين .

ولقد كانت الجنة أنسب مكان لأجراء هذا الاختبار اذ قصد بها أن يتضح للانسان أن الجنة هى المكان الذى يليق بخليفة الله . أما ان أسلم نفسه للشيطان ونزواته فسوف يحرم نفسه من الفوز بها . وليس من سبيل

(١) انظر الآية « وَإِذَا قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ » .

لاستردادها والرجوع اليها سوى مواجهة « العدو » — الذى يقعد له كل مرصد ليضله عن سبيل ربه — مواجهة حازمة ناجحة .

اما الشجرة التى وردت هنا فليس من ذكر لاسمها أو نوعها لان الشجرة فى ذاتها لا يكمن فيها شر أو اثم وانما اختيرت لاجراء الامتحان لا غير .

فَكُونُوا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٤٥﴾

كلمة « ظالم » كلمة جد واسعة فى مدلولها . والظلم هو انتهاك الحق والظالم من يفعل ذلك . فمن يعصى أمر الله ينتهك ثلاثة حقوق أساسية : الأول حق الله الجدير بالطاعة والاذعان والثانى حقوق كافة الموجودات التى أستخدمها فى تنفيذ هذا العصيان كأعضاء بدنه وقدراته وأبناء مجتمعه والملائكة الذين ساعدوه فى تنفيذ ارادته وغير ذلك مما استعان به فى تحقيق عصيانه لان سائر هذه الاشياء والموجودات لها الحق فى أن تستخدم طبقا لمرضاة المالك الحقيقى ووفق ارادته ومن الظلم أن يسمى الانسان استخدام السلطات التى له عليهم .

والحق الثالث الذى يجور عليه الانسان اذا ما عصى ربه هو حق نفسه ذاتها لان لنفسه عليه حقا أن يجتهد لحمايتها من الدمار والتحطيم فان عصى ربه استجلب عليها غضب الله وسخطه وبذا يكون قد ارتكب ظلما ضدها . هذه هى الاسباب التى من أجلها يصطلح القرآن على تسمية الذنب « ظلما » والمذنب « ظالما » فى مواضع عديدة منه .

فَازْهَمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ

عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٦﴾

يعنى أن الشيطان سيكون للانسان عدوا ويكون الانسان له عدوا . وحقيقة أن الشيطان يحاول جهده ليلفت الانسان عن سبيل ربه الى سبيل البوار والخسران المبين ان هى الا دليل واضح على أنه عدو الانسان الازلى الرئيسى . ومن ثم تقتضى طبيعة الانسان البشرية ضرورة قتاله للشيطان باعتباره عدوه .

بيد ان الانسان — بكل أسف — حرفته مغريات الشيطان وأغرته شراكه والأعيبه حتى أنه راح يتخذة خليلا ووليا . ومع ذلك فلا يعنى هذا أن عداوتهما المتبادلة انقلبت فعلا الى صداقة وانما يعنى فقط أن خصم الانسان قد أفلح فى تضليله فوقع فى الشراك التى نصبها له .

فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ

حين أحس آدم بالندم على ذنبه وأراد أن يتوب الى خالقه لم يجد من الكلمات المناسبة ما يسأل به الله عفوه وغفرانه فمن الله عليه وأشفق لما كان فيه من حزن وأسى ولقنه كلمات مناسبة .

و « التوبة » تعنى التهقر وتعنى الرجوع الى كذا . فان استخدم اللفظ في جانب الانسان فمعناه أنه قد رجع عن عصيانه الى الماضي حيث الطاعة والتسليم وان استخدم في حق الله فمعناه أنه تعالى عاد مرة أخرى برحمته الى التائب .

إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ

هنا يرفض القرآن تلك النظرية التي تزعم أن نتائج الخطيئة حتمية لازمة لا يمكن الرجوع فيها وانها ستدين الانسان وتذيقه وبال أمره بطريقة أو بأخرى .

وهذه واحدة من النظريات الباطلة الضالة التي ابتدعها الانسان بنفسه وجنت على البشرية ضررا بالغا ووبالا شنيعا . اذ أنها تفقد الانسان كل أمل في الاستقامة الى أبد الدهر ان انزلت قدمه — ولو مرة واحدة — في وحل الخطيئة . وحتى اذا شعر الانسان في قرارة نفسه بالاسف والندم على سالف ذنبه وأراد أن يكفر عنه ويتجه بحياته الى الاصلاح والافضل وقفت هذه النظرية في وجهه ولاقتة باليأس وصاحت فيه ألا أمل لك في أن تعود الى سابق طهرك لانك أدنت الى الابد وعليك أن تتحمل عواقب ما ارتكبته في ماضيك .

أما القرآن فيقول — عكس ذلك — ان الله تعالى قادر تماما على أن يثيب المحسن ويعاقب المذنب . وأنه اذا أثابك على خير فعلته فهذا ليس نتيجة حتمية لفعلك بل هو من فضل الله ونعمته لان لديه السلطة المطلقة في أن يجزيك عليه خيرا أو لايجزيك . ونفس الحال اذا عوقبت على شر ارتكبته فبالعقوبة ليست نتيجة خطئك الحتمية التي لا فكاك منها وانما في مقدور الله سبحانه وتعالى أن يعاقبك عليه أو يغفر لك اذا شاء .

ولان الله تعالى حكيم بلا نهاية فهو لا يستخدم سلطاته اعتبارا — جل شأنه وتعالى — بل يراعى — وهو العليم الخبير — ما انعقدت عليه النية فعلا فان أثاب عبده على خير فهو يثيبه حين يراه يفعل ابتغاء مرضاته تعالى وان لم يثبه على خير ظاهر بارز فلانه يعلم أن عبده قد صنع هذا دون اخلاص أو ظهورا ورياء . وكذا الحال في الذنوب والخطايا فهو يعاقب

العبد على ذنب يرتكبه في غمرة من العصيان والتمرد دون أن يصحبه أو يتبعه تأنيب نفس أو عذاب ضمير بل يتبعه رغبة في اقتتراف ذنوب وجرائم أكثر وأكثر . فسبحانه يسبغ رحمته وفضله على عباده فيغفر ما يشعر العبد عليه بالأسف والندم ويقرر بينه وبين نفسه أن يتحول الى الاصلح والاحسن .

من هنا يتضح أن رفض النظرية التي تقول بحتمية العقوبة على الذنب يحدد أمل الاستقامة في نفوس المذنبين . وعلى أسوأ المجرمين وأعتى العصاة والكافرين ألا يقنطوا من رحمة الله وغفرانه شريطة أن يعترفوا بذنوبهم لله — لا أمام الكاهن — ويحسوا الندم على عصيانهم ويكفروا عن تمردهم ويقبلوا على التسليم والخضوع والاذعان .

قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا

تكرار هذا « الأمر » الصادر من الله بالهبوط له مغزى كبير . فالآية السابقة تقول أن آدم تاب الى الله فقبل توبته وعلى هذا لم يغفر الله لآدم وحده بل أنه سبحانه وضع عن أنسال وأصلاب آدم التاليين تأثير ما اقترفه من ذنب ومن ثم فليس من حاجة بالله لأن يصلب « ابنه الوحيد » (١) تكفيرا عن خطيئة آدم وذريته . بل انه تعالى لم يقبل توبة آدم فحسب وإنما عينه — فوق ذلك — خليفة له في أرضه ليرى أبناءه هدى الله ونوره .

فتكرار الامر (اهبطوا منها) من جانب الله اذن يوضح أن الهدف الأصلي من خلق آدم هو تنصيبه خليفة لله في الارض التي صدر الامر من الله بالهبوط اليها . ولذا لم يبق عليه في الجنة بعد قبول توبته بل أرسله الى الارض كأمر طبيعي وليس عقابا واقتصاصا .

فَإِذَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا

آيات جمع آية والآية في اللغة العلامة أو الإشارة . وقد ورد استعمال هذه الكلمة في القرآن في أربعة معان مختلفة . فهي تعني في بعض المواضع مجرد العلامة . وسميت الظواهر الطبيعية المختلفة في مواضع أخرى « آيات » لان كل ظاهرة منها تشير الى الحقيقة المستترة وراءها كذلك سميت المعجزات التي جاء بها الانبياء « آيات » لانها كانت العلامة التي تثبت أنهم نواب الحاكم الاعلى . وآيات الكتاب أيضا سميت « آيات » لانها لا تشير الى الحق والصواب فحسب بل الى « مؤلف القرآن » رفيع

(١) تقول المسيحية ان الله صلب ابنه المسيح تكفيرا عن خطيئة آدم — الترجمة .

الدرجات ذى المقام الأعلى . فليس موضوع القرآن وحده الذى يشير الى مؤلفه وانما كلماته وبيانه وأسلوبه أيضا . فمعنى لفظ « الآيات » اذن يتضح من السياق الذى ترد فيه الكلمة .

أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٩﴾

القانون الالهى الخاص بالهداية والذى سلفت الاشارة اليه جعله الله نافذا منذ الازل والى الابد . . منذ خلق الله الانسان والى يوم يبعث الانسان وقد سمي هذا القانون « عهدا » فى الآية ٢٧ من سورة البقرة وقصد به تحذيرا للانسان من ربه وأمرأ صادرا اليه من سيده بألا يبتدع سبيلا من وحى عقله يسير فيه كيف شاء بل عليه اتباع هداية الله وحده بصفته عبده وخليفته ووسيلة معرفة هذه الهداية أمران : اما أن يتلقى الانسان وحيا مباشرا من الله واما أن يتعلمه ممن نزلت عليه هداية الله . وليس ثم طريق ثالث يعرف الانسان منه مرضاة ربه ورغبته . لذا فكل طريق غير هذين ليس خطأ فحسب بل هو سبيل عصيان وتمرد يقود — يقينا — الى الجحيم المقيم السرمدى .

وقصة خلق الانسان وصفت فى ستة مواضع فى القرآن الكريم فى سورة الاعراف ١١ : ٢٥ وسورة الحجر ٢٦ : ٤٨ والاسراء ٦٠ : ٦٥ والكهف ٥٠ وطه ١١٦ : ١٢٣ والزمر ٧١ : ٨٥ .

والافضل مطالعة قصة الخلق كما وردت فى العهد القديم فى سفر التكوين الاصحاح ١ — ٣ ومقارنتها بما يرويه القرآن . ومما لا شك فيه ان المقارنة بين الروايتين تسفر عن القطع بأن القرآن بقى سليما فى نقائه وشكله الاصلى وبنفس الصورة التى أوحاه عليها رب العالمين وأن الكتاب المقدس قد امتدت اليه الأيدى وتلاعبت بنصوصه الاقلام .

كما انه من الطريف أيضا أن نقابل بين حوار الله مع الملائكة كما جاء فى كل من القرآن والتلمود لنرى أن حديث التلمود يخلو تماما من القيم الروحية . ليس هذا فحسب بل انه مثير للضحك والسخرية .

فحين سأل الملائكة رب العالمين — هكذا يقول التلمود — عن السبب الذى من أجله سيخلق الانسان أجابهم بأن الصالحين لا بد وأن يخلقوا على الارض ولم يذكر شيئا أمام الملائكة عن خلق الاشرار على الارض كيلا يمتنع الملائكة عن التصريح له بخلق الانسان .

يَبْنَى إِسْرَءِيلَ

اسرائيل تعنى خادم الله وعبده . وهو اللقب الذى سمي به الله يعقوب بن اسحق وحفيد ابراهيم . وتسمى نسله بنى اسرائيل . ولوا

سرحنا النظر في الآيات السابقة لرأينا أن الآيات الأولى حتى الآية ٣٩ كانت حديثا تمهيديا موجها للبشرية جمعاء . أما الآيات من ٤٠ الى ١٢١ فهي حديث وجه الى بنى اسرائيل خاصة رغم مخاطبته المسيحيين ومشركي الجزيرة والمسلمين في بعض آياته .

ولكى نفهم هذا الخطاب فهما تماما علينا أن نضع في أذهاننا عدة نقاط هامة:

أ - أن هذا الحديث يهدف الى دعوة أتباع الانبياء السابقين (اليهود والنصارى) - الذين كانوا لا يزالون في عجز عن اصلاح أنفسهم - الى فهم رسالة محمد عليه الصلاة والسلام وقبولها ولهذا فقد أخبرهم الله فيه بأن رسالة القرآن هي عين رسالة الكتب التي نزلت على الانبياء السابقين وأن مهمة محمد عليه الصلاة والسلام هي نفس مهمة من سبق من الأنبياء . فكأن هذا الخطاب يقصد أن يقول لهم :-

(لقد أسندت اليكم هذه المهمة أول الامر لكي تنفذوها وتدعوا العالم لقبولها والايمان بها لكنكم طرحتم هداية الله وتدليتم الى أعماق الانحطاط وما تاريخ أمتكم الماضي وانحطاطها الخلقي والديني الراهن سوى خير شاهد عليكم وها هو عبد آخر من عباد الله أرسله بنفس الرسالة ولتنفيذ نفس المهمة أيضا وليس في هذا شيء غريب أو جديد عليكم فينبغي أذن الاتعاضوا الحق وانتم تعلمونه وخير لكم أن تؤمنوا به وتتعاونوا مع من يؤمنون بنفس ما ارسل اليكم من قبل

ب - كذلك يرمى هذا الخطاب الى مناقشة اليهود والبرهنة على فسادهم وكشف انحطاطهم الديني والخلقي . لذا نرى آياته تثبت أثباتا قاطعا خطأ موقفهم من الاسلام حين كانوا يعارضونه مع أنهم كانوا يعترفون في نفس الوقت بأن مبادئه واسسه هي بالفعل عين مبادئ دينهم وأن القرآن ليس فيه ما يخالف التوراة أو يعارض تعاليمها من حيث المبدأ .

كما أن هذا الخطاب يبين أيضا أن اليهود فشلوا تماما في اتباع ما أعطاهم الله من هداية واخلقوا كل الاخفاق في القيام بمسؤوليات وواجبات الزعامة التي أسندت اليهم . ولاثبات هذا سيقت حوادث من تاريخهم وقصصهم لا يستطيعون لها انكارا او رفضا .

وفوق هذا فالخطاب يقضح المؤمرات التي كانوا يحيكونها والريب والمزاعم التي كانوا ينسجونها ويرددونها والحجج والبراهين التي كانوا يقدمونها والمكائد التي كانوا يدبرونها ويلفنونها لينالوا من مهمة الرسول عليه الصلاة والسلام ويشوهوا رسالته رغم تيقنهم من أنها رسالة منزلة من عند الله .

وقد فضح هذا الخطاب أيضا (تقواهم وإيمانهم) المزعوم ودلل على أنه إيمان يعوزه الاخلاص وتنقصه الاستقامة وأن الدافع وراءه عنادهم وعبادتهم لانفسهم . وأثبت بما لا يدع أدنى مجال للشك أنهم لا يريدون الخير أن يزدهر ويعم حقا .

كل هذا أدى دوره المطلوب وأثر تأثيره المرغوب إذ فتح أعين العناصر الطيبة من اليهود وقضى على الكبرياء الروحية التي كانت تستحوذ على عقول زعماء اليهود الدينيين في المدينة وما حولها . الى جانب أن استولى الخوف والفرع على قلوبهم لافتصاح أمرهم فلم يتجاسروا على معارضة الاسلام في صراحة وشجاعة .

ج - في الآيات التي سبقت هذا الخطاب دعيت البشرية قاطبة للإيمان بالهداية الإلهية ثم اختير بنو إسرائيل بعد ذلك كمثال لايضاح النتائج المترتبة على نبذ هذه الهداية بعيدا .

وسبب اختيار بنى إسرائيل نموذجا هو أنهم الأمة الوحيدة التي يعتبر تاريخها خلال الأربعة آلاف سنة الأخيرة درسا وعبرة حية لكل أمم العالم إذ تبدو في روايته كافة الارتقاعات والانخفاضات والارتقاعات والفتنات التي تنجم عن السير وفق هداية الله أو نبذها والتكبر لها .

د - رغم أن هذا الخطاب موجه الى اليهود بذاتهم الا أنه قصد به كذلك تحذير المسلمين من السقوط فيها سقط فيه أتباع الانبياء السابقين . وهذا هو سبب إشارة القرآن فيه الى انحطاطات اليهود الخلقية وإيراد تصوراتهم المستغربة وافكارهم الخاطئة عن الدين وذكر طرقهم الضالة في التفكير واساليبهم الساقطة في العيش والحياة واحدة بواحدة . الى جانب تقرير مطالب الدين الحق ومقتضياته كي يتمكن المسلمون من رؤية الصراط المستقيم في جلاء ويتعدوا عن الطرق العرجة الاخرى .

وينبغي على المسلمين حين يقرأون ما ورد في هذا الخطاب من مثالب وانحرافات الا يغفلوا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول :

« لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة (احدى ريش السهم) حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه قالوا : يا رسول الله اليهود والنصارى ؟ قال فمن ؟ »

ولم يكن هذا الحديث من باب التوبيخ بل كان عليه الصلاة والسلام يعلم ببصيرته المعطاة من رب العالمين أى السبل يتطرق منها الانحراف الى أمم الانبياء وفي أى الاشكال يظهر . وكان يعلم أيضا أن المسلمين سيتبعون نفس الخطى التي أثير اليها في هذا الخطاب شيئا فشيئا فحذرهم من ذلك لكنهم لم يلقوا بالا الى تحذيره وها أنت تراهم قد سلكوا في انحطاطهم نفس الدروب التي سلكها اليهود والنصارى .

أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ
وَإِنِّي فَارُهُوبٌ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا بِمَا أُنزِلَتْ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا
لَوَلٍ كَافِرِينَ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتَقُونُ ﴿٤١﴾

يشير القرآن في تعبير « ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا » الى المكاسب الدنيوية التي لاجلها أعرض هؤلاء الناس عن قانون الله . وبالطبع لايعنى هذا التعبير الا تآخذوا لقاء هدايتي مكاسب ومنافع قليلة بل خدوها كثيرة .
والحق أن ثروات العالم كله مجمعة لا قيمة لها اذا نالها الانسان لقاء بيعه لهدى الله ورشده .

وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُنُوا لِلْحَقِّ وَانْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾

لكي نفهم هذه الآية علينا أن نأخذ في الاعتبار أن العرب وقتذاك كانوا أميين غير متعلمين في معظمهم على حين كان التعليم منتشرا بين اليهود الذين كان منهم علماء كبار يعيشون بين العرب ووصلت شهرتهم الى ما وراء الجزيرة العربية فكان ذلك سببا في أنبهار مشركي العرب بثقافة اليهود لان علماءهم واحبارهم كانوا يستعرضون عليهم عضلاتهم في ميدان التعليم والثقافة والتقوى والتدين مدعين ذلك باستخدامهم السحر والتعاويذ والتمائم . وكان أهل المدينة خاصة مبهورين بثقافة اليهود وتعليمهم نظرا لتوشج العلاقات بينهم ليل نهار فنتج عن هذا أن تأثروا بهم كثيرا كما يتأثر الشعب الجاهل المتخلف عادة بجيرانه الذين يفوقونه ثقافة وتحضرا وتدينا .

هكذا كانت حال العرب الدينية حين أعلن الرسول عليه الصلاة والسلام أنه رسول من عند الله وأن عليهم اتباعه . فلما سمع العرب الجاهلاء منه هذا توجهوا بالطبع الى اليهود يتلمسون عندهم نصحا وبيتغون ارشادا قائلين لهم انكم أتباع نبي وأهل كتاب فما ظنكم بهذا الذي يزعم أنه رسول من عند الله . ؟

غير أن علماء اليهود لم يجيبوا سؤالهم أجابة شافية صحيحة لعدة أمور : فهم لم يجدوا في دعوته صلى الله عليه وسلم خطأ أو خلطا ، وما كان لهم أن يقولوا بالهة كثيرة وينكروا دعوته الى التوحيد ، ولم يستطيعوا الطعن فيما جاء به عن الأنبياء السابقين والكتب المقدسة المنزل والملائكة المكرمين ويوم الفصل والدين ، وما استطاعوا أن يفندوا المبادئ الخلقية التي كان يلقنها سيد المرسلين ، والى جانب هذا لم يكونوا مستعدين لتصديق الرسول

صراحة ، ولم تكن لديهم الشجاعة الكافية لمعارضة تعاليمه علانية ، ولم تكن بهم رغبة في اشهار ايمانهم بالحق على ملا عيان ومن أجل هذا كله جنحوا في مواجهة الرسول الى خطة خبيثة ومكر بارع اذ أسرعوا يخلقون الشبهة تلو الشبهة حول الرسول وصحابته الاطهار ورسالته الزكية وراحوا يلققون المزاعم ويملاون الأجواء بالاقاويل والاكاذيب ، ويتصيدون الفرص لاثارة الاعتراضات التافهة ، ويستدرجون المؤمنين الى شباك الجدل العقيم الذى لا طائل من ورائه . . . ولهذه الأسباب صدر الأمر اليهم من الله الا يكتموا الحق باخفائه في ثوب الباطل ونشر الشكوك والريب حوله واثارة الاعتراضات السخيفة ضده وخلطه بالضلال والبهتان .

وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾

شملت الصلاة والزكاة الarkan الأساسية لدين الاسلام الموحى من عند الله في ستائر الحجب ولقد فرضت على بنى اسرائيل — عن طريق انبيائهم مثلما فرضت على الاقوام الآخرين غير أن اليهود أهملوها تدرجاً ففسد نظام صلاة الجماعة عندهم بل وتخلّى أكثرهم عن أدائها ولو بشكل فردى الى أن صارت الغالبية العظمى منهم لا تؤديها . أما الزكاة فراحوا يأكلون الربا بدلا من أدائها ودفعها .

* أَتَاْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ ثُلُوفٌ أَلَكْتَبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ

يعنى لو شعرتكم بالمصاعب تعترض طريقكم الى الخير فعليكم بالصبر والصلاة فهما الدواء الناجع الذى يخلق فيكم القدرة والطاقة التى تجعل اجتيازكم لهذا الطريق سهلا يسيرا .

والصبر فى اللغة يعنى الحبس والضبط لكنه فى الاستخدام يعنى الحلم والناة والثبات والجلد ، والقرآن يستخدم هذا اللفظ ليعبر به عن ضبط الارادة وقوة العزم وحبس رغبات النفس والمثابرة والاحتمال والتصميم والالتزام الخلقى الذى يمكن المرء من مواجهة الآلام والمصاعب والحرمان والعوز والفاقة والمغريات التى يتعرض لها فى اجتيازه للطريق الذى يختاره بما يمليه عليه ضميره فى شجاعة واقدام وثبات .

وَأَنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾

انها لجهد شاق مضن على من يعصى الله ولا يؤمن بالآخرة وفرض مقترح
وواجب مبهج لمن يطيع ربه ويخضع له برضا واختيار منه ويؤمن بانه
سرجع اليه ذات يوم ليقف أمامه . مثل هذا الشخص ما أشق عليه من
ترك الصلاة وما أضنى على نفسه من أهمالها .

يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكَرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾

إشارة الى الفترة التي كان بنو إسرائيل فيها هم الأمة الوحيدة من
بين أمم العالم التي تملك هداية وحقيقة من عند الله . وعلى هذا الاساس
جعلهم الله أئمة البشرية وكلفهم بدعوة الأمم الأخرى لاسلام الوجه لله
وقيادتهم جميعا الى الطريق الصحيح . . طريق هداية الله .

وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ
مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾

في هذه الآية أمر الله بنى إسرائيل أن يقوا أنفسهم شر تصورهم
الغلط عن «الآخرة» لانه كان السبب الاساسى في انحطاطهم اذ توهموا انهم
وحدهم الناجون يوم القيامة لانهم سلالة الانبياء العظام ولهم علاقات
وصلات دم بكبار الاولياء والصالحين والزهاد مما دفعهم الى أهمال الدين
الحقيقى والسقوط فى المعاصى والموبقات .

نفى هذه الآية يفتشع الله عن أذهانهم هذا الوهم ويخبرهم أن صلوات
القربى التي بينهم وبين أى من الشخصيات الدينية المقدسة أو شفاعتها أيها
لهم لن تنجيهم من عواقب أعمالهم السيئة . وهذا هو السبب فى أن الله
سبحانه وتعالى ذكرها بما أنعم عليهم ثم اتبع هذا التذكير على الفور
بحو ما بنوه من أفكار وتصورات خاطئة .

أما الحوادث التي سيرد ذكرها فى الآيات التالية فقد كان اليهود
يعرفونها تماما ولذ جاءت الإشارة إليها موجزة لتبين فقط أنهم لم يحمدا
الله فضله ولم يقروا له بجميل صنعه معهم وانهم أستمروا فى ارتكاب المعاصى
وفعل السيئات رغم سيول النعم التي أنزلها عليهم .

وَإِذْ نَجَّيْنَاهُ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ
وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ

آل فرعون : أسرة فرعون نفسه وكذا من كانوا ينتمون الى الطبقة الحاكمة في مصر آنذاك .

وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾

لقد كان ذلك امتحانا يبين ما اذا كانت شخصيتهم من تير خالص أم من معدن خسيس وهل سيعترفون لله بجميل صنعه ويحمدونه على عظيم نعمائه بعد خروجهم الذي تم باعجاز خارق أم لا .

وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿٥٠﴾
وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً

حين دخل بنو إسرائيل سيناء بعد خروجهم من مصر نادى الله موسى عند جبل الطور أربعين ليلة كي يعطيه القوانين والتعاليم والاوامر والوصايا لهداية من كانوا قد تحرروا لتوهم من العبودية والاسترقاق (لمزيد من التفصيل أنظر سفر الخروج أصحاح ٢٤ — ٣١)

وينبغى التنوية الى أن (الطور) المشار اليه في القرآن ليس هو ميناء الطور الجديد الذى يقع على الساحل الشرقى لخليج السويس .

ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾

كانت عبادة العجل تشيع في كنعان ومصر والاقطار المجاورة ولمات يوسف عليه السلام وأنحط بنو إسرائيل واستعبدتهم الاقياط أخذوا هذه العادة السيئة عن ساداتهم وحكامهم وواقعة عبادتهم العجل مذكورة بتفصيل أكثر في سفر الخروج اصحاح ٣٢

ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ
الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾

الفرقان هو ما يفرق به بين الحق والباطل . والمراد به في هذه الآية معرفة الدين وفهمه الذى يمكن المرء من التفريق بين الهدى والضلال والحق والباطل .

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ ۖ يَتَقَوَّمُ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ
فَهَوِّبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَأَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ
إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾

« فاقتلوا أنفسكم » أى اقتلوا الاشرار منكم الذين اتخذوا العجل
الها يعبدونه من دون الله .

وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً

حين صعد موسى جبل الطور اربعين ليلة امره الله ان ياتى بسبعين
من اكابر بنى اسرائيل ورؤسائهم ثم حباه الفرقان واعطاه الالواح وفي نسختها
هدى للناس فقدمها موسى الى رؤساء بنى اسرائيل .

ثم يقول القرآن ان البعض من بنى اسرائيل ممن خبثت طويتهم وفسدت
قلوبهم راحوا في تلك الاثناء يقولون لموسى عليه السلام كيف نؤمن بان الله
قد كلمك وليس عندنا دليل سوى روايتك ؟ فغضب الله عليهم بصلفهم
وعنادهم وانزل عليهم عقابه .

أما التوراة فتقول :

وراوا اله اسرائيل رجليه شبه صنعة من العقيق الازرق الشفاف
وكذات السماء فى النقاوة ولكنه لم يمد يده الى اشراف بنى اسرائيل غراوا
الله واكلوا وشربوا .

الخروج ٢٣ - ١٠ : ١١

وعلى ما فى هذا القول من غرابة نرى ان التوراة ذاتها تخبرنا ان
موسى قال لله « ارنى مجدك » فاجابه (لاتقدر ان ترى وجهى لان الانسان
لايرانى ويعيش)

الخروج ٣٣ - ١٨ : ٢٠

فَأَخَذَتْكُمْ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ نَظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ
لَعَلَّكُمْ تَسْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ

يعنى لقد سيرنا الغمام لحمايتكم من لهيب الشمس في صحراء سيناء حيث لم يكن ثم لكم ملجأ يقيكم قهظة ولفحه . فلقد خرجت مئات الالاف من بنى اسرائيل من مصر الى صحراء سيناء المكشوفة التى لم يكن فيها مكان يلجأون اليه من حر الشمس ولم تكن معهم خيام ولا ما يماثلها ليحموا أنفسهم بها . ولولا أن غطى الله بقدرته صفحة السماء بالغمام لما أحتجبت الشمس ولهلك بنو إسرائيل من قيظها .

وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ

المن والسلوى من الاطعمة الطبيعية التى وجدها بنو إسرائيل اربعين سنة متصلة في مهجرهم . أما المن فكان مثل بذور دهنية تسقط على الأرض وأما السلوى فكان نوعا من الطيور يشبه السمان ومن فضل الله أن كانت هذه الأغذية بكميات ضخمة حتى أن عاش عليها شعب بأكمله أربعين سنة دون أن يواجه قحطا أو مجاعة .

ونشير هنا الى أن أكثر الدول تحضرا في أيامنا هذه يصعب عليها تزويد بعض مئات الملايين من المهاجرين بالمؤن والطعام وما اليه مهما أوتيت من وسائل النقل ومهما وضعت تحت أمرتها كافة سبل المواصلات في العالم أجمع .

(لمزيد من التفاصيل ارجع الى سفر الخروج ١٦ وسفر العدد ١١ — ٧: ٩ ، ٣١ ، ٣٢ وسفر يشوع ٥ : ١٢)

كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ

لم تحدد هذه القرية ولموقعها . ولأن هذه الواقعة حدثت حين كان بنو إسرائيل يتيهون في سيناء وشمال الجزيرة العربية فهناك احتمال كبير أن تكون هذه القرية واحدة من قرى هذه المنطقة آنذاك . كما أن هناك احتمالا أن تكون هي قرية « شطيم » على الضفة الغربية لنهر الأردن والتي تقع في مقابل مدينة جيرتسو . JERCHO ولقد فتح بنو إسرائيل هذه المدينة — حسب قول التوراة — خلال السنوات الأخيرة من حياة موسى عليه السلام ثم افترقوا فيها الفواحش والزنا وغرقوا في لجج المذات الحسية فانزل الله بهم عقابا شديدا في صورة وباء فتك باربعة وعشرين الفا منهم .

(انظر العدد ٢٥ — ١ : ٩)

فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَأَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ

هنا أمر الله بنى إسرائيل ألا يدخلوا هذه المدينة كما يدخل الطفلة المتعطرسون الذين خلت قلوبهم من الرحمة وانما يدخلونها خائعين متواضعين كما يدخل المتقون المؤمنون الذين يخشون ربهم مثلما دخل محمد عليه الصلاة والسلام مكة يوم الفتح .

وكلمة « حطة » لها معنيان الاول : أن أدخلوا هذه القرية طالبين من الله أن يغفر لكم خطاياكم ويحط عنكم سيئاتكم والثاني أن ادخلوها محججين عن النهب والسلب والقتل عافين عن أهلها .

نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَتَرِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا
غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا
يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ * وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ
الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا

لايزال هذا الحجر موجودا الى الان قرب جبل سيناء ويمكن رؤيته وفيه الفتحات الاثنتا عشرة أما عن تفجير اثنتى عشرة عينا لبنى اسرائيل فكان لتجنب نشوب النزاع على الماء بين عشائر اسباطهم الاثنى عشر .

قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعَثُوا فِي الْأَرْضِ
مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا
رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْتَبِ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا
وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبِدُّونَ بِالَّذِي هُوَ أَذْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ

ليس معنى « أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير » انكم لم

تقنعوا بالبن والسلوى الذى وجدتموه دون تعب او نصب وتطلبون الغذاء الذى يستلزم الحصول عليه حرثا وكدحا وعرقا . وانما معناها انكم تتركون الهدف السامى (تطهير قلوبكم واعدادكم لزعامة العالم) الذى لاجله اخرجتم من مصر واجتزتم الصحراء وها انتم تجدون لاثباع غرائزكم وتلهثون وراء شهوة بطونكم ولا تستطيعون نسيان هذه الامور ولو الى حين (للمقارنة انظر سفر العدد ١١ : ٤ - ٩)

أَهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا
بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ

- لقد كانوا يكفرون بآيات الله من وجوه عدة : —
(أ) فقد رفضوا كل تنزيل وجدوه يعارض أفكارهم وأهواءهم .
(ب) وكانوا يعصون أوامر الله صلفا وعنادا وهم يعلمون أنهم يلقون بها وراء ظهورهم .
(ج) وحرفوا معانى الآيات وبدلوها كي توافق أمزجتهم .

وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ الْحَقِّ

ان تاريخ بنى اسرائيل يزخر بأمثلة وفيرة من قتلهم انبياءهم نورد في هذا المقام بعضا منها من واقع التوراة ذاتها :

١ — انقسمت مملكة اسرائيل بعد وفاة سليمان عليه السلام الى مملكتين الاولى مملكة يهوذا وعاصمتها اورشليم والثانية مملكة اسرائيل وحاضرتها « السامرة » ولما كانتا فى حروب وتطاحن فيما بينهما فى اغلب الأحيان ارسل الملك آسا ملك يهوذا رسالة وهدايا نفيسة الى بن حداد ملك سوريا ليوقف فى وجه بعشا ملك اسرائيل الذى كان يهاجم مملكة يهوذا فقام النبى حنانى وعنف الملك آسا لاعتماده على ملك سوريا لا على « الهه الخالد » فغضب عليه آسا وقبض عليه وزج به فى السجن . (اخبار الايام الثانى ١٦ : ١ — ١٠)

٢ — عندما اعترض النبى ايليا على سلوك الاسرائيليين ووبخهم حينما عبدوا « بعلا » ودعاهم ان يعبدوا الله وحده ناصبوه اشد العداة وهدده آخاب ملك السامرة بالقتل بتحريض من زوجته الوثنية . فقر ايليا بحياته خائفا الى جبال سينا . وقال ايليا فى محنته هذه « قد غرت غيرة للرب اله الجنود لأن بنى اسرائيل قد تركوا عهدك ونقضوا ميثاقك وقتلوا

انبياءك بالسيف فبقيت انا وحدي وهم يطلبون نفسي ليأخذوها » (الملوك الاول ١٩ : ١ - ١٠) .

٣ - زج الملك آخاب بنبي آخر يدعى « ميخا » لانه رفع صوته بالحق : فقال ملك اسرائيل خذ ميخا وردة الى آمون رئيس المدينة والى يواس ابن الملك وقل هكذا قال الملك ضعوا هذا فى السجن واطعموه خبز الضيق وماء الضيق حتى آتى بسلام » (الملوك الاول ٢٢ : ٢٦ - ٢٧) .

٤ - عندما شرع اهل يهوذا يعبدون الاوثان علانية ويعملون السوء ويرتكبون كل منكر اعترض على مسلكهم هذا النبي « زكريا » وقال لهم : « هكذا يقول الله لماذا تتعدون وصايا الرب فلا تفلحون لانكم تركتم الرب الرب قد ترككم ففتنوا عليه ورجموه بحجارة بأمر من الملك فى دار بيت الرب » (اخبار الايام الثانى ٢٤ : ٢٠ - ٢١)

٥ - لما حطم الآشوريون مملكة السامرة الاسرائيلية وهددت الدولة اليهودية فى اورشليم بخطر وشيك بدأ النبي « أرميا » يصرخ فى قومه محذرا اياهم من الانحطاط وعواقبه الوخيمة وصاح فيهم مولولا ان صححوا طرقكم واصلحوا اموركم والا لقيتم اسوأ مما لقيتم فى السامرة فما كان من اليهود الا ان ردوا عليه بالسباب والضرب والقوا به فى لسجن واتهموه بالعمالة والخيانة وقالوا له « انك تقع للكلدانيين » وقبضوا عليه وجلدوه ورموه فى زنزانة ضيقة ثم فى جب تحت الارض انزلوه فيه بالحبال كى يفرق فى الوحل ويموت على الفور من شدة الجوع (لتفصيلات اخرى انظر سفر ارميا ١٥ : ١٠ ، ١٨ : ٢٠ - ٢٣ ، ٢٠ : ١ - ١٨ والاصحاحات من ٣٦ الى ٤٠)

٦ - « يا اورشليم يا اورشليم يا قاتلة الانبياء وراجمة المرسلين اليها » (انجيل متى ٢٣ : ٣٧)

٧ - لما اعترض يوحنا المعمدان على المنكرات التى كانت ترتكب علانية فى بلاط هيرودوس ملك يهوذا القى القبض عليه ووضع فى السجن وارسل هيرودوس اليه سيافا ليأتى برأسه نزولا على رغبة زوجته هيروديا التى كانت تحنق على يوحنا فمضى السياف وقطع رأسه فى السجن واتى بها على طبق وقدمها اليها . (انجيل مرقس ٦ : ١٧ - ٢٩)

٨ - وآخر ضحايا كهان اليهود وزعمائهم ومخططاتهم العدوانية يسوع المسيح الذى ندد بهم وبخطاياهم ونصحهم ان يعيشوا حياة صادقة طاهرة . ولا رتكابه هذه « الجريمة » دبوا القبض عليه خداعا ثم قتلوه وذلك بأن رشوا يهوذا احد حواربيه الاثنى عشر وارسلوا الى المسيح حشدا من البشر كثيرا يحملون سيوفا وهراوات ليقبضوا عليه ويقتادوه الى منزل الكاهن الاعظم فشدوا وثاقه واسلموه الى بيلاطس الحاكم الرومانى ولفقوا ضده تهمة كى تحكم السلطات عليه بالموت واشتدت قسوتهم حتى انهم طلبوا الى بيلاطس ان يصلبه ويطلق سراح باراباس - احد القطة

المجرمين — كهدية لهم في العيد وكان بيلاطس قد اعتاد ان يطلق لهم سجيناً واحداً كل عيد (١) .

وفي هذه الآية يشير القرآن الى اخري جزء من تاريخ بنى اسرائيل ويعلم انهم استحقوا لعنة الله وغضبه لانهم تخيروا اكابر مجرميهم ممن لا يرقبون شرعة ولا خلقاً ونصبوهم عليهم وجعلوهم سادتهم ورؤساءهم في حين بعثوا بأطهر رجالهم الى السجون والمشانق .

ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى
وَالصَّبِيَّانَ مِنْ ءَامَنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلْ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ
رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٧﴾

وردت هذه الآية هنا لتبعد عن ذهن اليهود ما توهموه وخدعوا به انفسهم حين ظنوا ان النجاة في الآخرة وقف عليهم وحدهم بقطع النظر عن عقائدهم وأعمالهم . فعلاقتهم الخاصة بالله سوف تدفعهم الى الجنة دون اعتبار لما كانوا به يؤمنون او ما كانوا يعملون . فكفى انهم « اسرائيليون » اما بقية الامم الاخرى فالى الجحيم المقيم .

نفى هذه الآية يفضح الله تعالى توهمهم هذا ويعلم للبشر كافة أن النجاة في الآخرة لا ترتبط بنسب الانستان ولا تعتمد على صلاته بشعب او نبي او امام وانما عمادها ايمان المرء الصحيح وعقائده السليمة القويمة وان حكم الله لن يصدر الا بناء على مدى صلاحية المرء وقيمته الحقيقية ومن هنا عليكم ايها الناس ان تؤمنوا بهدى الله وتتبعوا صراطه المستقيم .

وواضح من سياق الآية أن القرآن لم يذكر أى تفاصيل عن عقيدة النجاة يوم الحساب او مبادئها الاساسية التى على الانسان ان يعتنقها وينفذها لكن هذا كله مذكور في مواضعه الخاصة تفصيلاً .

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ

هذه الواقعة مسطورة في التلمود اذ يقول « وقد رفع الله جبل

(١) ينبغي ان اشير الى ان أستاذنا المودودى يذكر هذه الحادثة كما وردت في الانجيل اما رأى الاسلام في ذلك فسيأتى في موضعه وهذه الحادثة مذكورة في انجيل متى ٢٧ : ١٥ - ٢٥ ، مرقس ١٥ : ١ - ١٥ ، لوقا ٢٣ : ١٢ - ٢٥ ، يوحنا ٨ : ٢٨ - ٢٩ ، المرجع (١)

سِينَاء فَوَقَّعَهُمْ مِثْلَ مَرْكَبٍ كَبِيرٍ ضَخْمٍ وَقَالَ لَهُمْ آمَنُوا بِالتَّوْرَةِ وَالْأَفْسِيكُونَ
هنا قبركم »

ومع ان وصف هذه الواقعة في التوراة يختلف قليلا عن وصف التلمود
لها الا ان التوراة تصور المعنى تصويرا حيا فتقول :

« وكان جبل سيناء كله يدخن من جل ان الرب نزل عليه بالنار وصعد
دخان كدخان الآتون وارتجف كل الجبل جدا (الخروج ١٩ : ١٨)

« كان جميع الشعب يرون الرعود والبروق وصوت البوق والجبل
يدخن ولما رأى الشعب ارتعدوا ووقفوا من بعيد وقالوا لموسى تكلم انت
معنا فنسمع ولا يتكلم معنا الله لئلا نموت »

(الخروج ٢٠ : ١٨ - ١٩)

خُذُوا مَاءَ آيَاتِنَا بِقُوَّةٍ وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تُتَّقُونَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ
ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ

الَّذِينَ أَعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ

أمر الله بنى اسرائيل ان يحفظوا يوم السبت « لانه علامة بينى وبينكم
في أجيالكم من أجل عهد أبدي ستة أيام يصنع عمل وأما اليوم السابع ففيه
سبت عطلة مقدس للرب كل من صنع عملا في يوم السبت يقتل قتلا ،
(انظر الخروج ٣١ : ١٢ - ١٧) . غير ان اليهود لما انحطوا وغاصوا في
اعماق الفوضى انتهكوا لسبت ونقضوا عهد ربهم .

فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِرِينَ ﴿١٥﴾

هذه الواقعة مفصلة في سورة الاعراف آيات ١٦٣ - ١٦٦ (١) وثمة
خلاف حول ما حدث بالضبط فيذهب البعض الى ان المسخ وقع عليهم
بالفعل فصاروا قردة ويذهب البعض الآخر الى انهم من ذلك الحين طفقوا
يتصرفون كما تتصرف القردة دون أن تمسخ أبدانهم فعلا الى هياكل
وابدان قرود .

غير ان الفاظ القرآن تدل على انهم مسخوا فعلا فصاروا قردة .
وانى ارى ان ابدانهم قد مسخت الى اجساد قرود على حين بقيت عقولهم
عقول البشر ليساموا اسوأ العذاب ويذوقوا أشد النكال .

جَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ قَالَ
 مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا
 قَالَ أَعُودُ بِاللَّهِ أَن أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا آدَعُ لَنَا رَبِّكَ يُبَيِّنْ لَنَا
 مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانُ بَيْنَ ذَلِكَ
 فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا آدَعُ لَنَا رَبِّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا
 قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾
 قَالُوا آدَعُ لَنَا رَبِّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشْبَهُ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ
 اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي
 الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِئْءَ فِيهَا قَالُوا أَلَسْنَا جِئْتُ بِالْحَقِّ فَذَحِّبُوهَا وَمَا كَادُوا
 يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾

حين اخذ اليهود يسيرون نحو الايمان بالله وحده ويذرون عبادة الابطار
 التي اخذوها عن جيرانهم امرهم الله ان يذبحوا بقرة فكان هذا اختبارا مرا
 قاسيا لايمانهم فان كانوا آمنوا بالله حقا لزم عليهم ان يحطموا اوثان عبادتهم
 القديمة بأيديهم .

الا ان اجتياز هذا الامتحان كان عسيرا عليهم فحاولوا التملص
 والمراوغة ليتفادوا ذبح البقرة التي كانوا يعبدونها فيما مضى اذ لم يكن
 ايمانهم بالله الواحد آنذاك قد بلغ من قلوبهم مبلغا بعيدا . فما كان منهم الا
 ان راحوا يستفسرون عن تفاصيل كثيرة ليجدوا لهم ثغرة ينفذون منها
 ويروغون فكانت الحيلة تضيق عليهم كلما ازداد تساؤلهم واستفسارهم
 حتى امروا في النهاية بذبح تلك البقرة الصفراء ذات اللون الفاقع والوصاف
 كذا وكذا والتي كانت مختارة للعبادة وقتذاك .

والتوراة تذكر لنا هذه الحادثة لكنها لا تحكى لنا كيف حاول اليهود
 التملص والمراوغة وتحاشى ذبح البقرة عن طريق اثاره الاسئلة التافهة غير
 الضرورية (انظر سفر العدد ١٩ : ١ - ١٠) .

وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجُ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾
 فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ
 تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾

تعبير القرآن هنا يوضح ان القتل عادت اليه الحياة برهة صغيرة ذكر فيها اسم قاتله . ومع هذا ثمة بعض الغموض حول ما اتبع للتعرف على الجاني وهو ضرب جثة القتل بقطعة من البقرة المذبوحة . وقد ورد في سفر التثنية ٢١ : ١ - ٩ ما يماثل هذا مما يؤكد ما ذهب اليه قدامى المفسرين من انهم ضربوا جثة القتل بقطعة من لحم البقرة لتعادت اليها الحياة . وكان ذلك آية من الله كما انه عني ضمننا ان معبودهم (البقرة) لا حول له ولا طول حتى ان ذبحه لم يلحق بهم ضرا بل على العكس كانت فيه قائدة كبرى (هي الكشف عن القاتل) .

ثُمَّ قُتِلَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنْ
 مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَشَقُّ فَيَخْرُجُ مِنْهُ
 الْمَاءُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ *

أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ

المخاطبون في الآية « افطمعون ان يؤمنوا لكم » هم المؤمنون الجدد في يثرب والذين لم يكن قد تصرم على اعتناقهم الاسلام غير وقت قليل . وكانوا صدقوا الرسول وآمنوا به لانهم سمعوا من جيرانهم اليهود احاديث عن الوحي والنبوة والملائكة والشرعية ونحوه وعرفوا منهم انهم يرتقبون ظهور نبي جديد سوف يظهر أتباعه على العالم كله . وهذا ما دفع أهل المدينة الى تصديق محمد عليه الصلاة والسلام والدخول في دين الله أفواجا

ولقد كان أهل المدينة ينتظرون من اليهود - وهم أهل كتاب وكانوا يتحدثون بالسنتهم عن مبعث نبي جديد - أن يكونوا أول من يؤمن بمحمد عليه الصلاة والسلام ويمد له يد العون ويؤازره ولما لم يفعلوا ذلك مشى أهل يثرب اليهم ودعوههم الى الاسلام لكنهم اخفقوا في اقناعهم وحطهم على ذلك . فما كان من المنافقين والمعارضين الا ان راوها فرصة واتهموا بالتخاذل

رغى اليهود دليلا ضد الاسلام وقالوا لو كان محمد (عليه الصلاة والسلام)
رسولا من الله حقا لما انكره هؤلاء المتدينون المتعلمون (يعنى اليهود) .

ولدفع الاذى الذى نجم عن هذه المغالطة اورد القرآن تاريخهم
السابق ليوضح للناس ان لا خير يرجى من مثل هؤلاء . فكان ذلك منه
تحذيرا للمسلمين الاوائل من ان يأملوا فى ترحيب يهود مدينتهم جميعا
بظهور محمد عليه الصلاة والسلام على انه النبى الذى جاءت النبوءات
عنه فى كتبهم التى فيها يدرسون . ومن ان يتوقعوا هذا من قوم كان تاريخهم
كذا وكذا .

ولقد كان ذلك ضروريا لأن المؤمنين الجدد كانوا عرضة للتراخي
وفتور الهمة بسبب رضى اليهود لدعوة الاسلام . اما اليهود فكانوا قد
غثوا وقتئذ على انحطاط ووحشية وقسوة لدرجة ان تلك الآيات التى
صهرت أغلظ القلوب - قلوب المشركين الوثنيين الذين اعتادوا وأد بناتهم
وقتلن أحياء - لم تؤثر فى قلوبهم أدنى تأثير بل انهم سخروا منها واستهزأوا
بها . لذا أخبر الله المسلمين المتحمسين وقتذاك ان عليهم ان يفهموا وضع
اليهود وهم الذين أفسدوا الحقيقة لتناسب أهواءهم ثم حرقوا الدين وجعلوه
ميدانا تسقط فيه انعكاسات أحلامهم وأمانيتهم .. فكان من الخطأ أن يأمل
المسلمون ولو أدنى أمل فى اذعان مثل هؤلاء للحق بمجرد تقديمه لهم
وعرضه عليهم .

وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرِفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ

وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾

« الفريق » المعنى هنا هم علماء اليهود وأخبارهم وأئمتهم . و « كلام
الله » يعنى التوراة والكتب الأخرى التى تلقوها عن انبيائهم . فعلماء
اليهود لم يكتفوا بتأويل وتحريف وفساد تفسير الكتب المقدسة التى أرسلت
اليهم ولم يقنعوا بقراءة ما يريدون قراءته فيها وإنما امتدت أيديهم الى النص
الأصلى والفاظه فعبثت بها وعملت فيها بالتغيير والتبديل .

وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَضُفُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا

اتَّخَذُوا مِنْهُمْ مَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾

كانوا اذا التقوا همس بعضهم لبعض وحذروا بعضهم بعضا ان
يفصحوا للمسلمين عما هو مسطور فى كتابهم عن النبى عليه الصلاة والسلام
ونبه كل منهم الآخر الى خطورة تعريف المسلمين بآيات التوراة التى يخشون

ان نفصح حقيقة موقفهم ، بل انهم كانوا يخافون ان يستخدم المسلمون هذه الحجج ضدهم عند الله يوم الدين . وهذا دليل على تصورهم لعلم الله . فقد كانوا يظنون ان لو نجحوا في اخفاء الحقيقة في هذه الدنيا فلن يقام عليهم دليل في الآخرة .

وهذا هو السبب في ان الله وجه سؤالاً تقريرياً في شكل آية اعتراضية تلت ذلك مباشرة فقال تعالى : « **أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ** » .

وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾

يشير القرآن الى ما كان عليه عامة اليهود من جهل تام بتعاليم كتابهم فما كانوا يعرفون أساسيات دينهم ولا قواعده الاخلاقية او الاسس التي رسمها للحياة اليومية كذلك كانوا لا يعرفون اى السبل تؤدي الى النجاح والفلاح وايها يقود الى الخسران والضلال . ومن أسف انهم كونوا — في جهلهم هذا — أفكارهم وتصوراتهم عن الدين وعاشوا حياتهم على مزاعم زائفة وآمال مكدوبة وامانى مغلوطة .

فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾

هذه الآية تشير الى ما كان يفعله علماء اليهود فهم لم يكتفوا بتحريف كتابهم المقدس ليلائم امزجتهم واهواءهم بل خلطوا متنه الاصلى بتفاسيرهم الخاصة وتاريخهم القومى وخرافاتهم وفلسفاتهم وقوانينهم ونظرياتهم التي صاغوها بأنفسهم ثم قدموا هذا المزيج كله في الشكل الحالى للكتاب المقدس على أنه من عند الله بحيث ان كل قصة تاريخية وكل أسطورة وكل تفسير وكل عقيدة مبتدعة وكل قانون محلى دون في الكتاب المقدس وحشر فيه حشرا اصبح عندهم من صلب كلام الله فرض على كل يهودى ان يؤمن به كذلك والا رموه بالردة او الهرطقة والخروج .

وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً ۖ

كانوا يؤمنون بانهم لن يدخلوا النار رغم فساد عقائدهم وسوء

اعمالهم لا شيء سوى أنهم « يهود » وكانوا يخدعون انفسهم بانهم لن يعاقبوا يوم القيامة وان عوقبوا فلا يام قليلة ثم يبعث الله بهم بعدها الى الجنة .

قُلْ أَخَذْتُ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۖ أَمْ تَقُولُونَ
عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٥﴾ يَا مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ
بِهَا خُطْبَتُهُ ۖ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٦﴾
وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ
ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٧﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ
لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ
وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ
وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٨٨﴾
وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ
أَنفُسَكُمْ مِنْ دِينِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٩﴾ ثُمَّ أَنتُمْ
هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِنْ دِينِهِمْ
تُظَاهِرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْرَىٰ
تَفْدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجَهُمْ ۖ فَتَوَمَّنُونَ بِبَعْضِ
الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضِ

هنا يمكننا أن نروى بعضا من فعال القبائل اليهودية التي كانت تقطن اطراف المدينة كشاهد حتى على ما جاء في الآية الأخيرة :

كان اليهود قبل هجرة المصطفى عليه الصلاة والسلام الى المدينة تربطهم بغيرانهم من القبائل العربية (الاوس والخزرج) أحلاف ومعاهدات فلما اقتتلت هذه القبائل نزل اليهود المحالفون لكل منها ميدان الحرب ضد بعضهم في حين تنهاهم تعاليم التوراة عن ذلك فانتهكوها وهم يعلمون . فلما سقط بعضهم في يد بغض أسارى أطلق كلا الطرفين سراح ما عنده لقاء فدية . وحينما سئلوا عن هذه التجارة غير الآدمية في اخوتهم عللوا ذلك بأن كتابهم اجاز لهم ذلك .

والعجيب انهم نسوا هذا الكتاب حين اقتتلوا ثم اتخذوا تعاليمه مبررا لاستلكتهم الآخر . فقبلوا من الكتاب ما أباح لهم اخذ الفدية عن اسرى الحرب وردوا منه ما يحرم عليهم قتال اخوتهم في الدين .

فَأَجَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُّ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ

قد تعنى « روح القدس » الوحي والتنزيل أو جبريل عليه السلام الذي كان يهبط على الانبياء أو روح عيسى عليه السلام التي خلقها الله طاهرة زكية .

و « البينات » ترمز الى معجزاته وصفاته الشخصية العجيبة وميلاده الاعجازى وكلها كانت في عين كل منصف محب للحقيقة دليلا واضحا على انه نبي من عند الله .

أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا أَقُلُوبُنَا غُلْفٌ

عنوا بذلك اننا على ايمان قوى متين يحميننا من الوقوع تحت نفوذ
اى شىء يتعارض معه او يناقضه .

وأمثال هؤلاء هكذا يخدعون انفسهم — لانهم اسارى الاهواء
والاغراض — فيؤمنون بأن هذا الموقف العنيد المتغطرس الذى يتشبثون به
علامة ايمانهم المتين الحصين وبالتالي خيرهم وصلاحهم . والحق ان ليس
ثم رذيلة اكبر من تشبث المرء بعقائده الموروثة وحماسه لأفكاره المتواترة مهما
كانت هناك حجج دامغة وادلة مفحمة ناطقة بفسادها وتحللها .

بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾
وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ
وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْحِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ
مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۖ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾

كان اليهود — قبل بعثة محمد عليه الصلاة والسلام — ينتظرون في
لهفة ظهور النبى الذى تنبأ به كتابهم . وكانوا يدعون في صلواتهم « ليات
(النبى) سريعا فننتصر على الكافرين ونستعيد مجدنا السليب » . وقد
شهد اهل يثرب انهم كانوا يعيشون في هذا التوقع والانتظار حتى اصبح
قولهم « ليستبد بنا الوثنيون كيف شاءوا فسنحاسبهم حين يأتى النبى »
قولا مشهورا . وعلى هذا حين علم اهل المدينة بأمر محمد عليه الصلاة
والسلام تذكروا كل ذلك وتوقعوا ان يكون هو النبى الذى سمعوا عنه من
اليهود فسارعوا الى الايمان به وتصديقه كى لا يكون لليهود قصب السبق
في هذا . وكان ذلك سبب ان استعصى على اذهان اهل يثرب فهم موقف
اليهود الذين تحولوا — وهم الذين كانوا ينتظرونه في لهفة وشوق — الى
اشد معارضييه بدلا من ان يكونوا اول مؤازريه .

اما عن حقيقة انهم عرفوا النبى عليه الصلاة والسلام فقد وردت في
ذلك ادلة كثيرة واوثق دليل قول السيدة صفية احدى زوجات النبى وابنة
حبي بن اخطب وعمها ابو ياسر بن اخطب وكانا من علماء اليهود اذ تقول :

« لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ونزل قباء غدا عليه
ابى حبي بن اخطب وعمى ابو ياسر بن اخطب فلم يرجعا حتى كان مع غروب
الشمس فأثيا كالين كسلتين ساقطين يمشيان الهوينسا فهششت اليهما
فوالله ما التفت الى واحد منهما مع ما بهما من الغم وسمعت عمى ابا
ياسر وهو يقول لابى :

— اهو هو ؟

— اتعرفه وثبتته ؟

— فما في نفسك منه ؟

— نعم والله .

— نعم

— عداوته والله ما بقيت .

بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ

قد تعنى هذه الآية ايضا ما اتعس وابأس ما باعوا من اجله حياتهم الآتية وخلصهم في الآخرة .

لقد جعلهم تكبرهم وتعصبهم العنصرى ناغرين من الحق كارهين له لجرد انه جاءهم على يد محمد عليه الصلاة والسلام وهو من ولد اسماعيل لا من نسل اسحق اذ هم كانوا يودون ان يكون هذا النبي من صلبهم وعنصرهم . فلما جاءهم من عرق هو في نظرهم اقل رتبة من عنصرهم رفضوا تصديقه . ومعنى هذا ان الله جل شأنه كان عليه ان يستشيرهم قبل ان يصطفى رسوله . اما وقد اختار بنفسه رسولا فقد اخطأ .

أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ

فَبَاءَ وَيَغْضَبُ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ وَإِذَا قِيلَ

لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ

وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقُولُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ

مُؤْمِنِينَ * وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ

وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا

مَاءَ آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ

بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ قُلْ إِنْ

كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ

إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ

الآية الأخيرة جاءت من الله رداً مفحماً لهم ومعناها ان لو كنتم مؤمنين
بالآخرة حقاً فلا تخشوا الموت بل فضلوه على هذه الحياة الدنيا . ومع هذا
فقد تعلقوا — ويتعلقون — بالدنيا وامورها اكثر من الآخرة حتى ان مجرد
التفكير في الموت والقيامة والحساب يفرعهم ويلقى في قلوبهم رعباً وهلعاً .

وَلَنْ يَتَمَنَّوهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ
أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ

كلمة « حياة » المستخدمة هنا تنكيرا تعنى انهم يعيشون الحياة دون
اكثرات بنوعها . فلا يعينهم ان كانت تقوم على الفضل والشرف ام على
الخزي والعار .

وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يَعْمُرَ الْآلُفَ سَنَةً وَمَا هُوَ بِمُزَحِّزِهِ مِنْ
الْعَذَابِ أَنْ يَعْمُرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلْجَبْرِيلِ

واليهود لم يتناولوا بالسباب على محمد صلى الله عليه وسلم ومن
تبعه من المؤمنين فحسب بل امتدت السنتهم الى جبريل عليه السلام
وهو رسول الله المختار فقالوا انه عدو لنا وانه ليس ملك السلام والبركة
بل ملك المصائب والنقم .

إِنَّا نَزَّلْنَاهُ وَنَزَّلْنَاهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ

ولان جبريل أنزل القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم بأمر الله
فهم بسبهم اياه يسبون الله عز وجل .

مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ

يعنى ان عداوتكم ايها اليهود لجبريل عليه السلام وسبكم اياه بقبيح
الالفاظ ليس وراءه سبب آخر غير انه نزل بالقرآن . وحيث ان هذا

القرآن يؤكد تعاليم التوراة وما جاء فيها اذن فانتم بالتالى تسبون كتابكم
المقدس .

وهدى وبشرى للمؤمنين (٩٧)

فى الآيات السابقة حذر الله اليهود عواقب موقفهم من القرآن
ورسالة محمد عليه الصلاة والسلام . وفى هذا الجزء من الآية يطلب
الله اليهود أن يدرسوا الأمر من وجهة صحيحة . وبما أن القرآن يرسم
طريق الهداية القوية ويبشر المؤمنين بالفوز والنجاح فما معارضته
ورفضه اذن سوى حماقة كبرى . وعلى هذا فهم لا يضررون غير انفسهم
بحرمانها من الفوز الحقيقى الذى يستتبع الايمان به .

مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ
لِّلْكَافِرِينَ (٩٨) وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا
الْفَاسِقُونَ (٩٩) أَوْ كَلِمَاتٍ عَلَهِدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ
لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٠) وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ
فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا
يَعْلَمُونَ (١٠١) وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سَلِيمٍ

الشياطين جمع شيطان ويطلق على الانس والجن واللفظ هنا يشير
الى كلا المعنيين . فحين تردى اليهود فى قيعان التنزل ماديا وخلقيا وفقدوا
كل شميلة نتيجة استعبادهم وأسرهم وجهلهم وفقرهم وتيههم وتشردهم
تولوا الى السحر والشعوذة والعرافة والدجل وغيره وراحوا يخادعون
انفسهم بأنهم سيستطيعون التنبؤ بمضائهم ومعرفة نهاياتهم دون القيام
بأى عمل . ومن هنا بدأت الجن تضلهم وتغويهم فنسبوا السحر والطلسمات
الى سيدنا سليمان عليه السلام وزعموا أنه كان مدينا بملكه العريض وقواه
الخارقة للسحر والشعوذة التى كانوا يعلمونها للناس فما كان من اليهود
الا أن أسلموا انفسهم لهم وفرحوا بهذا وكأنهم نالوا صيدا سمينا أو وقعوا
على مغنم كبير فشرع أحبارهم يزاولون السحر وفنونه مما أسفر عن اهلهم
التوراة وصموا آذانهم عن كانوا يدعونهم لهدى الله .

وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا

هنا ينفي القرآن التهمة التي الصقوها بسليمان عليه السلام من اشتغال بالسحر وما اليه كما يبرئه من التهم الأخرى التي نسبت اليه في التوراة .

تقول التوراة « وأحب سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة فأملت نساؤه قلبه وراء آلهة أخرى وعمل سليمان الشر في عيني الرب ولم يتبع الرب تماماً » (الملوك الأول ١١)

فالقرآن ينفي عنه كل هاتيك التهم والتفويقات وكأنه يقول ان سليمان لم يكن كافرا أبداً لأن الكافر وحده هو الذي يعشق النسوة ويعبد الأصنام والآلهة الأخرى ويرتكب ما هو عند الله فاحشة ومنكر .

يَعْلَمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ

الواقعة التي تشير اليها هذه الآية فسرت تفاسير مختلفة غير أن ما أعظمه أنا منها أن بنى إسرائيل حين كانوا في بابل يبدؤ أن الله بعث اليهم بملكين في صورة أناسي لاختبارهم ويجوز أن يكون هذان الملكان أقاما معهما — مثلا — لتعليم الناس فنون السحر الا انهما كانا يحذران كل من جاءهما ليتعلم السحر ويقولان له ان ما نفعله ليس الا فتنة نبلوكم بها فلا تدمر أولادك وأخراك باستمدادك العيون منه . ورغم هذا التحذير أقبل اليهود عليهما زمرا ابتغاء السحر ومطلباً للطلاسم والرقى والتمائم وغير ذلك من ألوان الخرافات .

وليس من استغراب في قدوم ملائكة في سميت البشر كمندوبين من عند الله لأنهم مزودون بقوى خارقة غير عادية . أما لماذا كان الملكان يعلمان الناس السحر فسبيلنا الى فهمه التمثيل والاستشهاد :

ان مثل هذا كمثل « البوليس » الذي يتخذ عدته ليعطى الموظفين المرتشين أوراق عملة مميزة لديه كي يقبض عليهم متلبسين . وكما لا يوجد في مسلك « البوليس » هذا خطأ أو استغراب كذلك ليس من استغراب أو خطأ فيما فعلته الملائكة لاختبار اليهود المنحطين المنحرفين .

فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ

كان أكثر ما ابتغاه اليهود من السحر حصولهم على تميمة أو سحر يساعد على بث الفرقة والنفور بين الزوجة ورجلها ليسهل عليهم غوايتها فيما بعد . وهذا يوضح لنا مدى التحلل والفساد الذي وصلت إليه أخلاقهم فقد كانت متعتهم القصوى أن يعشقوا زوجات الآخرين تمهيدا لفصلهن عن أزواجهن .

والحق أن هذا المسلك كان أسوأ أشكال الفساد والانحلال الخلقي لأنه يضرب بفأسه في جذور الحياة الأسرية التي تشكل أساس المجتمع فإن صحت العلاقة بين المرء وزوجه أضحت المجتمع سليما متينا وإن فسدت فسد المجتمع وتفسخ .

يقول الحديث النبوي :

« ان ابليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة يجيء أحدهم فيقول فبعتكم كذا وكذا فيقول ما صنعت شيئا ثم يجيء أحدهم فيقول ما تركتكم حتى فرقت بينه وبين امراته فيدنيه منه ويقول نعم أنت » .

وفي نور هذا الحديث نستطيع أن نفهم لماذا أمر الملائكة الذين أرسلوا الى بنى اسرائيل لامتحانهم أن يقدموا لهم « السحر » الذي يفرق بين المرء وزوجه . والحقيقة أن هذا المسلك كان المعيار الذي يقيس انحطاط أخلاقهم ويزنها وزنا عادلا .

وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرُّوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا

في الجزء التالي أمر الله المؤمنين أن يأخذوا حذرهم من كافة ألوان الشرور التي كان اليهود يثيرونها ضد الإسلام والجماعة الإسلامية وإلى

جانب هذا أزيلت الريب والمظان التي كانوا ينثرونها في قلوب المسلمين وعقولهم وعولجت المشاكل الخاصة التي ظهرت في ساحة النقاش بين المسلمين واليهود .

ونشير هنا الى أن اليهود — حين قدم الرسول عليه الصلاة والسلام الى المدينة وبدأ ينشر الإسلام فيما حولها — حاولوا توريث المسلمين في ألوان مختلفة من الجدل والنقاش اللاهوتي وسعوا لنقل هذا المرض المستشري في عقولهم ونفوسهم الى المسلمين الأوائل المخلصين . ولذا كانوا يحضرون مجالس الرسول وينزعون الى أخبث الاحاديث وأمكرها مما أثبت فساد عقليتهم .

لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا

كان اليهود اذا حضروا للقاء الرسول عليه الصلاة والسلام اظهروا له احتراماً جما بينما اجتهدوا في سرائرهم لاهنته والاستخفاف به فكانوا يستخدمون ألفاظاً أو يلوون نطق كلمات معينة فتصبح شتائم واهانات . فكانوا اذا أرادوا مثلاً لفت انتباهه قالوا له « راعنا » وهي كلمة تعني انتبه اليها كما أن هناك كلمة تماثلها في النطق في اللغة العبرية تعني « أسمع أم أنت أصم » كذلك فهي تعني في العربية الاحمق الجاهل (١) وتعني في العامية « ان سمعت لنا فسنسمع لك » ثم بحركة خفيفة في النطق تصبح « راعينا » (أي من يدعى لنا الغنم) .

لذا أمر المسلمون بدل استخدام هذا اللفظ — أن يقولوا « انظرونا » وهي كلمة تؤدي نفس الغرض دون أن يكون لها أي معنى آخر . كذلك نصحوا بأن ينصتوا حين استمعهم للرسول عليه الصلاة والسلام كي لا يلزمهم لفت انتباهه .

وَاللَّكَفْرِينَ عَذَابُ الْيَمِّ ﴿١٠٤﴾ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ

أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ

رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ

الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ * مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا

أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾

(١) الراعن والارعن من الرعونة — المترجم .

الآية الأخيرة رد من الله على الاعتراض الذي أثاره اليهود لبيثوا الشك في عقول المسلمين اذ قالوا ان القرآن يؤكد أن التوراة كتاب من عند الله وأن الله أنزل القرآن أيضا فلو كان هذا صحيحا فكيف يأمر بأشياء مختلفة مما جاء في الكتب السابقة من قبل ؟ وكيف يوصي نفس الإله وصايا مختلفة ويصدر تعليمات متباينة في أوقات مختلفة ؟ كذلك قالوا ان القرآن يدعى أن اليهود والنصارى نسوا جزءا من التعاليم والآيات التي بعثت اليهم فكيف يمكن أن تمحي تعاليم الله وآياته من الذاكرة والأذهان ؟.

والواضح تماما أن اليهود ما أثاروا هذه الاعتراضات بغية الوصول الى الحقيقة بل لاثارة الشبهات وخلق الارتباكات . فجاء رد الله على اعتراضاتهم بقوله اننى أنا الحاكم المطلق لا شيء يحد قواى وفى وسعنى أن ألغى أى أمر أصدرته أو أسمح بنسيانه لكننى آتى ببديل عنه يؤدي نفس الغرض على نحو أفضل أو على الأقل على نحو مماثل .

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٧٧﴾ أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ

كان مرض الجدل والسفسطة مرضا مزمنيا في نفوس اليهود وقد راحوا يوجهون الى المسلمين أسئلة تافهة ويحثونهم على الاستفسار عنها من رسول الله عليه الصلاة والسلام . ولما كان اليهود لا يريدون بهذا الا بث الفتنة والشقاق أمر الله المسلمين ألا ينحوا نحوهم وأمرهم الرسول ألا يشغلوا فراغهم بخلق المفارقات واقتفاء الجدل والقليل والقال لان هذا السبيل قضى على الامم التي خلت من قبل فقال في حديثه :

« ذروني وما تركتكم فانما اهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على انبيائهم فما أمرتكم به فخذوه وما نهيتكم عنه فانتهاوا »

وَمَنْ يَتَّبِدِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٧٨﴾ وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧٩﴾

يعنى أن عداوتهم وخصومتهم وحقهم وحسدكم يجب ألا يجعلكم
تفقدون صوابكم وتوازنكم فلا تضيعوا أوقاتكم الثمينة وجلالكم ووقاركم في
نقاشات ومجادلات معهم بل انتظروا أمر الله وحكمه في صبر وتماسك
واصرهوا أوقاتكم في فعل الخير وذكر الله فذلك ما فيه نفعكم عند الله .

وَأَقِمْ الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ
عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ
كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ

يعنى أن هذه ليست إلا أمانيتهم لكنهم يؤكدونها كما لو كانت حقائق
ستقع فعلا .

قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ
وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَى
عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ
يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ

المقصود «بالذين لا يعلمون» هنا مشركو الجزيرة الوثنيون الذين
كانوا لا يعلمون عن التوراة شيئا .

فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾
وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُ وَسَعَى
فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ

يعنى أن المساجد وأماكن العبادة ينبغي ألا تكون في أيدي الظالمين
الباغين أمثال أولئك بل في يد المؤمنين المتقين كي يحذر الاشرار ارتكاب
الأذى والسوء فيها لئلا ينالهم العقاب والجزاء .

كذلك تعنى الآية أن كفار مكة كانوا يمنعون اخوتهم الذين اعتنقوا
الاسلام من دخول الكعبة دون وجه حق في حين أن الكفار أنفسهم كانوا
يسمون الكعبة « بيت الله » .

لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ
وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَمُوجُهُ اللَّهِ

يعنى أن الله تعالى ليس محصورا في ناحية بعينها شرقا أو غربا بل هو
مالك الاتجاهات كلها وصاحب الامكنة جميعا لا يحده مكان أو اتجاه ، وأن
حددت جهة خاصة للعبادة فليس معنى هذا أن الله أخذ فيها مقاما ومسكنا
ولهذا ليس من حاجة بنا الى الدخول في مناقشات عن سبب تحديد مكان
خاص لاداء العبادة دون سواه أو عن سبب تحولكم من الجهة التى كنتم
تتعبدون تجاهها من قبل الى ناحية أخرى تغايرها

إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾

تعالى الله أن يحده مكان أو زمان أو يحصره أين ولا كيف وحاشاه أن
يكون — كما زعموا — ذا أفق ضيق وبصرة قصيرة أو يلحق به فقر وعوز
وهو الغنى بلا مثال . بل العكس صحيح فسبحانه واسع لا حدود للكه
ومملكته ولا نهاية لبصيرته وحكمته وجوده وفضله وعليم يعلم من يذكره من
عباده ومتى وأين وبأى نية يذكره .

وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ
قَسْنُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ
لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَنَزَّلُ عَلَيْنَا آيَةً

كان مطلبهم أحد أمرين أما أن يأتى الله أمامهم فيرويه رأى العين وأما

أن يريهم آية كبرى تثبت أن محمداً (عليه الصلاة والسلام) رسول من الله
حقاً وأن ما يتلوه وحى من الله فعلاً .

كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَّهَتْ قُلُوبُهُمْ

يعنى أن مطالب واعتراضات من يعارضون الحق اليوم ليست جديدة
بل هى نفس الاعتراضات والمطالب التى اوردها اولئك الذين حادوا عن
جادة الصواب من قبل لأن أهل الشر فى كل العصور يفكرون بمنهج متماثل
ويتبعون فى مناقشاتهم أسلوباً واحداً بعينه .

قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾

أما مطلبهم الأول — رؤية الله بأعينهم ليكلمهم بنفسه — فكان سقيماً
لا يقبله العقل التسليم أو المنطق القويم ومن ثم لم يلزم له رد من الله . وأما
المطلب الثانى — أن يريهم الله آية من عنده — فإرد الله عليه هنا بأنه تعالى
قد بين آيات جليات عديدة لا يراها من لا يريدون التسليم والإيمان .

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا

أن شخصية محمد عليه الصلاة والسلام نفسها هى أبرز وأجلى آية
— بصرف النظر عن الآيات الأخريات — فلقد كانوا يعرفون كل صغيرة وكبيرة
عن حياته الشريفة قبل أن تأتية النبوة ، وكانوا عارفين ملمين بظروف بيئته
وقومه ، وكيف نشأ وتربى ، وكيف أمضى من عمره أربعين حولاً قبل أن
يبعث رسولا ، وكانوا على يقين من أن كل هذا ليس فيه ما يؤدى الى تلك
الاعمال الخارقة المدهشة التى قام بها ومن ثم فلا بد من كونه رسولا من الله
حقاً . ولعمري الحق أن ذلك لهو أوضح آية لا يلزم الاتيان بعدها بآية أخرى .

وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أُصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى
حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ

يعنى أن السبب في عدم رضا هؤلاء عنك ليس هو شغلهم وحبهم
واخلاصهم للحقيقة التي أخفت في إيصالها لهم على خير وجه كما يزعمون
وإنما مرد ذلك إلى أنك قد بينت الحقيقة لهم تمام التبيين ، ولم ترض باختيار
سبيل النفاق والرياء ، وتمسكت بعبادة الله بدل عبادة النفس ، ولم تجعل
الدين ومبادئه مسارا لرغبات النفس ونزعات الهوى وهو السبيل التي
اعتادوها وسلكوها فدعهم وشأنهم فمن المستحيل أن يرضوا عنك طالما أنك
لن تفهم الدين بفهمهم ولن تجعله ذريعة لعبادة وتاليه الذات وتفعل كل ما
يفعلون .

قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ فُلُوكَ فَمَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ
حَقَّ تِلَاوَةٍ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۚ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ ۚ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٢١﴾

هنا يشير الله إلى المتقين الصادقين من أهل الكتاب الذين يقرأون
كتاب الله بأمانة وصدق وإخلاص ويؤمنون به لا لشيء إلا لأنهم يرونه (الحق)
حسب ما قال عنه الله .

يَبْنِي إِسْرَءِيلَ

من هنا يبدأ خطاب آخر موجه إلى اليهود . ولكي نفهمه علينا أن
نضع في اعتبارنا عدة مسائل هي :

١ - كان إبراهيم عليه السلام أول نبي - بعد نوح - اختاره الله
لينشر رسالة الإسلام العالمية الشاملة فبدأ عمله في وطنه العراق ودعا
الناس للإسلام (الإذعان والتسليم لله) ثم زار سوريا وفلسطين ومصر
والجزيرة العربية في إطار دعوته ومهمته . ثم اختار له نوابا في مواطن عدة
فوكل إلى لوط ابن أخيه أمرا وراء الأردن وإلى اسحق ابنه أمرا سوريا
وفلسطين وإلى اسماعيل ابنه الأكبر أمرا الجزيرة العربية (عليهم أجمعين
السلام) ثم أمره الله ببناء بيت للعبادة في مكة هو الكعبة وأوصاه أن يتخذ
كزا لمهمته ودعوته .

٢ - تفرعت من ابني إبراهيم عليه السلام أمتان الأولى بنو اسماعيل
وهم سلاسل اسماعيل بن إبراهيم الذي اتخذ الجزيرة العربية له مستقرا ،

وكانت قريش وقبائل عربية أخرى من أصله أما القبائل العربية التي لم تكن من نسله فقد ادعت نسبها الى بنى اسرائيل لانهم كانوا متأثرين برسالته في كثير أو قليل .

والثانية بنو اسرائيل وهم انسال يعقوب بن اسحق ومنهم ظهر يوسف وموسى وداود وسليمان ويحيى وعيسى وغيرهم كثير (عليهم اجمعين السلام) وقد سموا بنى اسرائيل بعد أن سمى يعقوب باسرائيل . ودخل فيهم من اعتنقوا دينهم من الأقوام الآخرين . ولقد جاء كل أنبياء بنى اسرائيل بما فيهم عيسى عليه السلام بالاسلام أى الخضوع والتسليم لله الا أن بنى اسرائيل حين تدلوا الى الانحطاط وفقدوا دينهم (الاسلام) ابتدعوا اليهودية كما ابتدع الآخرون المسيحية .

٣ - عين الله ابراهيم ليدعو العالم لأن يسلم لله وليقوم الناس وفق الهداية الالهية وقد أسلم هو نفسه لله وعمل وفق ما تلقاه من المعرفة الالهية وبذل ما في وسعه لتبليغ هذه المعرفة وحض الناس على الاسلام لحاكم العالم ولذا فقد جعله الله امام العالم ثم نقلت هذه الزعامة من بعد بكل مسئولياتها ومقتضياتها الى بنى اسرائيل أنسال اسحق ويعقوب وكانت هذه هى النعمة والتفضيل الخاص الذى طالما سئل بنو اسرائيل أن يذكروه . وعلى هذا فقد أصبح الهيكل فى بيت المقدس أثناء عهد سليمان قبله من يعبدون الله ما بقى بنو اسرائيل زعماء هذه الرسالة .

٤ - وجه الله سبحانه وتعالى فى خطاب سابق (من الآية ٤٠ الى الآية ١٢١) اتهمه لبنى اسرائيل بارتكابهم جرائم الاهمال واللامبالاة والتهاون أثناء زعامتهم ولهذا يشير القرآن الى حالتهم الاخلاقية ويخبرهم صراحة انكم قد أثبتتم عدم جدارتكم بما أسبغ عليكم من فضل ونعمة فلم تكفوا باهمال القيام بواجبات الزعامة ومسئولياتها بل طرحتم هداية الله خارج حياتكم وانتهى الأمر بكم الى أن أصبحتم الآن أمة لا تصلح لتولى الزعامة على الاطلاق .

٥ - أخبرهم القرآن صراحة أن الزعامة ليست امتيازاً يمنح لنسل ابراهيم دائماً وأبداً لأن أحدا لا يستطيع الادعاء بأنها مقصورة عليه وحده لمجرد صدفه الميلاد إنما هى معطاة لمن أسلموا لله فحسب واتبعوا هداية مثل ابراهيم عليه السلام ولأن بنى اسرائيل قد انحرفوا عن هذا الطريق واثبتوا أنهم غير جديرين بالزعامة مطلقاً فقد أقصوا عنها وحرّموا هذا المنصب الشريف .

٦ - هذا الخطاب يشير الى أن اليهود من غير بنى اسرائيل وكذا المسيحيين الذين كانوا يفخرون بنسبهم الى ابراهيم عليه السلام قد انحرفوا أيضاً كما انحرف بنو اسرائيل عن طريق ابراهيم وحذا حذوهم وثنوا الجزيرة العربية الذين كانوا يتعالون بانتسابهم الى ابراهيم عن طريق اسماعيل . وقد أخبر الجميع أنهم غير أكفاء على الاطلاق لحمل لواء الزعامة لانهم جميعاً نكصوا عن طريق ابراهيم واسماعيل عليهما السلام .

٧ — الآن وقد طرد بنو إسرائيل من منصب الزعامة تستمر المناقشة لثبني لماذا بعث محمد عليه الصلاة والسلام نبيا من بين بنى اسماعيل استجابة لضرارة ابراهيم واسماعيل عنهما السلام وذلك لانه سلك نفس الطريق الذى سلكته الانبياء من قبل وآمن وأتباعه بالانبياء جميعهم ودعوا العالم أن يسلك نفس الطريق الذى أوضحه الانبياء السابقون ومن ثم فاتباع هذا النبى هم أجدر بتلك الزعامة وأحق وأكفاً من غيرهم .

٨ — وينقل الزعامة كان ضروريا أن ينقل مركزها أيضا . ولقد ظل بيت المقدس قبلة أتباع الحقيقة ومركزهم ما دام بنو إسرائيل فى منصب الزعامة . وهذا هو السبب فى أن النبى وأتباعه كانوا يولون وجوههم شطره فى الصلاة أول أمرهم ولكن حين عزل بنو إسرائيل عن الصدارة تعطل بيت المقدس عن أن يكون قبلة ومركزا . ثم أعلن الله أن الكعبة — فى مكة حيث بدأ محمد عليه الصلاة والسلام دعوته — هى قبلة المؤمنين فما استطاع بنو إسرائيل ولا العرب أن يعترضوا على ذلك لأن كليهما يؤمن بإبراهيم عليه السلام نبيا وجدا . وبهذا لم يترك لهم أى سبب يثيرون من أجله الاعتراضات حول جعل الكعبة مركزا للرسالة الالهية لكن الحقيقة أن أولئك المعاندين المكابرين سوف يواصلون النقاش والجدال ضد الحقيقة — كما سنرى — حتى بعد معرفتها والتأكد من أنها هى الحقيقة القاطعة .

٩ — بعد إعلان زعامة المسلمين وأن الكعبة مركزهم يصدر الله اليهم تعليماته (من الآية ١٥٣ الى ١٨٦) كى تهديهم وتمكنهم من الوفاء بمسئولياتهم كزعماء للعالم كله .

اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ *

وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبَّهُ

يصف القرآن فى مواطن عدة تفاصيل الاختبار الصعب التى وضع فيه ابراهيم قبل أن يجعله الله اماما للبشرية كلها . ولما اجتاز ابراهيم كافة الامتحانات بنجاح واثبت أنه كفاء وقادر على الاضطلاع بالمسئولية العظمى رفعه الله مكانا عليا وأنعم عليه بهذا المنصب الرفيع

ومنذ أن أوحى اليه الحق من ربه وحياته كلها الى نهايتها سلسلة من

التضحيات في سبيل الحق فقد ضحى ابراهيم عليه السلام بكل نفيس في الحياة وواجه كل نوع من المخاطر في سبيل الحقيقة .

بِكَلِمَتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۚ قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ
لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾

يعنى أن هذا الوعد لا ينطبق الا على من كان من ذريتك صالحا كفاء وليس على أولئك العابدين الظالمين . وبما تطبع لم يكن بنو اسرائيل الضالون ولا بنو اسماعيل الوثنيون أهلا لأن ينالهم هذا العهد الذى عاهد الله ابراهيم عليه .

وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ
إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا
بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾

تطهير بيت الله لايمنى تنظيفه من الاوساخ والقمامة فحسب بل كذلك من سائر انواع العبادة الباطلة حتى لا يدعى ولا يعظم فيه غير اسم الله . والتطهير الحقيقى لبيت الله هو عدم ذكر غيره فيه لان عبادة أحد سواه أو استحضار اسم غير اسمه ومناجاته طلبا للمدد والعون يدنس بيت الله حقا .

كذلك تتهم هذه الآية قريشا — بطريق غير مباشر — بجريمة حفظ الاصنام داخل الكعبة وعبادتهم لها من دون الله . وتشير الى أن أولئك الوثنيين الذين كانوا يفخرون بأنهم ورثة ابراهيم واسماعيل عليهما السلام لم يقوموا بواجبات هذا الميراث ومن ثم فقدوا كما فقد بنو اسرائيل كل حق في ان ينالهم العهد الذى عاهد الله عليه ابراهيم عليه السلام .

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ
 أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
 قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ
 النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾

حين دعا إبراهيم ربه أن يرزق أهله وذريته من الثمرات ويمدهم بما يلزمهم في الحياة الدنيا استثنى من دعائه الظالمين لأن الله قد استثناهم من وعده بالزعامة . غير أن الله أزال في هذه الآية ما التبس على إبراهيم وكأنه يقول له : هناك فرق كبير بين الأمرين فرغم أن الزعامة الحقيقية لن تعطى الا للمؤمنين حقا الا أن أسباب العيش سوف تعطى لكل من الكافرين والمؤمنين على السواء .

وتعنى هذه الآية أيضا أن الثراء ليس علامة رضا الله عن الانسان كما أن الفقر ليس دليل غضبه وسخطه . فان أصاب المرء قناطر مقنطرة من الذهب والفضة فلا يعنى هذا أن الله راض عنه وأنه في نظر الله حقيق بالامامة جدير بالزعامة .

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ
 السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً
 لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ
 فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ

يزكيهم أى يطهرهم وتطهير الحياة يعنى تطهير العقائد والأفكار والسلوك والأعمال والعبادات والتقاليد والثقافة والاقتصاد والسياسة . باختصار تطهير كافة جوانب الحياة واقسامها .

إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾

ولان الله عزيز ذو قوى مطلقة له عنان السماوات والارض حكيم بلا نهاية فقد استجاب لدعاء ابراهيم عليه السلام وبعث سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام رسولا .

وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ

قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾

أسلم يعنى كن مسلما أو اتخذ موقف الاسلام وعلى هذا فالمسلم هو من يسلم نفسه لله تماما ويطيعه ويذعن له ويعترف ويؤمن به وحده مالكه وسيده وربّه وحاكمه وسلطانّه ومشرعه والّله المعبود ويسلك سبيل الحياة الذى أقره له وأمره به . هذه العقيدة وهذا المنهج هو الاسلام وهو دين الانبياء جميعا الذين بعثوا منذ بدء الخليقة فى مختلف الامم والبلدان .

وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ

ورد هنا ذكر يعقوب عليه السلام خاصة لأن بنى اسرائيل هم نسله المباشر .

يُنَبِّئُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾

كلمة «دين» فى العربية كلمة ذات معنى واسع كبير لا يفى بالتعبير عنه لفظ RELIGION فى الانجليزية أو ما يرادفه فى اللغات الاخرى . ومعناه فى العربية يغطى الحياة بأكملها ولايشذ عن مجاله منحى من مناحى حياة الفرد أو الجماعة (١) .

(١) لتوضيح أكثر انظر شرح أستاذنا المودودى لمعنى « الدين » فى كتابه المصطلحات الاربعة فى القرآن — المترجم .

أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾

رغم أن التوراة تفصل موت يعقوب تفصيلا إلا أنها تلتزم الصمت حول وصيته الأخيرة هذه . ومع هذا فقد وردت هذه الوصية في التلمود ولاختلاف بين مضمونها ومضمون ما جاء في القرآن يقول التلمود :

« فلما أوشك يعقوب أن يغادر الدنيا جمع أبناءه وقال لهم اعبدوا الله الهكم ينقذكم من كل ضيق كما أنقذ آبائكم علموا أبناءكم حب الله وحفظ وصاياه لأنه سيحفظ من يعدلون ويستقيمون على طريقه كلها . . . فاجاب بنو يعقوب سنفعل كل ما أوصيتنا به يا أبانا وليكن الله معنا فأجاب يعقوب سيكون معكم ما لم تحيدوا عن طريقه يمينا أو شمالا » .

وقد اورد RODWELL نفس الشيء عن وصية يعقوب في المdrash (١) اذ قال يعقوب لبنيه :

« أفي قلوبكم شك حول الواحد القدوس تبارك وتقدس قالوا : اسمع يا اسرائيل أبانا كما لا يوجد في قلبك شك لا يوجد في قلوبنا كذلك لأن الرب الهنا واحد » .

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾

يعنى رغم أنكم من صلبهم إلا أنه لا تربطكم بهم صلة حقيقية وليس لكم الحق في ادعاء الارتباط بهم والانتساب اليهم لانكم انحرفتم عن صراطهم وطريقهم ولن يسألكم الله عما فعل أجدادكم بل سيسألكم عما كسبت أيديكم .

ان أعمالنا وأفعالنا ليست في عين القرآن إلا كسب أيدينا لأن كل فعل وعمل — سواء أسفر عن نتيجة خير أم عاقبة سوء — ان خيرا فسيجزيها ربنا عنه خيرا وان شرا فسيعاقبنا به الله شرا . والقرآن انما يشير الى الأعمال والأفعال كمكتسبات لكى ينبهنا الى النتائج الخطيرة التى تسوق اليها .

(١) تفسير التوراة التقليدى وهو يهائل التلمود ويضم الحكم والقصص والأحكام التى جمعها أو اختلقها الحاخامات بعد اتمام التلمود ودونوها في هذا الكتاب « المdrash » خوف الضياع — المترجم .

وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا

وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾

لكي يتضح المعنى الحقيقي لرد الله على قولهم ينبغي أن نضع في أذهاننا
أمرين :

١ - أن اليهودية والنصرانية قد ولدتا بعد موت ابراهيم عليه السلام
بروح طويل فظهرت اليهودية بطقوسها وشعائرها ولوائحها وقوانينها
وتعاليمها الخاصة وتسمت بهذا الاسم قبل الميلاد بقرابة اربعة قرون أما
المسيحية فتسمت بهذا الاسم وتبنت عقيدتها الخاصة وشكلها المميز بعد
المسيح عليه السلام .

وبذا يتضح أن ادعاءهم ضرورة أن يكون المرء يهوديا أو نصرانيا لينال
هداية الله ادعاء يتعذر الدفاع عنه تاريخيا لأنه يعنى أن ابراهيم وعيسى
وموسى وسائر الأنبياء الآخرين الذين مضوا منذ أزمان سحيقة قبل ابتداء
اليهودية والنصرانية لا يمكن اعتبارهم من زمرة المهتدين لسبب بسيط هو أن
هذه الأديان المزعومة (اليهودية والنصرانية) لم يكن لها وجود حين كان
هؤلاء الأنبياء يعيشون في بقاع هذا العالم . ولهذا اتضح أن اهتداء الانسان
لا يعتمد في أساسه على الخصائص الدينية التي بسببها انقسم اليهود
والنصارى وغيرهم الى فرق مختلفة وانما يعتمد على اختياره ذلك الصراط
المستقيم الشامل الذي يستمد الانسان منه الهداية في كل حين .

٢ - أن هذا الرد يعنى كذلك تعريف اليهود والنصارى بأن كليهما
مشرك بالله وبذا فقد حادوا عن سبيل ابراهيم عليه السلام الذي لم يشرك مع
الله أحدا في العبادة أو التبجيل والتقديس أو التسليم والخضوع والطاعة ولم
يستطع أحد منهم أنكار هذا لأن كتابهم نفسه يشهد به .

قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ

وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ

وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ

مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾

يعنى أننا نؤمن بالانبياء ولا ننكر أحدا منهم ولا نفرق بينهم فنقول هذا كان على الحق وذلك لم يكن لان كافة الانبياء الذين بعثهم الله الى البشر جاءوا بحقيقة واحدة ودعوا الناس الى هداية واحدة . وعلى هذا فمن اتبع هدى الله فعليه أن يؤمن بأنبياء الله جميعا أما من يؤمنون بنبي ويكفرون بآخر فهم فى حقيقة الأمر يكفرون حتى بمن آمنوا به لانهم فى الاصل ما تبعوا هداية الله الاممية التى علمها لهم موسى وعيسى وسائر الانبياء الاخرين عليهم السلام بل انهم آمنوا بنبي توارثوا الايمان به عن آبائهم وأجدادهم فدينهم اذن هو التعصب لنسلهم وتقليد آبائهم وأجدادهم وليس اتباع نبي من الانبياء والسير على طريقه القويم

فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُ بِهِ فَقَدْ أُفْتَدُوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ
فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ
مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَبِيدُونَ ﴿١٢٨﴾

قد تعنى الآية الأخيرة « اننا اخترنا صبغة الله » وقد تعنى أيضا « اصطبغوا بلون الله وصبغته » .

وقبل ظهور المسيحية كانت تروج بين اليهود عادة تعميد من كانوا يعتنقون اليهودية وكان ذلك رمزا يشير الى غسل ذنوب المعبد وخطاياهم واكتسابهم بلون حياة جديد . ثم أخذ المسيحيون هذه العادة أيضا وسميت «الاصطباغ» أو «التعميد» وهى تغطيس من تهود أو تنصر تغطيسا طقسيا فى الماء أو صب الماء عليه كشعيرة أساسية أو سر مقدس من أسرار الكنيسة . وليس هذا التعميد خاصا بمن اعتنقوا دينهم حديثا فحسب بل بكل طفل يولد لهم .

والقرآن هنا يقول أن ليس فى هذا «الاصطباغ» ماينجى بل مسبيل النجاة هو الاصطباغ بصبغة الله وذلك بالسير على نهجه والخضوع لقانونه وشرعته .

قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ

يعنى أننا لانقول سوى أن الله ربنا وربكم وأن علينا أن نخضع له جميعا فهل فى قولنا هذا متاجاد لونا وتنازعونا فيه ؟ ولو أن ثمة مجال للمحاجة

والخصومة فحري بنا نحن أن نفعل ذلك لا أنتم لأن الذين يشركون بالله أشياء أخرى هم أنتم لانحن .

كذلك قد يعنى نص الآية أيضا : أحتاجوننا لأجل الله ؟ ولو أن خصومتكم ونزاعكم لنا لأجل الله وفي سبيله وليس لأجل الهوى والمنفعة الدنيوية ففى الامكان تصفية ذلك فى ود وتفهم

وَلَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٤٦﴾

يعنى أنكم مسئولون عن أعمالكم ونحن عن أعمالنا مسئولون . فان جعلتم مع الله شركاء فى الوهيته وأطعتموهم وعبدتموهم فأنتم أحرار فى هذا وستتحملون نتائجه . أما نحن فقد أفردنا الله وحده بالطاعة وأخلصنا له الخضوع والاذعان فان قبلتم اعطاءنا الحرية فى أن نفعل هذا انقضى كل نزاع وانتهت كل خصومة بيننا مهما كانت .

أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا يَهُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ

هذا السؤال موجه الى العامة من اليهود والنصارى الذين آمنوا فى جهالتهم ايماننا شديدا بأن هؤلاء الانبياء العظام كانوا جميعا يهودا أو نصارى .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾

وجه القرآن هذا السؤال الى علمائهم الذين كانوا بجهلون أن اليهودية والنصرانية بخصائصهما الحالية كانتا من نتاج عصر تال وكانوا يخدعون انفسهم بظنهم أن الحقيقة مقصورة على شيعتهم الى جانب أنهم جعلوا عامتهم يعتقدون خطأ أن النجاة تتوقف فى أصلها على الايمان بتلك العقائد والطرق والاجتهادات التى وضعها فقهاؤهم وصوفيتهم ومتكلموهم بعد الانبياء بحقب ودهور . وكانوا اذا سئلوا عن ابراهيم واسحق ويعقوب وغيرهم من الانبياء الى أى فريق منكم ينتمون هربوا من الاجابة الصريحة لانهم ما كانوا يستطيعون الزعم بانتمائهم الى هؤلاء أو أولئك وذلك لعلمهم بأن التاريخ يبطل زعمهم . ورغم الحقيقة الساطعة لم يفحصوا عن أن سائر

الانبياء ما كانوا هودا ولا نصارى لما في اقصاحهم من تنفيذ لزعيمهم وتفتيت لدعواهم .

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ
عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٦﴾

* سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا

يشير الى تحويل القبلة من بيت المقدس الى المسجد الحرام بعد أن ظل الرسول عليه الصلاة والسلام يتجه في صلاته بادية الأمر الى بيت المقدس الى أن جاءه أمر من الله أن يولى وجهه شطر المسجد الحرام بعد هجرته الى المدينة بسنة عشر وسبعة عشر شهرا . كما سيأتى تفصيله بعد ذلك .

قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٤٧﴾

حين تحولت القبلة الى المسجد الحرام راح السفهاء — الذين لم تكن لديهم البصيرة التي يفهمون بها المعنى الحقيقي لهذا التحويل — يثيرون اعتراضات ومزاعم يبيللون بها فكر المؤمنين وظنوا — لحمتهم وغبائهم — أن الله قد تحدد مكانه في اتجاه معين (هو بيت المقدس) وأن تغيير القبلة الى الكعبة لا يعنى سوى التحول عن ذات الله . فأبطل الله زعمهم هذا باعلانه للناس أن المشرق والمغرب والجهات جميعا لله رب العالمين .

والحق أن جعل القبلة في مكان ما لايعنى أن الله جل شأنه وتعالى قد اتخذها له مقاما ولايذهب الى مثل هذه الافكار الضيقة والنظريات القاصرة من أنعم الله عليهم بهداه ورشده .

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ
عَلَيْكُمْ شَاهِدًا

هذا هو اعلان زعامة الأمة الاسلامية وكلمة « كذلك » تشير الى كل من الهداية الالهية التي ارسلت على يد محمد عليه الصلاة والسلام والى تغيير القبلة فبالسير على طريق هذه الهداية انجز المسلمون كل تلك التفوقات

والنجاحات التي أدت الى جعلهم «أمة وسطا» وبتغيير القبلة من المسجد الأقصى الى الكعبة الشريفة انتقلت الزعامة من بنى اسرائيل الذين أقصوا عنها الى المسلمين وهم الزعماء الجدد . فتغيير القبلة اذن لم يكن مجرد تبديل مكان أو اتجاه كما فهمه السفهاء بل كان في حقيقة الاعلان الرسمي لسحب الزعامة من بنى اسرائيل وتسليمها الى أتباع محمد عليه الصلاة والسلام .

« وأمة وسطا » تعبير واسع في معناه شامل في مداه حتى انه لا يمكن ترجمته الى الفاظ في اللغات الأخرى تبقى بمعناه العميق الممتد . فالأمة الوسط هي تلك الأمة المستقيمة الشريفة التي لا تتشذ عن الحدود اللائقة بل تتبع الطريق الوسط وتتعامل مع أمم العالم على أساس العدل والانصاف وتكون منهم كالقاضي النزيه وتقيم علاقاتها مع غيرها من أمم العالم الأخرى على دعائم الحق والشرعية

ثم من جعلكم «أمة وسطا» انما جعلكم هكذا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ف سبحانه وتعالى يعنى أن الرسول بوصفه نائبنا المسئول سيشهد عليكم — يوم نأتى بكم جميعا لتقالوا حسابكم — انه أبلغكم بشكل تام غير منقوص كل ما علمناه من فكر سليم وعمل صالح ونظام عادل وانه طبقه أمام أعينكم وأراكم اياه . ثم انكم ستشهدون على البشر أجمعين — بوصفكم نوابا عن الرسول عليه الصلاة والسلام — انكم لم تقصروا أدنى تفصير في تبليغهم ما أبلغكم الرسول اياه وتوضيحه وتفسيره لهم .

أن من يصدر اليه أمر من الله كي يكون شاهدا من قبله على انبشيرية فردا كان أم جماعة — لهو في الحقيقة على الدرجة رفيع المقام سامى القدر في امامة هذه الدنيا وزعامتها وحيث توجد الأفضلية ويعلو الشأن يتعاضد عبء المسئولية ويجسم .

ومعنى هذا أن على الأمة الاسلامية أن تصبح شاهدا حيا أمام العالم كله في التقوى والحق والعدل تماما كما كان الرسول شاهدا أمامها . وأن تكون أقوالها وأعمالها مظهرة للعالم معنى الحقيقة اظهارة تاما . كذلك تعنى هذه الآية أن على الأمة الاسلامية مسئولية كبرى سوف تحاسب عليها يوم الدين فكما كان الرسول صلوات الله عليه مسئولا عن تبليغ الهداية الالهية فان المسلمين مسئولون عن تبليغها وتوصليها الى البشرية جمعاء فان فشلوا في اقامة الدليل العملى على انهم ادوا هذا الواجب ووفوا بمقتضيات هذه المسئولية بكل ما في جهدهم ومقدورهم فسوف يعاقبهم الله ويعمهم وكافة شركائهم وقرنائهم الاشرار بعذاب عظيم على ما انتشر من الشرور والمآثم والفجور خلال فترة توليهم الزعامة وسيحشرون في زمرة شياطين الانس والجن حيث يسألهم ربهم اين كنتم غافلين عن شيوع الفساد وماذا قدمتم لوقف سيول الرذيلة والخطيئة والاستبداد والفسق والطفغان والعقوق التي كانت تجتاح العالم ؟

وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ
يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ

يعنى ان المقصود من هذا معرفة من يدركون الحقائق ادراكا سليما
ممن يقدسون العصبية الجاعلية ويعبدون أواصر الدم والأرض . ففى
ناحية كان هناك العرب الذين كان يسيطر عليهم الفخر بوطنهم وجنسهم
ولم يكونوا على استعداد لترك قبلة العرب واتخاذ قبلة بيت المقدس وهو
الأمر الذى يحطم صنم قوميتهم . وفى ناحية أخرى كان هناك بنو اسرائيل
الذين كان يملكهم الغرور والفخر بنسلهم وسلالتهم وكان من المستحيل
عليهم قبول قبلة أخرى غير قبلة آبائهم واجدادهم . وطبيعى ان هذا
الصنم — صنم العصبية القومية الذى كان يعربد فى قلوبهم وعقولهم — لم
يكن فى مقدوره ان يتجه بهم الى حيث يدعوهم رسول الله . لهذا جعل الله
بيت المقدس قبلة اول الامر ليفرق بين المؤمنين الصادقين وبين من يعبدون
صنم العصبية والقومة العربية ثم جعل الكعبة بعد ذلك قبلة ليفرق بين
المؤمنين ايضا وبين من يقدسون وثن القومية الاسرائيلية . وهكذا لم يبق
مع الرسول سوى من كفروا بالاصنام على اختلاف انواعها وآمنوا
بالله وحده .

وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ عِمَّاكُمْ
إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَّءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٤﴾ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ
فَلْنُؤَلِّيكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ
مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ

هذا هو الامر الصادر بتغيير القبلة وقد نزل فى رجب او شعبان من
العام الثانى للهجرة حين كان الرسول عليه الصلاة والسلام — حسب
رواية ابن سعد — يؤم من كانوا فى بيت بشر بن معرور فى صلاة الظهر وكان
قد ذهب يزوره تلبية لدعوته فنزلت هذه الآية وهو فى منتصف الصلاة فأدار
وجهه على الفور شطر الكعبة اثناء الصلاة واستدار معه من كانوا خلفه
أيضا . ثم أذن فى المدينة وما حولها بعد ذلك أن القبلة قد تغيرت . ويقول
البراء بن عازب ان بعض القوم سمعوا بهذا حين كانوا فى صلاتهم
راكعين فاستداروا كما هم شطر المسجد الحرام . ويقول انس بن مالك ان

رجلا من بنى سلمة مر بهم وهم ركوع في صلاة فجر اليوم التالى وقد صلوا
منها ركعة فصاح ان قد حولت القبلة فمالوا نحو الكعبة كما هم .

ونحن نعرف ان بيت المقدس يقع من المدينة المنورة في شمالها وتقع
الكعبة منها في الجنوب ولا بد لاتهم حركة الاستدارة صوب الكعبة ان
يتحرك الامام الى مؤخرة الجماعة ويستدير المصلون خلفه ثم يتحركوا قليلا
ليساروا صفوفهم وهذا كله مروي في كتب الحديث تفصيلا .

والآية « **قد نرى تقلب وجهك في السماء** » و « **فلنولينك قبلة ترضاها** »
يظهر منها ان النبي صلى الله عليه وسلم ظل يدعو ربه ان يحدث هذا
التحويل وكان ينتظر تحقيقه لأنه كان يشعر بانتهاء فترة زعامة بنى اسرائيل
وبالتالى توقف بيت المقدس عن مهمته في ان يكون مركزا للهداية وقبلة
للمؤمنين وضرورة أن تصبح الكعبة التى رفع قوائمها ابراهيم عليه السلام
قبلة ومركزا .

و « **المسجد الحرام** » يعنى « **المسجد ذا الحرمه والعزة** » والمقصود
به ذلك المكان الذى تتوسطه الكعبة في مكة .

ولا يعنى الامر « **قول وجهك شطر المسجد الحرام** » ان يولى الانسان
وجهه جهة الكعبة تماما حيثما كان لان هذا بالطبع صعب على الانسان
أن يفعله في كل وقت وفي كل مكان . ولهذا يأمرنا القرآن أن نولى وجوهنا
شطره وليس اليه مباشرة . وعلى المرء ان يجتهد في تحديد الاتجاه
الصحيح نحو الكعبة فاذا رأى ان هذا الاتجاه او ذلك هو اكثر الاتجاهات
رجحانا نحو الكعبة يمم وجهه شطره اما اذا غم عليه تحديد الاتجاه كأن
يكون في مركب او قطار مثلا فعليه استقبال الاتجاه الذى يراه ارجح فان
بان له الاتجاه وهو يصلى فعليه أن يحول وجهه شطره على الفور .

وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ
وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ
وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ آتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ
مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾

يعنى ان النقاش والجدل حول الحكمة في تحويل القبلة لا يمكن ان ينتهى عن طريق تقديم الدليل والبرهان لان هؤلاء الناس يعميهم التعصب والغرور ولن يتركوا قبلتهم مهما جاءهم من الادلة والبراهين . كما انه لا يمكن حله وتصفيته باتباعك قبلتهم لانهم لا يتبعون قبلة واحدة بل قبلات متفرقات فان اتبعت احداها رضى عنك اصحابها وظل الباقون — كما هم — ينازعونك ويجادلونك . ولانك رسول من عند الله فلا تستطيع ان ترضيهم عن طريق سلوك سبيل المساومات لذا فمهمتك ان تعرض عنهم جميعا وتستقيم على ما أمرناك به فان حدث عنه ارضاء لغيرنا ظلمت منصب النبوة الذى حبيناكه وحدثت النعمة التى انعمناها عليك بجعلك اماما للعالم .

الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ

هذا التعبير يعنى فى اللغة العربية « ان الانسان ليس به شك فى تحديد هوية شئ ما » ففلان يعرف كذا كما يعرف ابنائه يعنى انه يعرفه تمام المعرفة . وهو تعبير مشتق من حقيقة ثابتة وهى ان احدا لا يخطئ فى التعرف على ابنائه . وقد استخدم هنا لاثبات ان اليهود والنصارى كانوا يعرفون حقيقة ان الكعبة قد بناها ابراهيم عليه السلام وان بيت المقدس قد بناه سليمان عليه السلام بعد ألف وثلاثمائة عام من بناء الكعبة وانه جعل قبلة فى زمانه تماما كما يعرفون ابناءهم وعلى هذا فالكعبة أعرق واسمى من بيت المقدس ومن ثم لم يكن باليهود قدر ذرة من شك فى الاعتراف بها قبلة فى ضوء هذه الحقائق التاريخية .

وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّيْهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ

بين الآيتين « ولكل وجهة وهو موليها » و « فاستبقوا الخيرات » ثغرة تركت ليسدها القارئ من تلقاء نفسه . فمن أراد الصلاة فليول وجهه شطر الوجهة التى يرضاها اما صلب الحقيقة فهو الخيرات التى تحصل بأداء الصلاة وليس اتجاه الوجوه الى هنا أو هناك . لذا فاجتهدوا فى فعل الخيرات وتحصيلها بدلا من البحث والتحقيق من المكان والوجهة والمقام .

أَبْنِ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾
 وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لِلْحَقِّ مِنْ
 رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ
 شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ
 لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ

يعنى اننا نكرر تأكيدنا على الا يتجه احدكم في صلاته صوب وجهة
 غير التى قررناها فيجد اعداؤكم فى ذلك فرصة ليقولوا هاهم افراد « الامة
 الوسط » يزعمون انهم مؤمنون بالله شهداء للحق على حين يكذب سلوكهم
 دعواهم . فبينما يدعون ان الامر بتغيير القبلة صدر اليهم من لدن الله اذا
 بهم لا ينصاعون له ولا يعملون به .

إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَا تُمْ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ

المراد بالنعمة هنا الزعامة التى نعى الله بنى اسرائيل عنها وأسندها
 الى المسلمين وهى الجائزة الكبرى التى تمنح لاي أمة تنتهج الطريق القويم
 وتسير على الصراط المستقيم وتوكل اليها امة البشرية وقيادتها الى سبيل
 الخير والفلاح .

وفى هذه الآية يخبر الله المسلمين بأن تحويل القبلة وتغييرها ليس الا
 رمز تغيير الزعامة والامامة فعليكم اتباع امرى والحرص على ما اوصيتكم
 به والا سلبتكم اياها لعصيانكم وجحودكم وكفرانكم . ولسوف اسبغ عليكم
 هذه النعمة طالما اتبعتمونى واطعتم امرى .

وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾

يعنى ان اتبعتم امرى فأملوا فى نعمتى . وهذا اسلوب تعبير ملكى
 فالسلطان اذا قال لخدمته وعبدته انتظر منا النعمة الفلانية والاحسان
 الفلانى فان هذا الوعد كاف لان يجعل العبد يخلص فى طاعة امر سيده
 وتنفيذه من صميم جوارحه .

كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ
الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَاذْكُرُونِي
أَذْكُرْكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا

بعد ان عين الله المؤمنين أئمة وزعماء بدأ سبحانه وتعالى يخاطبهم
ويسدى اليهم النصائح والتعاليم والتوجيهات الهامة اللازمة لتدريبهم
وتمكينهم من القيام بما يفرضه عليهم المنصب الجديد . واول امر نبههم الله
اليه هو ان الامامة والزعامة ليست مقام نعيم قد فرش سندسا ونشر ورودا
بل هي منصب يحفه الشوك وتملؤه المصاعب والمخاطر وسوف تظهر لكم
في هذا الطريق اقصى انواع العوائق والصعوبات واكثر ألوان الفتن
والمثبطات حيث تتجرعون المعاناة وتذوقون الآلام والخسائر الكبرى فان تحملتم
كل هاتيك المحن بصبر وثبات وواصلتم السير في طريق الله فسوف يمطركم
الله نعمات وبركات ومننا وعطاءات لا تعد ولا تحصى .

ج
﴿١٥٣﴾ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٤﴾

يعنى ان الصبر والصلاة سوف يخلق فيكم الطاقة المطلوبة لتحمل اعباء
المسئولية التى اسندت اليكم . فأما الصبر فسيمنحكم الجلد والعزم والثبات
في وجوه المكاره والوان المصائب والحرمان والفاقات والمغريات التى لا محيص
من لقائها ومواجهتها ويعطيكم القوة الاخلاقية التى تلزمكم في طريق الله
المحفوف بالمخاطر والمهلكات . واما الصلاة فسوف تدريكم على ضبط النفس
والتهدب وتكسبكم الاخلاق اللازمة لنمط الزعماء ونماذج الزعامة السليمة

وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾

حرام علينا ان نقول لمن رزقوا الشهادة في سبيل الله « أموات » لان
لفظ « الموت » وتصوره يثبط الهمة ويجتث الشجاعة ويقتل روح التضحية
والفداء قتلا . ويقضى على حماس القتال في سبيل الله . وقد طلب الله الى
المسلمين ان يؤمنوا بأن الشهداء يحيون حياة ابدية خالدة وهذه حقيقة تحى
في النفوس روح الشجاعة وتبعث فيها حرارة الاقدام .

وَلَتَبْلُوَنَكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ
وَالْأَنْفُسِ وَالْثَمَرَاتِ ۖ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ
مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾

لايعنى هذا نطق هذه الكلمات مشافهة بل يعنى ان نؤمن ايماننا تاما
راسخا باننا لله وحده وعلى هذا فان ضحينا بشيء في سبيل الله فقد صرفناه
في وجهه السليم لانه راح في سبيل من ينتمى اليه حقا .

ومعنى « وانا اليه راجعون » اننا لن نخد ها هنا ابدا بل سنترك
هذه الدنيا ذات يوم لا محالة اذ لا مفر من الموت والرجوع الى الخالق آجلا
او عاجلا . ولذا فافضل لنا كثيرا ان نقاتل في سبيله تعالى ونضع ارواحنا
على اكفنا من اجله من ان نعيش لنعرض مصالح ذواتنا ثم نموت في مرض
او حادث حتف الأنوف .

أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ
الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ * إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ

فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ

الحج ما كان في الأيام المعروفة من ذى الحجة أما العمرة فهي زيارة
تطوعية للكعبة في أى وقت آخر .

وقد اثير هنا الى الحج والعمرة لان الكعبة كانت قد جطت قبلة
للمسلمين منذ عهد وشيك وبالطبع ظهر ما يتعلق بها من مشاكل واسئلة .

فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا

كان السعى بين الصفا والمروة من بين شعائر الحج التي علمها
الله لابراهيم عليه السلام . لكن الناس حين بدأوا يشركون بالله آلهة
باطلة بنوا على الصفا والمروة معابد ووقفوها على اثنين من اصنامهم هما

« آساف » و « نائلة » وكانوا يطوفون بهما تقديسًا واجلالاً . فلما اعتنق العرب الاسلام تساءلوا هل كان السعى بين الصفا والمروة من شعائر الحج اصلاً ام انه من بدع الوثنيين ؟ وهل هذا السعى شرك بالله ام لا ؟

ويظهر من رواية للسيدة عائشة رضي الله عنها ان اهل المدينة كانوا يكرهون السعى بين الصفا والمروة قبل اسلامهم . اما وقد جعلت الكعبة قبلة المسلمين فقد اذهب الله عن اذهانهم ما اساءوا فهمه حول السعى بين الصفا والمروة وانبأهم ان هذه الشعيرة هي من شعائر الحج منذ عهد ابراهيم عليه السلام وليست من ابتداع الجاهلين من بعده .

وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾

يعنى خير لكم ان تسعوا بين الصفا والمروة بقلوب راضية ابتغاء مرضاة الله من ان تفعلوه كمجرد تنفيذ لامر من اوامره .

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ

ان افظع جرائم علماء اليهود انهم قصرُوا تعاليم كتابهم على احبارهم وكتابتهم المحترفين وليتهم حجبوها عن غير اليهود فحسب بل اخفوها عن عامة اليهود ايضا فشرع اليهود يفعلون ما يعد زندقة ومروقاً بسبب ما قبعوا فيه من جهل ، وحتى في هذه الحالة لم يقم احبارهم بأدنى جهد لاصلاحهم وتعليمهم بل استمروا — بطريق مباشر او غير مباشر — في الاعتراف بشرعية كل مروق للاحتفاظ بشعبيتهم وسط اليهود . وفي هذه الآية امر المسلمون بضرورة نشر ما منحوا من الهداية والدعوة لها بصفتهم زعماء العالم ، وعدم اخفائها عن العامة كما فعل احبار اليهود وكتابتهم .

أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّا فَاُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا

الكفر في اللغة العربية الاخفاء والجحود ثم ما لبثت الكلمة أن استخدمت للتعبير عن اخفاء الحق وجحوده ثم بعد ذلك للدلالة على رفضه كنيقوض للايمان به فالإيمان يعنى الاعتقاد والتصديق والقبول والخضوع والكفر يعنى عدم الاعتقاد والتصديق والرفض والمعارضة . والمرء كافر في نظر القرآن في عدة احوال :

١ — اذا لم يؤمن بالله او رفض الايمان به سلطانا اعلى ومالكا وربا له وللكون كله او رفض الايمان به الها معبودا واحدا .

٢ — اذا آمن بالله ورفض قبول اوامره وهداه مصدرا وحيدا للقانون والمعرفة .

٣ — اذا سلم بضرورة السير وفق هدى الله لكنه رفض الرسل الذين جعلهم الله وسيلة تبليغ اوامره وهداه الى الناس .

٤ — اذا فرق بين رسل الله فأمن ببعض وكفر ببعض وفق ما يقضم به هواه وتعصبه .

٥ — اذا نبذ العقائد والاخلاق والتعاليم الخاصة بنظام الحياة — كلها او بعضها — والتي بينها لنا الرسل من قبل الله .

٦ — اذا سلم بكل هذا نظريا لكنه طرح اوامر الله ووصاياه في الواقع العملى عمدا واستمر في مسلكه هذا وعاش حياته على اساس العصيان والتمرد لا على الطاعة والخضوع والامثال .

الى جانب هذا نرى ان لفظ الكفر مستخدم في عدة مواضع في القرآن في معنى كفر النعمة وهو ضد الشكر . ومعنى الشكر أن يكون المرء معترفا بجميل من انعم عليه مدينا له وان يقدره حق قدره ولا يستخدم النعمة التي انعمها عليه الا وفق ما يشاء وحسب ما يرضى ، وان يمتلىء قبله بالوفاء لمن احسن اليه وانعم عليه . اما الكفر او كفران النعمة فهو اما ان يرى المرء احسان المنعم ليس الا نتيجة للزمن او لقدراته الشخصية او لرعاية او توصية احد غير المحسن واما الا يرعى قدر النعمة المسداة اليه فيضيعها ويبددها واما ان يستخدم هذه النعمة ضد رغبة المنعم ومرضاته واما أن يغدر بالمنعم ويخونه ويبغى عليه رغم انعامه وهذا النوع من الكفر يعبر عنه في لغتنا بألفاظ مثل انكران الجميل والغدر وما اليه .

وَمَا تَوْأَمَهُمْ كُفَّارُ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ
وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ
وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِمَا
يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ
الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ
الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِينَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ

لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾

ان من لا ينظر حوله كما تنظر الانعام بل يتفحص ذهنه نظام
الكون البديع الذي يراه رأى العين ليل نهار ، ولا تجثم على بصره وبصيره
غشاوات الأهواء أو الصلف والكبرياء في وسعته أن يرى آيات عدة
تشير الى الحقيقة فيؤمن أن هذا الكون يحكمه ويدبره حاكم لا متناهى القوة
والحكمة ويدرك ان الله وحده هو اله الكون ولا مجال لاشتراك احد معه
سبحانه وتعالى وان ليس لاحد غيره من الصفات والقدرات والسلطات
ما يجعله اهلا للربوبية والالوهية .

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ

بمعنى انهم ينسبون الى البعض بعضا من صفات الله التي لا يتصف
بها سواه ويحولون آلهة باطلة كل حقوقه تعالى أو بعضها . مثال ذلك
ان الله وحده — ولا ريب — له الحكم فوق كل قوى الطبيعة وله الخلق

والأمر وله القدرة على تلبية حوائج خلقه أجمعين وسماع دعائهم وسؤالهم
ويعلم الجهر وما يخفى ورغم هذا يطلبون « المدد » من الآخرين وينسبون
كل أو بعض هذه الصفات والقدرات الى آخرين غير الله وبهذا يتخذونهم
أندادا لله يسوونهم برب العالمين .

ان حق الله الخاص على رعاياه ان يعترفوا به سلطانا اعلى ويحنوا
رؤوسهم له خضوعا وخشوعا ويخافوه وحده سرا وعلانية اما ان خولوا
غيره حقوقه كلها او بعضها فقد جعلوا له اندادا وشركاء . ثم ان الله وحده
اهل لتقرير ما هو مشروع وما هو غير مشروع وما هو حلال وما هو
حرام . وفي يده وحده سلطة تعيين حقوق رعاياه وواجباتهم واقرار ما
يلزم من الاوامر والاحكام والتحريمات ونحوها فمن ادعى لنفسه ايا من
هذه الحقوق فهو مشرك . كذلك هو وحده من يستحق الاعتراف به حاكما
وسلطانا ، وعلى الناس — بصفتهم رعاياه — ان يعتبروا اوامره واحكامه
قاطعة نهائية ويتوجهوا اليه طلبا للهداية والرشاد فمن اعطى ايا من هذه
الحقوق الى غير الله فقد اشرك به اندادا آخرين . كذا الحال في شأن
المؤسسات المجتمعية أو الأشخاص الذين يدعون لانفسهم احدى هذه الخواص
أو المراتب ويطلبون الآخرين بأن يبوئوهم هذه المناصب ويخولوهم هذه
الحقوق انما يجعلون من انفسهم أندادا لله سواء ادعوا الالهية رسميا
أم لا .

وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ

يقتضى الايمان حتمية تفضيل المرء رغبة الله ومراده على مراد ذاته
ورغبة نفسه ورغبات الآخرين وان يتعلق بالله حبا وايثارا حتى يكون على
استعداد للتضحية من اجله تعالى بكل عواطفه ومشاعره الاخرى .

وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ
جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ
اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ
الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ
مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأْنَا مِنَّا

هذه نهاية بائسة نعيبة لرؤوس الفتنة وزعماء الضلال والمضلين
اجمعين وقد ورد ذكر اتباعهم على وجه الخصوص كتحذير من الله للمسلمين
لكي يحسنوا انتخاب زعمائهم واختيار قادتهم . فلقد ضلت الامم الخوالية
لاتباعهم قادة مضلين وزعماء فاسدين . وعلى المسلمين ان يستفيدوا
درساً وعبرة من مصير من خلوا ، ويفرقوا بين الزعماء والقادة الصادقين
وبين المضلين المزعميين ، ولا يتبعوا امر شرار الائمة المفسدين .

كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾

يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ
إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦٨﴾

امر المسلمون في هذه الآية ان يكسروا كافة الاغلال التي وضعتها
الخرافة وفرضها الجهل على اصناف الطعام والشراب .

إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالْسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾

يعنى ان الشيطان يدفع الناس الى الايمان بأن تلك العادات والقيود
الخرافية التي وضعت على الطعام والشراب دون سلطان من الله جزء من
الدين فرضها الله ، رغم عدم وجود برهان يثبت هذا ويؤيده .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا
أَوَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ لَيَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾

ان ما عندهم من سلطان لما يؤمنون به ويتبعونه من خرافات هو ان
آباءهم واجدادهم كانوا كذلك يفعلون . وهذا دليل قوى في اعين الحمقى
وجاهلاء الناس اجمعين .

وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءٌ وَنِدَاءٌ

صَمٌّ بَكْرٌ عَمَىٰ فُهِمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾

هذا المثل له وجهان : —

١ — ان هؤلاء الناس يشبهون قطعان الماشية التي تسمع نداء سائقها وتتحرك تجاه الصوت دون أن تعي معنى ما يقول .

٢ — ان وعظ هؤلاء الناس كمن يخاطب ويعظ المواشي والانعالم التي تسمع الأصوات فحسب ولا تدرك لما يقال لها معنى ولا مضمونا .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن

كُنْتُمْ ءِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾

هنا أمر المؤمنون بالاطاحة بكل صنوف القيود غير المشروعة وكافة انواع التحريمات التي لا وجه لها ولا ضرورة والتي فرضها العلماء والشيوخ والاحبار والصوفية ، والقساوسة والاجداد ومن اليهم .

وان كانوا يؤمنون بالله حقا كما يظهرون ، فعليهم ان يمتنعوا عن تناول ما حرمه الله وان يطعموا ما احله لهم دون تردد .

يقول الحديث النبوي « من صلى صلاتا واستقبل قبلتنا واكل ذبيحتنا فهو مسلم » ومن ثم فمن تردد في اكل ما احله الله لا يكون قد اسلم بعد اسلاما حقيقيا حتى ولو كان يصلي صلاة المسلمين ويستقبل قبلتهم . وعليه ان يتخلى عن نوازع الجهل وخرافاته ان كان اسلم لله حقيقة . لان مجرد « تقيده » بالتقاليد والعادات القديمة ليل وبرهان على انه لا يزال متشبعا بسموم الجهل والجاهلية .

إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنَازِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ ءُ لَغَيْرِ اللَّهِ

ينطبق هذا على لحم الحيوان او الطير الذي يذبح على اسم احد او شيء غير الله وكذا على الطعام الذي يذبح لغير الله . والحق ان كبل

شيء من الله وإلى الله وممنوح من فضله ويده . ولذا ينبغي أن ينذر له وحده علامة على الاقرار بفضله ونعمته فان نذر الانسان شيئا لأحد غير الله فهذا يعني انه قد اعترف بمن نذر له سلطانا اعلى ومانحا للنعم وواهباً للخير والفضل او على الاقل شريكاً لله في هذه الامور .

فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٣﴾

في هذه الآية رخص للمسلمين ان يطعموا ويشربوا ما حرمه الله تحت شروط ثلاثة :

١ — ان تكون الحالة حالة اضطرار فعلاً كأن تكون الروح على وشك الهلاك جوعاً او عطشاً او يتهددها شبح الموت وليس هناك طعام او شراب ميسور غير ما هو « حرام » .

٢ — الا تكون في قلب المضطر رغبة في معصية او امر الله والخروج على قاتونه .

٣ — الا يتجاوز المضطر حدود الضرورة . فان كان يضع كسرات او قطرات او قضمات من الطعام أو الشراب الحرام تكفى لانقاذ روحه فعليه الا يزيد عن ادنى حد يحفظ بقاءه .

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيُسْتَرُونَ بِهِ، ثُمَّ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ

اولئك هم علماءهم واحبارهم الذين حجبوا عن العوام ما كان عندهم من علم بالكتاب وزكوا شيوخ الخرافات والعادات الباطلة والقيود التي لا اساس لها والتي تمخضت عن ميلاد دساتير جديدة وشرائع مستحدثة فارتكبوا بذلك جريمة الصمت عن فشو السنن الخبيثة بين العوام والسكوت عما كانوا يقتربونه ويتخذونه من مسالك ما انزل الله بها من سلطان . ليس هذا فحسب بل ان الاحبار رأوا في هذا نفعا لهم ومصلحة فتركوا شريعة الله خافية محجوبة عن اعين الناس مجهولة على عقولهم .

وَلَا يَكْتُمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾

هنا تنفيد للدعوى الزائفة التي طنطن بها الزعاء والائمة المزعومون
وحرصوا على نشرها بين العامة . فهم يحاولون ان يقرأوا في اذهان
الناس طهر اصلهم وكرم محتدهم وبراعة سرهم وقوة تأثيرهم ونفوذهم
وورعهم وصلاحتهم . والناس يعتقدون بضرورة التمسك بهم واتباع طرقهم
كى يتوسطوا لهم عند الله ليغفر لهم . فالله يرد على ذلك في هذه الآية
قائلا اننا لن نلتفت اليهم او نقر بطهرهم وصلاحتهم .

أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ
فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ تَزَلَّ الْكِتَابَ
بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ
بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ * لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ
وَالْمَغْرِبِ

هنا ضرب الله مثلا بالتوجه الى المشرق والمغرب ليوضح عدم جدوى
التمسك بظاهر الشعائر والطقوس الدينية حيث لا خير في مجرد استقبال
المشرق او المغرب في الصلوات ، قاصدا بذلك أن يفهم الناس ان مجرد
أداء الشعائر والعبادات الشكلية أو اظهار التقوى والورع ليس بالخير
الحقيقى عند الله ولا وزن لذلك في عينه تعالى .

وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ
وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ
وَأَبْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ
وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ
وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾
يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ

لفظ « القصاص » يرمز الى تساوى الحيوانات في حالات القتل ومع هذا فهو لا يعنى وجوب قتل القاتل بنفس الطريقة التى قتل بها بل يعنى فقط ان تسلب حياته كما سلب هو حياة من قتله .

الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأَنْثَى

في هذه الآية اقر الله مبدأ المساواة في الحياة لمواجهة أدق متطلبات العدالة فتقييم الحياة وبالتالي تقدير العقوبة عليها لا يحدد بمنصب القاتل أو القاتل وأهميته ولهذا فقد تقرر بوضوح أن القاتل وحده هو من يدفع ثمن جريمته .

ولقد كان الناس قبل الاسلام يولون حياة أبناء قبيلتهم أهمية وقدرًا كبيرًا ويطلبون من قبيلة القاتل حياة رجل من نفس المرتبة والمنصب أو أرواح عشرات ومئات ثأرًا وانتقامًا وفقًا لأهمية القاتل وقدره . ومن جانب آخر اذا كان القاتل أعلى قدرًا من المقتول قضوا بالآل تؤخذ حياته مقابل حياة القاتل . هذا الظلم والحييف لم يقتصر على تلك الحقبة الجاهلية دون غيرها بل حتى الامم المتحضرة اليوم لا تخلج من التصريح علانية بأن لو قتل من افرادها رجل فسوف تأخذ نظيره ارواح خمسين من قوم القاتل وكثيرا ما نسمع ان كذا من الرعايا قد قتلوا انتقاما لقتل احد افراد الامة الحاكمة . أما ان كان القاتل من أمة متحضرة حاكمة والمقتول من أمة محكومة غير متحضرة ترى قضائهم النزهاء لا يحكمون عليه بالموت . ولكي يقينا الله شرور هذه الاحكام الظالمة امر بضرورة اخذ حياة القاتل — والقاتل وحده دون غيره — نظير حياة القاتل بصرف النظر عن حسب او نسب كليهما .

فَمَنْ عَنِ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ

استخدام كلمة « أخيه » هنا يحوى نوعا من التوصية فكأن الله يريد ان يقول « رغم أن القاتل قد آلمك وافجعك الا انه في النهاية اخوك بحكم ما بينكما من علاقة انسانية لذا فان تكظم غيظك وتكبح غضبك من أخيك الأثم المخطيء المسىء وتحجم عن التأثر والانتقام وتغف عن توقيع عقوبة الموت عليه فسوف ترفع من مستوى آدميتك وانسانيتك » .

كذلك تبين هذه الآية ان القاتل في قانون العقوبات الاسلامي جريمة يمكن تسويتها وديا كما تعطى اهل القاتل حق العفو عن القاتل ان رأوا ذلك انسب وفي هذه الحالة ليس في استطاعة المحكمة ان تصر على قتله ويصبح عليه بالطبع ان يدفع الدية عوضا عن العقوبة اذا طالب المدعى الشرعى (اهل القاتل) بذلك .

فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدِ الْأَيْدِيَّ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ

كلمة « معروف » استخدمت في مواضع عدة في القرآن وهى تعنى القواعد السلوكية العادلة المنطقية المعروفة والمقبولة لدى الأشخاص العدول . وهى قواعد وأسس معروفة واضحة حتى أن كل من لا تلمس بصيرته أهواؤه ومصالح شخصه يقرها ويعترف بها حقا وعدلا . هذه القواعد والاعراف العامة تسمى « معروفا » وتقررهما الشريعة الإسلامية فى كل أمر لم يضع الشارع فيه قانونا واضحا أو قاعدة قاطعة .

ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ

عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾

إذا حاول أهل المقتول مثلا الثأر والانتقام بعد قبولهم الدية فهذا ظلم وتعدى ، كذا أن رواج القاتل (أو أولياؤه) فى دفع الدية أو لم يشأ تسليمها بالحسنى أو سلك فى هذا مسلكا بغضا فهذا تعدى أيضا فكلا الطرفين يجب أن يكون شهما نبلا . ويحترم مشاعر الود التى يظهرها الطرف الآخر تجاهه .

وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾

هذه الآية تدمغ دعاوى من يريدون الغاء العقوبة القصوى (الاعدام) فان كان الإصرار على الثأر دون مبالاة بكافة الاعتبارات الأخرى عملا وحشيا فان تشجيع القتل عن طريق الغاء الحد الأقصى للعقوبة الغاء تاما فهو عمل يساويه فى الوحشية . من أجل هذا يعلن الله أن فى القصاص حياة . فلو أن مجتمعا لم يرع حرمة الحياة وحاول حماية القاتل فهو بهذا يشجع الناس على ارتكاب الجريمة ويجعل أرواح كثير من الأبرياء عرضة للجور والخطر .

كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ

وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾

هذا الامر بكتابة الوصية اصدره الله حين كان قانون الميراث لم يتقرر بعد وكان الهدف من هذا الامر حماية الورثة الشرعيين ضد العسف والجور غير ان الرسول صلى الله عليه وسلم بينه لنا على قاعدتين في ضوء قانون الميراث الذي شرعه الله في صورة النساء . الاولى ان لا احد يورث وريثا شرعيا شيئا بوصية يعنى لا انقاص ولا زيادة في الانصبة التي جردها القانون ولا يؤخذ من وريث نصابه او ينال اكثر من حقه الذي خوله له القانون . الثانية ان التوريث بوصية قد حدد بثلاث الميراث فحسب يعنى ان المرء ينبغي ان يترك ثلثي ثروته ليقسم بين الورثة حسب ما يقضى به القانون وقد يورث ذويه المعوزين — الذين لم يعطهم القانون نصيبا من الميراث — ثلث ثروته بوصية او يترك هذا الثلث للاعمال العامة وما اليها . لذا فمن الخطأ ان نزع ان القانون الخاص بكتابة الوصية قد نسخ والى تمام كذلك فهو حق فرضه الله على المتقين فان نفذ في اسلوب مناسب وبطريقة عفيفة نظيفة فان عديدا من المشاكل سوف تجد لها حلا — مثل مشكلة توريث الحفيد اليتيم وغيرها — دون التلاعب بقانون الميراث الاسلامي .

فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوَسَّعٍ أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ

نهج الاسلام في اغلب احكامه وفروضه نهج التدرج . وهذا دينه في مسألة الصوم ايضا . فلقد نصح الرسول عليه الصلاة والسلام اتباعه اول الامر ان يصوموا ثلاثة ايام كل شهر ولم يكن ذلك فرضا مفروضا . ثم فرض الله على المسلمين صوم رمضان في العام الثاني للهجرة بتنزيله الامر الوارد في هذه الآية . ومع هذا كان ثمة خيار للقادرين عليه ان يفتدوا صيامهم باطعام مسكين عن كل يوم يفطرونه (انظر آية ١٨٤) ثم بعد ذلك اصدر الله امرا نهائيا قاطعا (الآية ١٨٥) نسخ به ما سبق وسلب القادرين على الصيام ما كان اعطى لهم من رخص واجازات وسمح بها للمرضى ومن هم على سفر فحسب وللجبالى والرضعات والمحنين قياسا .

فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ

يعنى من اطعم اكثر من مسكين عن كل يوم يفطره او من اطعم مسكينا وصام في نفس الوقت .

وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾

كان الامر بالصوم الذى ورد في الآيتين ١٨٣ ، ١٨٤ قد نزل في السنة الثقلية للهجرة قبل وقعة بدر اما الآية التالية التى نسخته فقد نزلت بعد عام آخر لكنها ادرجت هنا لانها تعالج نفس الموضوع .

شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى
وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ
فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ

شركت الامر حرية الاختيار في ان يصوم او يفطر ان كان على سفر وقد صام بعض الصحابة وفطر بعضهم حين كانوا مع النبي في سفر ولم يعترض الرسول عليه الصلاة والسلام على اى من الفريقين بل ان الرسول صلوات الله وسلامه عليه نفسه صام احيانا وافطر اخرى في بعض اسفاره

وجاء في الحديث الشريف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في سفر فرأى رجلاً قد اجتمع الناس عليه وقد ظلل عليه فقال « ماله قالوا رجل من صلواتك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس البر ان تصوموا في السفر » .

كذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم يأمر المقاتلين بارجاء الصوم الى ما بعد القتال ويروى عمر بن الخطاب رضى الله عنه انهم افطروا رمضان مرتين بأمر من الرسول . اولاهما في وقعة بدر وثانيتهما في فتح مكة ويقول ابن عمر رضى الله عنهما ان النبي عليه الصلاة والسلام قال في فتح مكة « انه يوم قتال فلفطروا » وفي رواية اخرى « انكم قد دنوت من عدوكم فانفطروا اقوى لكم » .

وليس بين أيدينا تصريح من أحاديث الرسول يبين قدر المسافة التي من أجلها يفطر المسافر . وسنة الصحابة مختلفة في هذا الباب والصواب أنها المسافة التي تسمى في العرف العام سفراً والتي يشعر المرء فيها أنه بالفعل على سفر .

والمتفق عليه أن المرء له أن يفطر في اليوم الذي يبدأ فيه سفره سواء أكل ثم خرج من بيته أو أكل بمجرد خروجه منه فكل الأمرين ثابت في أصوة الصحابة .

أما عن افطار المرء أن كان يقيم في مكان يهاجمه العدو فهناك اختلاف في الرأي حوله وبعض العلماء لا يجيزونه لكن الإمام أحمد بن حنبل أفتى بجوازه استناداً إلى أدلة قوية وحجج دامغة .

يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾

يا له من اله كريم رحيم واسع الجود والفضل لم يشأ أن يحرم عبده من فضل ادراك الصيام فلم يجعله قصراً على شهر رمضان بل فتح برحمته وعطفه باباً آخر أمام من فاتهم الصوم لأسباب شرعية كي يصلوا من خلاله إلى ادراك فضل الصوم وذلك بأن أمرهم بصيام ما فاتهم في أيام آخر ليكملوا عدته وليحمدوا الله على خير نعمة أنعمها عليهم وهي تنزيله القرآن في هذا الشهر العظيم .

وواضح من الآية أن صوم رمضان لم يفرض كشكل من أشكال العبادة والتدريب على تقوى الله فحسب بل كحمد لله وثناء عليه واعتراف بحسن جميله الذي أسداه إلى المسلمين وهو تنزيله القرآن إليهم في هذا الشهر .

والحق أن امثل طريق لشكر الله وحمده على نعمته هذه هو أن نعمل بكل جهد على تحقيق ما من أجله أسبغ الله علينا هذه النعمة . فسبحانه وتعالى انعم علينا بنعمة القرآن ليبين لنا هداة ومرضاته وعلينا تحقيق ذلك وحض الآخرين عليه . وما الصوم إلا عبادة لله ونبع يمدنا بأفضل وأوفى تدريب في ذلك ، ودليل على شكرنا لله وثناؤنا عليه لما جانا من نعمة كبرى هي القرآن الكريم .

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي

يعني رغم انكم لا تستطيعون رؤيتي او ادراكي بحواسكم الا انني
 لست بعيدا عنكم ولا يجب ان تظنوني هكذا . فاني قريب من كل عبد من
 عبادي اذا دعاني اسمع واجيب حتى سؤالاته ومطالبه التي تجيش في
 صدره ولا ينطق بها لسانه ان الالهة المزعومة التي تخلقونها بانفسكم
 في جهالتكم وحمافتكم مهما ذهبت اليهم فلن يسمعوكم او يجيبوا لكم سؤالا
 لما انا فاني السلطان الاعلى والحاكم المطلق للكون اللامتناهي ومالك كل
 شيء ورب كل قوة وسلطان فعال لما اريد اسمعكم واراكم واجيب دعاءكم
 دون ان تلزمكم وساطة احد ليرفع الى طلباتكم اينما كنتم ومتى شئتم وأيما
 كانت منزلتكم في الحياة الدنيا . فعليكم اذن ان تخلصوا انفسكم من حماقة
 السعي من درب الى درب خلف الالهة الباطلة المزعومة وتقبلوا دعوتي
 وتتوجهوا الى وتؤمنوا بي وتصيروا لي عبادا خاضعين .

لَعَلَّكُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾

يعني لعلهم يتعلمون منك (ايها الرسول) هذه الحقيقة فيسلكوا
 الطريق القويم الذي فيه فلاحهم ورشدهم .

أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ
 مِنْ لِبَاسٍ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ

يعني ان العلاقة ما بين الزوجين كذلك التي بين الثياب والجسد .
 فكما ان اللباس والجسد ملتصقان ببعضهما متناسبان لا يتخلل بينهما
 شيء كذلك المرء وزوجه يرتبط كلاهما بالآخر وثيق الارتباط وكل منهما
 للآخر مصدر راحة ونبع سكينة متبادلة .

عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ
 فَالْآنَ بَاشِرُوهُمْ وَأَبْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ

رغم انه لم يصدر من الله أمر صريح بادیء الأمر بمتع اتصال المرء
 بزوجه في ليالي رمضان الا ان المسلمين حسبوا هذا غير مباح لهم حتى ان
 كان بعضهم اذا فعلوه استقبحوه وشعروا انهم مذنبون ولاموا انفسهم
 فخيف ان تتربى في المسلمين عقلية مذنية مجرمة ولذا اخبرهم الله أولا

بخيانتهم أنفسهم وضمائرهم ثم أحل لهم ليلة الصيام الرفث الى نسائهم
حتى يفعلوا ذلك وضمائرهم ساكنة ونفوسهم مطمئنة .

وَكُلُوا وَاشْرَبُوا

كذلك كان يشيع بين المسلمين فهم خاطيء حول ميقات الاكل والشرب
في رمضان فكان بعضهم يرى ذلك ممنوعا من بعد صلاة العشاء حتى غروب
شمس اليوم التالي ، وآخرون كانوا يظنون ذلك مباحا ما دام الانسان
متيقظا حتى ولو بعد صلاة العشاء ولا يمتنع عن الطعام والشراب الا اذا
نام وكثيرا ما كان الضيق والانزعاج يفرط عليهم بسبب هذه الظنون التي
صورتها لهم اذهانهم فأزال الله عنهم كل ضيق ومحا عن البابهم ما ساء
من تصورات وحدد لهم في هذه الآية فترة الصيام من فجر اليوم الى غروبه
واحل لهم الطعام والشراب والنكاح من غروب شمس اليوم الى فجر اليوم
التالي . وقد نصحن الرسول وارشدنا الى ان نتناول وجبة السحور قبل
الفجر استعدادا للصيام .

حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ

جعل الاسلام الحنيف قياس الوقت في شعائره هو القياس الذي
يستطيع البشر تطبيقه في كل زمان ومكان وهذا هو السبب في انه لا يضع
حدود شعائره بناء على الساعات وآلات التوقيت البشرية وانما يحددها
بعلامات واضحة في سماء الكون . وهذا معيار زمني يناسب الناس في كل
عصر ومصر ويمكنهم تحديده بقياس الساعات الزمنية بين حدود وعلامات
المعيار الالهى المقررة ليناسب ظروفهم . أما الذين لا يفهمون
فلسفته فيشيرون اعتراضات خرقاء واسئلة حمقاء يقولون — مثلا — ان
العمل بهذا الميقات الالهى محال عند قطبي الكرة الارضية حيث يدوم
الليل أو النهار الى شهور وينسون انه حتى في الأقاليم القطبية تظهر
علامات الصباح والمساء والظهر وغيره بانتظام كما في المناطق الاخرى وان
القاطنين هناك ينظمون اوقات عملهم ولعبهم وراحتهم ونومهم ونحوه وفق
ظهور هذه العلامات وحين لم تكن ثم آلات لضبط الوقت كان سكان
المنطقة الشمالية يحددون اوقاتهم بهذه العلامات .

ثُمَّ أَتَمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ

المراد باتمام الصيام الى الليل انتهاءه حين يبدأ حد الليل في الظهور

وبالطبع يبدأ حد الليل بغروب الشمس ولذا علينا ان نفطر عند مغيب الشمس .

اما السحور فينتهي موعده برؤية خيوط الصبح البياض ترتفع في الجانب الشرقى من الافق واما الافطار فيبدأ حين ترتفع ظلمة الليل من الافق الشرقى في نهاية النهار . والناس في هذه الايام يتشددون ويتزمتون اعتباطا في تحديد وقت السحور والافطار الا ان الشريعة تخلو من مثل هذا التحديد الصارم بالدقيقة والثانية فبضع دقائق او ثوان زيادة او نقصا لا تفسد الصيام فبزوغ السحر الابيض من وسط ظلمة الليل السوداء يحمل في داخله متسعا وفسحة وحلال للمرء اذا استيقظ من نومه ان طلوع الفجر ان يسرع فيأكل ويشرب . فلقد جاء في الحديث :

ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يمنعن احدا منكم اذان بلال (أو نداء بلال) من سحوره فانه ينادى ليرجع قائمكم ويوقظ نائمكم »

كذلك في الافطار ليست هناك ضرورة لانتظار زوال ضوء النهار أيا كان بعد غروب الشمس فلقد روى في الحديث الشريف ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في سفر فلما غابت الشمس قال لرجل انزل فاجدح لنا فقال يا رسول الله لو امسيت قال انزل فاجدح لنا قال ان علينا نهرا فنزل فجدح له فشرب ثم قال اذا رأيتم الليل قد اقبل من هاهنا (واشار بيده نحو المشرق) فقد افطر الصائم .

وَلَا تَبْشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ

الاعتكاف عبادة تطوعية في العشر الاواخر من رمضان وذلك بأن يحبس المرء نفسه في المسجد متعبدا متفكرا ليله ونهاره الى جانب أدائه الفروض . ويستطيع المرء ان يخرج من المسجد ليقضى حاجاته الضرورية القصوى ولكن عليه ان يعتزل ملذات الدنيا ويجتنب الرغبات والنزوات .

تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا

لم يقل سبحانه وتعالى لا تتعدوها بل قال لا تقربوها ومعنى هذا انه خطر على المرء ان يحوم عند المقام الذي يبدأ عنده حد المعصية . والسلامة في ان يبقى المرء بعيدا عن الحدود كي لا تنزلق قدمه وتتخطاها سهوا ونسيانا . وقد بين الرسول عليه الصلاة والسلام هذا المعنى في حديثه فقال : « لكل ملك حمى وان حمى الله محارمه فمن رتع حول الحمى يوشك ان يقع فيه » ومن اسف ان بعض من يجهلون شريعة الله يصرون على ان يقربوا هذه الحدود رغم هذا التحذير الواضح بل ويقدمون كثير من العلماء والشيوخ زناد عقلهم بحثا عن الاسانيد التي تبيح لهم الذهاب الى آخسر

الحدود ونهايتها حيث لا يبقى فاصل بين الطاعة والمعصية غير شـعـرة دقيقة مما نتج عنه ان ازدادت المعاصي ووقع الناس في الضلالة اذ ليس في وسع كل انسان ان يميز الحد الدقيق الفاصل بين الطاعة والمعصية ويقربه ثم يسيطر على نفسه ويتحكم فيها .

كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِنَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ *

معنى هذه الآية الا تحاولوا الحصول على فائدة شرعية برشوتكم الحكام . ومعناها الثاني أن عليكم ألا تذهبوا الى المحاكم لتأكلوا أموال الناس — وأنتم تعلمون انها أموالهم — بحجة ان ليس لديهم ما يثبت ملكيتهم لها . فقد يحكم القاضي باعطائكم تلك الاموال لكن حكمه هذا غلط في اصله وصادر بناء على ادلة ومستندات زائفة ومع حصولكم على حكم من المحكمة يخولكم ملكية هذه الاموال الا ان هذا لا يعنى ان ملكيتكم لها قد اضحت حقا مشروعاً بل انها عند الله حرام في حرام .

جاء في الحديث ان الرسول عليه الصلاة والسلام قال : « انما انا بشر وأنتم تختصمون الى ولعل بعضكم يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما اسمع منه فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فانما اقضى له بقطعة من النار »

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ

شد ما استحوذت منازل القمر على انتباه البشر في كل آن . وما اكثر ما وجد في كل بلد من خرافات وطقوس بشأنها . والعرب — كأمة من الامم — كانت تسود بيئتهم عدة خرافات حولها فكانوا يستفتونها في الاعمال والاسفار ويرون فيها طوابعهم في الزواج والحياة وما اليها ويؤدون لها بعض الشعائر الخرافية لانهم كانوا على اعتقاد بأن للاهلة وخسوف القمر تأثيراً في حظوظهم وسلطانا على ثرواتهم . من اجل هذا سألوا الرسول عليه الصلاة والسلام عنها فأجابهم الله انها ليست سوى مواقيت طبيعية . وذكر الحج على وجه الخصوص لاهميته الدينية والثقافية والاقتصادية لدى العرب وقد تحدت له وللعمرة اربعة اشهر من العام يتوقف فيها القتال وتؤمن الطرق وتزدهر التجارة لما يحل من سلام واستقرار .

وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى
وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾

هذه كانت واحدة من عاداتهم الخرافية فكانوا اذا احرموا للحج لا يدخلون بيوتهم من ابوابها وانما يتسلقون الاسوار والجدر من الخلف والله في هذه الآية لم يدحض هذه العادة الخرافية فحسب بل اخبرهم ان ليس للخير والبرصلة بالعادات والشعائر الخرافية التي تمارسونها مقلدين آباءكم واجدادكم عيانا بلا تدبر او تمحيص .

وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُمْ

يعنى قاتلوا الذين يصدونكم عن سبيل الله ويعاودونكم لانكم تريدون اصلاح نظام الحياة وفق قانون الله وهديه ويستخدمون كل طاقات الظلم والجبر والاضطهاد ليعوقوا مهمتكم الاصلاحية .

ولقد كان المسلمون قبل هذا ضعافا متخطفين في الجزيرة العربية فأمروهم الله بالدعوة السلمية الى الاسلام وبالصبر والجلد على طغيان الكافرين اما وقد اقاموا دويلتهم في المدينة فقد اذن لهم لأول مرة بخوض النزال ضد من كانوا يعارضونهم فوقعت حرب بدر بعد ذلك وبها بدأت سلسلة من المعارك بين المسلمين والكافرين .

وَلَا تَعْدُوا إِنَّ اللَّهَ لَاجِبُ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾

أمر الله المسلمين بوجوب ألا يكون هدفهم من الحرب مصالح انفسهم او المكاسب المادية او الثأر والانتقام ومن ثم تحتم عليهم الا يقاتلوا من كانوا يقاومونهم أو يعوقونهم عن أداء مهمتهم هذا الى جانب أن الرسول عليه الصلاة والسلام اعطى تعاليم مفصلة لجعل الحرب ذات طابع انساني فنهى المسلمين عن استخدام الاساليب البربرية في الحرب وعن اىذاء الاطفال والنساء والشيوخ والجرحى وحرمة التمثيل بجثث القتلى وابادة المحاصيل والنخيل والحيوانات والجنوح الى الوحشية والهمجية والتخريب بكل أنواعه وفنونه . واذن للمسلمين باستخدام القوة حيث يكون لا مفر من استخدامها وبالقدر الضرورى دون زيادة او اسراف .

وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْتُلُوهُمْ وَأُخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ
وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ

ألفظ « الفتنه » في هذه الآية مستخدم في نفس المعنى الذى تؤدية الكلمة الانجليزية PERSECUTION ويعنى اضطهاد شخص أو جماعة لآيمانه بأفكار ونظريات غير تلك التى تسود فى عصره ومجتمعه ولما حاولت إصلاح نظام المجتمع عن طريق النقد والدعوة .

ومعنى الآية : أن القتل واهراق الدماء عمل سيء بلا شك ولكن قيام جماعة من البشر بفرض أفكارها على الناس بالقوة ومنعهم من قبول الحق ومواجهة محاولات الإصلاح والتغيير بالقوة الوحشية بدلا من مقارعتها بالحجة والادلة لهو بالنسبة للقتل أشد سوءا وفضاعة وتنحية مثل هذه الفئة واجتثاثها بقوة السيف حلال مشروع تماما .

وَلَا تَقْتُلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقْتَلُوا فِيهِ
فَإِنْ قَتَلْتُمْ فَأَقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جِزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾
فَإِنْ أَنْتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٢﴾

يعنى عليكم أن تتحلوا بصفات الله الذى به تؤمنون ، فهو سبحانه غفور رحيم يعفو عن أعتى العصاة ويرحم المجرمين . فتخلقوا بخلافه واصطبغوا بصبغته وليكن قتالكم فى سبيله ومن أجل قضيتته لا لاثرة أو منفعة أو ثأر أو انتقام ولتقاتلوهم طالما أصروا على صديكم عن سبيل الله واستمروا فى قتالكم فان جنحوا للسلم وتركوا موقفهم العدائى منكم ومن رسالتكم فاجنحوا له وامتنعوا عن قتالهم .

وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ

لفظ فتنه مستخدم فى هذه الآية فى معنى مغاير لمعناه فى الآية السالفة (١٩١) . وواضح من سياق الآية أن المقصود به وضع المجتمع الذى

لا أمان فيه ولا ضمان لاقرار دين الله ولذا حرض المسلمون على مواصلة القتال لتغيير هذا الوضع الفاسد واستعادة السلام والحرية واقرارهما بتطبيق دين الله .

وكلمة (دين) في العربية تعنى في أصلها الاذعان والخضوع والتسليم أما من الناحية الاصطلاحية فتستخدم للتعبير عن نظام الحياة الذى يقوم على حاكمية سلطة عليا بطاع أوامرهما وتنفيذ قوانينها . ومن ثم فنظام المجتمع الذى يحكم فيه الانسان أخاه الانسان ولايستطيع أحد فيه تطبيق دين الله واتباع نهجه إنما هو (فتنة) وما هدف الاسلام من الحرب والقتال إلا محو هذه الفتنة والقضاء عليها واقامة دين الله فى أرضه لتمكين الناس من أن يحيوا قانتين لله عبادا خاضعين وفق قانونه وشرعته .

فَإِنْ أَنْتَهُوا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٣٤﴾

لايعنى هذا أن الاسلام بحرض المؤمنين على القتال لاجبار الكافرين — بحد السيف — على التخلّى عن كفرهم واعتناق دين الله بدلا منه بل يعنى أن الهدف من قتالهم هو أوبتهم عن الفتنة ورجوعهم عنها . وحقيقة الأمر أن الاسلام يمنح غير المسلمين كافة حرية الاعتقاد ، فكل حق اعتناق ما يختار من أساليب الحياة وطرقها وأن يعبد أولا يعبد مايشاء ، وهو يحض المسلمين على جدال الكافرين والفاستقين — كى يتخلوا عن ايمانهم الزائف وطرقهم الباطلة — بالحجج والبراهين فحسب لكنه لايسمح لهم بقتال الكافرين لهذا الغرض . ومن الناحية الأخرى لايعطى الاسلام أحدا حق تنفيذ أى قانون بشرى على عباد الله وجعلهم عبادا لغير الله . وفى سبيل القضاء على هذه الحالة سمح الاسلام للمسلمين — بالدعوة والوعظ والارشاد — وكذا بالقتال بما يتلاءم ومقتضيات الظروف والموقف . فسيطره الكافرين السياسية وحاكميتهم القانونية فتنة لايعرض للمؤمنين طرف مالم تستأصلها سيوفهم وينالوا الحرية فى اقامة دين الله .

ويستنتج من قوله : « **فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين** » انه اذا حل الحكم الإسلامى محل الحكم اللا الهى فعلى المسلمين أن يعفوا عن خصومهم الامن كانوا منهم متشددين طغاة ظالمين متطرفين فى مواجهتهم ومعارضتهم للحق . ورغم أن الاسلام يوجب على المؤمنين أن يعفوا وقت النصر والظفر إلا أن لهم الحق فى عقاب من يستحلون كل حرمة ويتعدون كل حد فى معارضتهم العمياء واضطهادهم المبرر . والرسول عليه الصلاة والسلام نفسه — الذى كان مثالا مجسدا للرحمة والعدل — استفاد من هذا الترخيص وقضى باعدام اثنين من الاسرى فى بدر . وبجدرينا أن نذكر فى هذا المقام أن الرسول رغم اصداره عفوا شاملا بعد فتح مكة ، استثنى من هذا العفو سبعة عشر شخصا من افطع المعتدين الظالمين رانساهم وقضى باعدام اربعة منهم .

الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ

هذه الآية اجابة السؤال الذى طرح حول القتال فى الأشهر الحرم
ذى القعدة وذى الحجة والمحرم وقد خصصوا لأداء فريضة الحج وشهر رجب
وقد جعل لأداء العمرة . وقد سميت بالأشهر الحرم لأنها كانت حراما حتى
منذ عهد ابراهيم عليه السلام فما كان فيهن حرب ولا قتال ولا سرقة ولا نهب
ولا اعتداء أو انتهاك لقانون كى يتمكن حجاج البيت من أداء مناسكهم
والعودة فى أمن وسلام .

غير أن العرب بداوا شيئا فشيئا ينتهكون قدسية هذه الأشهر
بلجؤهم الى حيل مأكرة فكانوا يبدلون ترتيب الشهور ليناسب هواهم فان
أرادوا نهباً أو انتقاماً أو ما اليه وكان الشهر حراماً انتهكوه ثم حرّموا شهراً
غيره . لهذا تمكنت الحيرة من أذهان المسلمين فما العمل لو انتهك الكافرون
قدسية شهر حرام وسلّكوا هذا المسلك الاثيم وهاجموهم فيه ؟

فمحت هذه الآية ما ران على أذهانهم من حيرة وقلق وأباححت لهم قتال
الكافرين فى الأشهر الحرم أن بدأوا بالعدوان ، أما من جانبهم فعليهم الا
يتعدوا حدود الله فى أى حال وإذا حفظ الكافرون حرمة الأشهر الحرم وكفوا
عن القتال فيهن فعلى المسلمين أن يقابلوا الصنيع بمثله أما ان انتهكوها
واعتدوا على المسلمين فواجب عليهم أن يردوا عدوانهم ويقاتلوهم فى نفس
الشهر الحرام

فَمَنْ أَعَدَّى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعَدَّى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ
وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٥﴾ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ
إِلَى التَّهْلُكَةِ

الانفاق فى سبيل الله هو التضحية المتوالية فى أى وقت من أجل بناء
طريق الحياة الذى أقره الله وبه أمر . والآية تعنى أنكم ان أنتم أنفسكم
ولم تنفقوا أموالكم وممتلكاتكم فى سبيل إقامة دين الله فسوف تهلكون أنفسكم
فى الحياة الدنيا وتستجلبون عليها العذاب يوم القيامة . ونتيجة لهذا يدع
الله الكافرين فى دنياكم بيسيطرون عليكم وفيكم يتحكمون ويحكمون حتى اذا
رجعتم اليه فى آخركم سامكم سوء العذاب لتقاعسكم عن بذل ما أعطاكم فى
الدنيا فى سبيله .

وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾

الاحسان من الحسن . ومعناه القيام بالعمل باتقان واداء العمل يكون على درجات . الاولى أن يؤدي المرء ما أسند اليه من عمل وكفى والثانية أن يحاول اتمامه باحسان ويبدل قصارى الجهد وأقصى ما في الإمكان لانجازه وتحقيقه . والدرجة الاولى هي درجة الطاعة والتي يكفى للوصول اليها أن يكون دافعها تقوى الله والخوف منه أما الثانية فهي الاحسان والتي لا بد للوصول اليها من وجود الحب والشفق والتعلق .

وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ

يعنى ان أقعدتم عن مواصلة السير الى الكعبة واضطررتم لقطع رحلتكم فغربوا لله ذبها من البقر أو المعز أو النياق ونحوه .

وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ

ثمة اختلاف فى رأى حول ما قصد به لفظ « محله » فى هذه الآية فيرى الحنفية أنه يعنى حدود المسجد الحرام فان أقعد المرء فى رحلته فعليه أن يرسل حيوانا أو مالا يشتري به حيوان يذبح هناك نيابة عنه قربانا الى الله على حين يرى المالكية والشافعية أن (محله) يعنى المكان الذى فيه أقعد المرء عن مواصلة السير وذبح الهدى انما يتم فى هذا المكان .

فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ
أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ

هناك حديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوجهنا فيه الى أن المرء فى هذه الحالة عليه أن يصوم ثلاثة أيام أو يطعم ستة مساكين أو يضحى على الأقل بمعزاة أو جدى .

فَإِذَا أَمِنْتُمْ

الامن هنا يعنى زوال هذه الحالة التى تسبب فى إقعاد المرء أيا كانت بما فى ذلك اعتداء العدو وغارته .

فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ
فِصْيَامَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتَ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ
ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ

كان العرب قبل مولد الاسلام يظنون أن أداء الحج والعمرة في رحلة واحدة اثم وخطأ وكانوا قد تعارفوا على ضرورة القيام برحلة مستقلة لكل منهما . فرفع الله عنهم في هذه الآية ما فرضوه على أنفسهم من قيد وأباح لمن لم يكن أهلهم حاضري المسجد الحرام أداء الحج والعمرة في رحلة واحدة واستثنى من ذلك أولئك الذين يسكنون في مكة داخل حدود الحرم ومواقفهم أذ ليس عسيرا عليهم أداء الحج والعمرة في رحلتين منفصلتين .

والمراد بالتمتع بالعمرة الى الحج أن يحل المرء احرامه بعد العمرة ويتحرر من قيوده فاذا مادخلت أيام الحج أحرم من جديد .

وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ
فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ

ليست مباشرة الأزواج لبعضهم فحسب حراما بل كذلك كل نوع من الحديث بينهم يثير الفرائز والشهوات .

وَلَا فُسُوقَ

رغم أن المعاصي كلها حرام في كل حين إلا أن وزرها أثناء الاحرام أشد وذنبيها أكبر .

وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ

ليس للمرء أن يجادل أو يزجر أحدا حتى ولو كان خادمه .

وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزُودُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ

وَأَتَّقُوا يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾

هذه الآية تمحو من أذهان المسلمين فكرة خاطئة عن التقوى فقد كان العرب قبل الإسلام يعتبرون التزود لرحلة الحج عملاً دنيوياً وأن التقى هو من يذهب إلى بيت الله دون متاع دنيوى فأعلن لهم الله في هذه الآية أن ليس البر أن تذهبوا إلى الحج دون زاد ومؤونة ولكن البر من اتقى الله وأطاعه وأبقى على حياته طاهرة عفة نظيفة . فقد لايتزود المرء لرحلة الحج لكنه يفعل المنكرات في الحج دون خشية من الله وبذا يضع التقوى موضع السخرية ويحقر نفسه وحجه في نظر الناس والله على السوء ، أما ان كانت تقوى الله وخشيته تملا قلبه وسان خلقه طاهرا عفا فسينال احترام الله والناس ولو كان قد تزود بكل شيء في رحلته .

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ

كان العرب يظنون — خطأ — أن القيام بأى نوع من العمل أو الاتجار أثناء الحج سعى دنيوى يفسد على الحاج حجه فأعلن لهم القرآن في هذه الآية أن لو رعى المؤمن شرعة الله وقانونه وتاجر في بعض الأشياء يكسب منها قوته فهو بهذا يبتغى فضل ربه حقاً . وليس في ابتغاء فضل الله — مع أرضائه — اثم أو خطأ .

فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ

كَمَا هَدَيْتُكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِّنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾

يعنى عليكم بترك العادات الجاهلية الكافرة التى تعودتم ممارستها الى جانب عبادة الله ، واعبدوه وحده وفق ما حباكم من الهداية والرشاد .

ثُمَّ أَفِضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾

درج النابى منذ زمن ابراهيم واسماعيل عليهما السلام على الذهاب من منى الى عرفات فى التاسع من ذى الحجة ثم العودة من هناك الى المزدلفة

في مساء نفس اليوم ثم ما لبث القرشيون بعد ذلك أن تعالوا على البشر وتكبروا وزعموا أنه مما يحط من قدرهم وشرفهم أن يذهبوا إلى عرفات في صحبة الآخرين لأنهم هم أهل الحرم الشريف . وعلى هذا احتفظوا لأنفسهم بهذا امتياز وراحوا يتوقفون في المزدلفة ويدعون الآخرين يمضون إلى عرفات ثم اتسع نطاق هذا الامتياز ليشمل أقرباءهم وحلفاءهم فأبطل الله في هذه الآية الشعائر الأساسية قبل الرجوع إلى مكة وأن يستغفروا الله على سالف مسلكهم الذي شذ عن ملة إبراهيم ومسلكه .

فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا

كان العرب قبل الاسلام اذا قضوا مناسك الحج التقوا في منى وراحوا يتفاخرون فيما بينهم بمآثر آبائهم واجدادهم ومحامد انسابهم وعروقتهم فامرهم الله هنا أن يدعوا هذه العادات الجاهلية ويقضوا أوقاتهم في ذكر الله وحمده والثناء عليه لا في الاشادة بمناقب اجدادهم ومحامدهم .

فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ

فِي الْآخِرَةِ مِمَّنْ خَلَقَ ﴿٢٠١﴾ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا

فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠٢﴾

أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا ۖ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٣﴾

* وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ ۖ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ

فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ

يعنى ليس بالشئ الهام أن تعودوا من منى إلى مكة في الثاني أو الثالث عشر من ذي الحجة خلال أيام التشريق إذ لا أهمية لعدد الأيام التي تمكثونها في منى بل المهم كيفية قضائها وما اذا كنتم قضيتوها في توطيد العلاقة بالله أم ضيعتموها في اللهو واللغو .

لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنكُمُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَمِنَ النَّاسِ
مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ

هذا الصنف من البشر ينتظار بالاخلاص وبنانه لا يريد للناس الا الخير
والصلاح ويؤكد لهم هذا قائلا « يشهد الله أنني لا أنوي الا الخير ولا أعمل
للمنفعة أنالها أو مصلحة أصيبها بل من أجل الحق والصواب وسعادة الناس
وخيرهم » . الا أن كل ما يصدر عن هذا الرجل من كلام ناعم وقول
معسول هو نفاق في نفاق .

وَهُوَ الَّذِي الْخَصَامُ ﴿٢٠٤﴾

الخصام الحق لانه لا يتردد — في عدائه له — في استخدام أى نوع من
الزيف والخيانة والزور وانعدام الامانة أو النزوع الى أسلوب أخرق آخر
رغم لسانه الاملس الناعم وحديثه المعسول المقبول في ظاهره وايمانه المغلفة
وحلفه بالله .

وَإِذَا تَوَلَّىٰ

قد تعنى اذا ساد وحكم أو اذا توجه الى الحياة اليومية بعد هذا
الكلام المعسول .

سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ
الْفُسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ۖ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ
وَلَيْتَسَ الْمُهَادُّ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ

اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ
إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾

يعنى ادخلوا فى الاسلام دخولا تاما دون ادنى تحفظ وانخفض افكاركم ونظريانكم وثقاتكم وحضارتكم وعلومكم وسلوكم ومسايلاتكم وجهودكم فى كل شعبة من شعب الحياة لمبادئ الاسلام ولا تقسموا حياتكم الى قطاعات وشرائح فتتبعون الاسلام فى بعضها وتلفظونه فى بعضها الآخر .

فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾

يعنى انه قوى قادر على عقاب المجرمين يعلم كيف يعاملهم ويتصرف معهم .

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٢٢١﴾

ينبغى أن نولى هذه الكلمات انتباها خاصا لأنها تعلن حقيقة عامة كبرى . لقد بعث الله الانسان الى هذه الدنيا لتمحيصه واختباره وأنزل الحقيقة مع رسله المصطفين ومنح الانسان الحرية فى أن يؤمن بها ويخضع لها أو يكثر بها ويتمرد عليها فهو سبحانه يخفى عن الانسان الحقيقة ويدعه يحكم عليها بعقله فى ضوء تعاليم رسل الله وكتبه وآياته التى يبينها المرسلون ولا يظهرها له سافرة صريحة فلا يبقى أمامه خيار سوى تصديقها والاعتراف بها لان هذا لو تم لاصبح الاختبار والنجاح أو الاخفاق لامعنى له . لذا يحذرنا الله وكأنه يقول : لا تنتظروا الى حين ياتى الله فى جلاله والملائكة قبلا لان فى ذلك الوقت لن تبقى أمامكم فرصة أخرى للبلاء والاختبار ويصبح الايمان والخضوع بلا قيمة أو فائدة ، اذ أن قيمته تكمن فى حال اختفاء الحقيقة عن مداركم وحواسكم فتصلون اليها وتعترفون بها عن طريق عقاكم وغطرتكم السليمة وتثبتون شجاعتكم الأخلاقية بالخضوع لها دون قهر أو قسر . أما حين ترون الله راي العين على عرش مجده وجلاله والملائكة يعملون فى السماوات والأرض وإذا بكم فى قبضته أجمعين يومئذ لا ينفع ايمان ولا تصديق ولا يجروا أشد المجرمين وأعتى الكافرين على الكفر أو العصيان لكن ذلك لن ينفعهم أو يفيدهم لان زمن الامتحان يومئذ يكون قد ولى وانقضى . فان أميط الستار عن الحقيقة وبدأت سافرة لكل انسان لن تكون ثم فرصة أخرى ولن يمنح الناس وقت امتحان اضافى لأنها ستكون ساعة الفصل يوم الحكم والحساب .

سَلَّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ
 بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ رَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ
 الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
 وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ
 اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ

لقد طلب الله الى المسلمين ان يسألوا بنى اسرائيل خاصة عن ذلك ،
 لأنهم كانوا درسا حيا للمسلمين الذين يتولون زعامة العالم في مكانهم .
 فلقد أنعم الله على بنى اسرائيل بالنبوة والكتاب وجعلهم للناس اماما وأسند
 اليهم لواء الزعامة لهداية البشرية اجمعين لكنهم حرموا أنفسهم نعمة الزعامة
 بدخلولهم مداخل السوء وسقوطهم في قذارة الفزوات والرغبات الدنيوية
 وجنحوحهم الى النفاق وفعل الشر والمعرفة الزائفة . من أجل هذا حذر الله
 المسلمين وهم الذين أتوا في مكانهم كي يقوا أنفسهم المآثم والشرور على
 اختلاف ألوانها ويتخذوا من تاريخ بنى اسرائيل درسا وعبرة .

وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ

فِيمَا اختلفوا فيه وَمَا اختلف فيه إِلَّا الَّذِينَ أوتوه من

بَعْدَ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ

ءَامَنُوا لِمَا اختلفوا فيه مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي

مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾

في هذه الآية تنهار عمد نظرية التطور التدريجي في الدين والتي يزعم فيها
 من سمو بالعلماء ان الانسان بدا حياته الدينية في ظلام وجهالة فبدا يعبد
 الطبيعة والالهة المتعددة ثم مالبت تدرجا ان عبد الله لكنه اشرك معه الهة

آخرين واستمر على هذه الحال قرونا طويلة الى ان اكتشف أخيرا وحدانية الله .

والقرآن يقول — مناقضا هذا — ان الحياة الانسانية بدأت في نور من الله كامل وأنه تعالى حين خلق الانسان الأول — آدم — أنزل اليه الحقيقة وأراه الصراط السوى . شابت ذرية آدم طريقه رجحا طويلا وكانوا جميعا أمة واحدة ثم شرعوا بعد ذلك في اتباع طرق أخرى وابتدع أديان جديدة رغم أن الحقيقة كانت قد بينت لهم تماما إلا أنهم أرادوا أن يخولوا أنفسهم قدرا أكبر من الحقوق والقدرات التي قررتها لهم الحقيقة فأرسل سبحانه وتعالى رسله لمنع الضالين الباغين من سلوكهم هذا ودعوتهم الى دين الله الحقيقي وطريقه الأصلي . فالرسل لم تبعث لتكوين جماعات دينية جديدة تتسمى بأسمائهم بل ليعيدوا من ضلوا الى صراط العزيز الحميد وإلى دين البشر الحقيقي وإلى الأمة الواحدة التي تكونت وفق هداية الله منذ بدأ الانسان حياته على وجه البسيطة .

أَمْ حَسِبْتُمْ

أغفلت بين هذه الآية وسابقتها قصة كاملة لأن هذه الآية نفسها تدل عليها كما أنها رويت بالتفصيل من قبل في السور التي نزلت في مكة . ففي الآية السابقة تقرر أن الرسل قد بعثوا لازالة الاختلافات التي طرأت على الدين القويم لكن قصة ما لاقوه من مصاعب وعنت بالغ واضطهادات مميّنة حذف ذكرها لأنها وصفت تفصيلا في السور المكية التي نزلت من قبل ومن ثم يخبر الله المؤمنين أن الرسل وأتباعهم كان عليهم دائما أن يناضلوا ويكافحوا كفاحا مريرا ضد الباغين على الله المتمردين على أمره من أجل اقامة دينه تعالى وأن الايمان بالاسلام ايمانا حقيقيا ليس طريقا تفتريه الورود ولذا فعلى المؤمن أن يجاهد لاقامة دين الله وأن يقاتل قوى الشر والضلال التي تعارضه حتى ولو كلفه ذلك التضحية بحياته .

أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمِ الْبَاسَاءِ
 وَالضَّرَاءِ وَزُلُّوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ
 نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّهِ الدِّينُ
 وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ
 بِهِ عِلْمٌ ﴿٢١٥﴾ كُنِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا
 شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا
 تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ
 عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ
 اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ

الاعتراض الذى ورد هنا فى صيغة سؤال عن مشروعية القتال فى
 الشهر الحرام يشير الى حادث وقع فى شهر رجب من العام الثانى للهجرة
 حين أرسل النبى عليه الصلاة والسلام فريقا من ثمانية أفراد الى « نخلة »
 — محلة فى منتصف الطريق بين مكة والطائف — لمراقبة تحركات العدو
 واستطلاع خططه . ورغم أنه لم يصرح لهم بالقتال هاجموا قافلة صغيرة
 لقريش وقتلوا واحدا منها وأسروا بقية أفرادها وأحضرهم وبضاعتهم
 الى المدينة .

ولما كانت هذه الواقعة قد حدثت فى وقت لم يكن قد تحدد فيه على وجه
 القطع أن رجب قد انتهى بالفعل وبدأ شهر شعبان ساور الجميع الشك حول
 ما اذا كان الهجوم قد تم فى رجب وهو شهر حرام أم فى شعبان . ومع ذلك
 اغتنتها قريش وحلفاؤها فى السر — اليهود والمنافقون فى المدينة — فرصة
 وانتهم من عند الله للتشنيع بالمؤمنين والسخرية منهم والتهمك عليهم قائلين
 هاهم الاتقياء المتدينون لم يتورعوا عن سفك الدماء حتى فى الشهر الحرام .
 فرد الله كيدهم فى نحركم وأنزل على رسوله هذه الآية التى تعنى أن اراقة
 الدماء ولا شك شئ دميم شنيع ولكن اعتراض هؤلاء عليه ليس أمرا معقولا
 لانه صادر عن ترعوموا أعنف ألوان الاضطهاد طوال ثلاثة عشر عاما ضد
 المئات من أخوتهم لانهم آمنوا بالله الواحد القهار فلم يكرهوهم على الخروج
 من ديارهم المحببة الى نفوسهم فحسب بل حرموهم حتى من زيارة الكعبة وهى

المكان المقدس الذي لا يخضع للملكية أحد . ولقد كانت جريمتهم هذه على درجة من الفظاعة والفظاظة كبرى حتى أن الألفى عام السابقة قد خلت مما يماثل هذه العداوة والخصومة الشرسة لهذا لم يكن لهؤلاء الظالمين — الذين اسودت قائمة جرائمهم لكثرتها — أى حق فى اقامة مزاعمهم واعتراضاتهم على أساس حادث حدود تافه . وفوق هذا فهو قد وقع دون اذن من النبى عليه الصلاة والسلام فلم يكن اكثر من عمل قام به نفر قليل من الجماعة الاسلامية دون شعور بالمسئولية .

وينبغى أن نضع فى أذهاننا أن هؤلاء الأفراد الذين ارتكبوا هذا الحادث حين رجعوا الى رسول الله بالغنائم والأسرى أنكر منهم هذا ورفض قبول نصاب بيت المال من الغنائم . وهذا يبين انها كانت عملية غير مشروعة تمت دون اذن او تصريح حتى ان عامة المسلمين لاموا رجالهم على ما فعلوا ولم يكن فى المدينة مسلم واحد راضيا عن فعلتهم هذه .

وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ
 اسْتَطَعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ
 فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ
 أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾

تأثر بعض بسطاء المسلمين — ممن كانوا يفهمون السلام بمفهوم خاطيء — بالاعتراض الذى اثاره كفار مكة واليهود فى الآية السابقة فأوضح الله فى هذه الآية الا تأملوا فى ان يحل بينكم وبينهم الصلح والسلام اذ ما كان الغرض وراء اعتراضهم هو السلام بل الطعن فى الاسلام والمسلمين وطالما انكم تؤمنون بهذا الدين وتدعون العالم لقبوله فلن يحل بينكم وبينهم وئام بأى حال من الأحوال . ولا تحسبوا ان مثل هؤلاء أعداء عاديين ممن يريدون اغتصاب أموالكم وثرواتكم وأراضيكم وانما هم صنف أعنى من هذا وأسوأ اذ الصنف الأول يريد تدمير دنياكم فحسب وهى زائلة لا محالة فى حين يبغي الآخر تدمير حياتكم الاخرى — وهى الخالدة الابدية — ويود تجريعكم غصة وعذابا سرمديا .

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ
رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ *

الجهاد في اللغة بذل أقصى ما في الجهد لتحقيق هدف ما وهو لا يعنى مجرد الحرب وإنما يستخدم لفظ « القتال » في معنى « الحرب » المجردة والجهاد ذو معنى أوسع من هذا واشمل يضم بين جنبيه كل نوع من الجهد .

والمجاهد هو من يسعى دائما لتحقيق هدفه ويخطط له بعقله ويدعو له بلسانه وقلبه ويكافح من اجله بكل قلبه وجسده وروحه ويوقف إمكاناته وما تحت يديه من وسائل في سبيل اعلائه ورفعته ويقابل كل مشقة تعترض سبيله بكل ما أوتى من قوى وطاقات ولا يأسى أو يحزن أو يتلكأ اذا ما كلفه ذلك روحه ذاتها . كل هذا هو الجهاد ، والجهاد في سبيل الله هو ان يفعل المرء كل هذا من اجل رضا الله وحده والا يكون امام ناظره غرض آخر سوى اقامة دين الله في الأرض وجعل كلمة الله هي العليا وبذا ينضح ان جهاد المسلم ليس هو مجرد الحرب العامة ضد الكفار .

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ
وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا

هذه هى اولى التعليمات عن الخمر والمسكرات والقمار والمراهنة وقد أعلن أول الأمر مجرد عدم قبولها وذلك تمهيدا لتحريمها تحريما قاطعا . وكانت الخطوة التالية تحريم الصلاة على المسلمين وهم سكارى ثم اخيرا حرمت الخمر وما شابهها تحريما باتا . (انظر النساء ٤٣ والمائدة ٩٠)

وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْغُسُّ كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكَ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ
تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ
لَهُمْ خَيْرٌ

صدرت عدة تحذيرات شديدة بشأن حفظ حقوق اليتامى قبل نزول هذه الآية كقوله تعالى « ولا تقربوا مال اليتيم » وغيرها مما جعل المسلمين

يخافون خوفا شديدا لدرجة ان كان الوصاة على اليتامى يفصلون بين اموال كليهما فصلا تاما حتى في وجبات الطعام . ومع كل هذا كانوا يخشون اختلاط شيء من اموال اليتامى بأموالهم فيجلبوا على انفسهم غضب الله وسخطه . وهذا هو السبب في انهم سألوا الرسول عليه الصلاة والسلام ان يضع لهم حدود علاقاتهم باليتامى فأجاب الله ان افعلوا ما فيه خيرهم ونفعهم حقا ثم اتبع ذلك بقوله « **وإن تخالطوهم فآخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح** » .

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَبَكُمْ^ج إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنَ^ج وَلَآئِمَةٌ^ج مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَا تُحِبُّوكُمْ^ج وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبٌ^ج مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَا يُعْجِبُكُمْ^ج أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ^ج وَيَسِّرُ^ج لِّلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾

السبب الذي من أجله حرم على المؤمنين الزواج من المشركين ان « **أولئك يدعون إلى النار** » ومعنى هذا ان هذه الزيجات قد تضل المسلمين إلى الكفر لأن العلاقة الزوجية ليست جنسية خالصة بل هي روحية وعقلية كذلك . وكما ان الزوج المسلم قد يؤثر في زوجته المشركة وذريتهما ويقودهم إلى الاسلام كذلك قد يؤثر الزوج المشرك في زوجته المسلمة وذريتهما ويدفعهم إلى الكفر والشرك ونتيجة لهذه الزيجات قد ينشأ في الأسر خليط من الاسلام واللا اسلام . وقد يقبل غير المسلم هذا لكن المسلم لا يقبله ولا يمكن لمن يؤمن بالاسلام حقا ان يخاطر بهذا ارضاء لنزواته وشهواته والافضل ان يكبح عواطفه من ان يفعل ما قد يسلمه إلى الكفر والشرك والوثنية او على الاقل يقود ذريته ونسله إلى دار البوار .

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى

الأذى يعنى المرض ويعنى القذارة فليس الحيض نجسا فقط بل هو مرض كذلك . والنساء اثناء فترة الحيض هن اقرب — طبيا — إلى حالة المرض منها إلى حالة الصحة والعافية .

فَاعْتَرِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ

يستخدم القرآن التلميح غير المباشر والكناية الخفية عند حديثه عن مثل هذه الأمور الحساسة فقوله « فاعترلوا » و « ولا تقربوهن » لا يعنى اعتزال النساء تماما وعدم لمسهن خلال فترة الطمث كما يفعل اليهود والهندوس وبعض الأمم الأخرى . ولقد بين لنا الرسول عليه الصلاة والسلام ان هذا يعنى عدم جماعهن في طمثهن وحسب اما كافة العلاقات الزوجية الأخرى فتبقى كما هي .

فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾

« أَمَرَكُم » لا تشير الى أمر صادر من الله أو قانون بل الى الفريضة الفطرية الطبيعية التي وضعها الله في طبيعة كل انسان وحيوان وكما هي معروفة لكل فرد .

نِسَاءُكُمْ حَرَّتْ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنْتُمْ

الم يخلق الله النساء لمتاع الرجال وكفى بل ان ما بين الزوجين من علاقة هي امر هام وجاد مثل ما بين الزارع وحقله . فالزارع لا يذهب الى حقله لمجرد الانتعاش والاستجمام والمتعة بل من أجل زراعته والحصول على انتاج منه . « فزارع النسل الانساني » عليه ان يذهب الى « حقل الانسانية » الخاص به ليزرع ويحصد (نسلا) وشريعة الله لا تبحث اساليب زراعة هذا الحقل بل تطلب من الرجل ان يذهب الى حقله هو وبغرض زراعته والحصول على انتاج منه .

وَقَدِّمُوا أَنْفُسَكُمْ

هذه العبارة العربية واسعة في معناها شاملة في مفزاها فقد تعنى ان عليكم بالتكاثر والانجاب لاستمرار جنسكم وسلالتكم او تعنى ان عليكم بذل الجهد الشاق الكبير لتنشئة وتربية وتدريب اولادكم على الاسس

السليمة . وكلا المعنيين مقصود منها في هذه الآية ولذا اخبرهم الله في الآية التالية « واتقوا الله واعلموا انكم ملاقوه » فيحاسبكم على ما ارتكبتموه من اهمال متعمد لهذه الفروض .

وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٢﴾ وَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا
وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٣﴾

تعلمنا الاحاديث النبوية الصحيحة ان لو اقسم المرء قسما عشوائيا طائشا على فعل شيء او الامتناع عن فعل شيء ثم تحقق بعد ذلك من ان الكياسة تتطلب ابطاله والحنث به فليكفر عنه . وكفارة اليمين اطعام عشرة مساكين او كسوتهم او عتق رقبة فمن لم يستطع فصيام ثلاثة ايام (انظر المائدة ٨٩) .

لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ

يعنى لا كفارة على ما يحلفه المرء من ايمان بطريقة لا شعورية كعبارة متداولة ولا عقاب عليها .

وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾
لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ

صحيح ان علاقات الزوج وزوجته لا تستمر حارة على الدوام الا ان شريعة الله لا تسمح باستمرار العلاقات الفاسدة المتوترة دون تحديد . لذا شرع الله فترة قصوى هي اربعة اشهر من الانفصال يعيش فيها الزوجان منفصلين في الواقع دون اتصال او علاقات زوجية لكنهما يظلان زوجين من الناحية الشرعية والقانونية وهذا ما يسمى « بالايلاء » في الفقه الاسلامي . وعليهما خلال هذه المدة ان ينصالحا او يفترقا بالرضا والمعروف كي ينال كلاهما حريته في الزواج من شخص آخر يناسبه .

ويرى فقهاء الحنفية والشافعية في هذه الآية ان فترة الشهور الاربعة تنطبق فقط على الحالات التي يتم الانفصال فيها عن طريق الحلف اما ان ظل الزوجان منفصلين لاي فترة دون قسم فلا ينطبق عليهما هذا القانون

وسندهم في هذا الرأي الفاظ الآية ذاتها « **لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ** » فالإيلاء هو الحلف
أما المالكية فيرون أن هذه الفترة تنطبق على كل حالات الانفصال . واثـر
عن ابن حنبل قول يؤيد هذا .

ويرى سيدنا على بن عباس والحسن البصري رضي الله عنهما أن
هذا القانون ينطبق على الانفصال الناجم عن توتر العلاقات دون غيره ولا
ينطبق على الانفصال الذي يتم باتفاق الطرفين ورضاها من أجل خير
مشترك مع الاحتفاظ بعلاقات طيبة فيما بينهما .

وهناك فقهاء آخرون يرون أن قانون الإيلاء ينطبق على أية حالة
من حالات الانفصال تتم بناء على حلف أو قسم بغض النظر عما إذا كانت
العلاقات بين الزوجين تظل حسنة أم سيئة ومن ثم يجب ألا يزيد الانفصال
عن الأربعة أشهر المحددة .

فَإِنْ فَاءٌ وَفَإِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾

يميل بعض الفقهاء في تفسير هذه الآية إلى أنهم إذا حنثوا إيمانهم
ولم يفوا بأقسامهم خلال الشهور الأربعة وأعادوا علاقاتهم الزوجية إلى
طبيعتها فليس عليهم كفارة الإيمان . وسوف يعفو الله عنهم ويغفر لهم
نقضهم لإيمانهم إلا أن غالبية الفقهاء يرون ضرورة قضاء الكفارة على
أى حال . إذ لا تعنى الفاظ الآية « **فَإِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** » سقوط الكفارة
وإنما تعنى فقط أن الله سيقبل الكفارة ويعفو عما بدر من الزوجين من أخطاء
أثناء فترة الانفصال .

وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ

بناء على ما قضى به سيدنا عثمان بن عفان وسيدنا عبد الله بن مسعود
وزيد بن ثابت وآخرون رضي الله عنهم أجمعين يستطيع الزوجان
الرجوع بعد الانفصال خلال الأشهر الأربعة فحسب ويعد انقضاء هذه
المدة دليلاً في ذاته على أن الزوج قد عزم الطلاق ومن ثم يتم الطلاق بعد
انقضائها تلقائياً ويفقد الزوج حق المراجعة ومع هذا فإن قبلاً أن يتزاوجا
مرة أخرى فلهما ذلك . وقد قضى بهذا سيدنا عمر وعلى وابن عباس وابن
عمر رضوان الله عليهم في حالات مماثلة وقبل هذا الحكم فقهاء الحنفية .

ويرى سيدنا سعيد بن المسيب ومكحول والزهرى رضي الله عنهم
وآخرون أن الطلاق يقع تلقائياً بعد انقضاء الأشهر الأربعة لكنه يكون
طلاقاً قبلاً للإلغاء من جانب واحد ويكون للزوج فيه حق مراجعة الزوجة في

خَلاَلِ فِتْرَةِ الْعِدَّةِ فَإِنْ انْقَضَتِ الْعِدَّةُ وَلَمْ يَرَا جَعَهَا فَلَهُمَا أَنْ يَتَزَوَّجَا مَرَّةً أُخْرَى إِذَا أَرَادَا .

وعلى عكس ذلك ترى السيدة عائشة وسيدنا أبو الدرداء رضي الله عنهما وكثير من فقهاء المدينة رفع الأمر إلى القضاء بعد انتهاء الأشهر الأربعة كي يأمر القاضي الزوج بإعادة الشمل أو الطلاق . وقد قضى سيدنا عمر بن الخطاب وعلى بن أبي طالب وابن عمر رضوان الله عليهم بهذا وقبله الإمام مالك والإمام الشافعي أيضا .

فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٨﴾

يعنى اتقوا الله ولا تعزموا الطلاق لأسباب تافهة ليس لها وجه قوى وتبرير سليم لأنه تعالى بكل شيء عليم .

وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبَعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾

اختلف الفقهاء في تفسير هذه الآية فالحنفية يرون أن للزوج حق مراجعة زوجته في الفترة حتى وقت طهارتها من ثالث حيض . وهذا رأى سيدنا أبي بكر وعمر وعلى وابن عباس وأبي موسى الأشعري وابن مسعود وبعض كبار الصحابة الآخرين رضي الله تعالى عنهم أجمعين . والشافعية والمالكية يرون أن الزوج يفقد حق مراجعة زوجته فور نزول ثالث دورة شهرية عليها وهذا رأى السيدة عائشة وابن عمر وزيد بن ثابت عليها رضوان الله . ومع ذلك ينبغي أن نفهم فهما جيدا أن الزوج له حق مراجعة زوجته في حال أن ينطق بالطلاق مرة واحدة أو مرتين لكنه يفقد هذا الحق في حال النطق بالطلاق ثلاثا .

الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَالُهُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُهُ بِإِحْسَنٍ

هذه الآية قصد بها علاج مرض اجتماعي خطير كان يعم الجزيرة قبل الاسلام حيث كان للزوج مطلق الحرية في ان يطلق زوجته متى شاء وبلا حساب وطالما كانت علاقته بزوجته متوترة طلقها ثم ردها ثم طلقها ثم ردها متى وكيف اراد . وبهذا ما كان للزوجة ان تحظى بعلاقات زوجية معه أو تتحرر من قيده لتتزوج بآخر . فأغلقت هذه الآية باب هذه الوحشية والاضرار البالغ واعطت للزوج حق طلاق ومراجعة الزوجة الواحدة مرتين فقط في حياته الزوجية كلها فان طلقها ثالثة فانفصال عنها الى الابد .

ولضبط التسرع في السلوك وترك باب الصلح مفتوحا في مراحل عدة ينبغي ان يتم الطلاق — ان كان لا مفر منه — بالاسلوب الصحيح الذي يعلمنا اياه القرآن الكريم والحديث الشريف وهو ان يكون في رقت لا تكون الزوجة فيه في طمئتها فان حدث خلاف أثناء حيضها فلا يصح الطلاق في هذه الفترة بل على الزوج الانتظار الى ان تطهر فيطلقها مرة واحدة اذا اراد . ثم ينتظر الى الدورة الشهرية التالية فيطلقها المرة الثانية بعد ان تطهر اذا شاء ذلك ثم ينتظر الى الحيض الثالث ويطلقها المرة النهائية بعد طهرها . ومع كل هذا فمن الافضل الانتظار واعادة دراسة الامر وامعان العقل فيه بعد المرة الاولى والثانية حيث يكون للزوج حق المراجعة بعد انقضاء العدة اما ان طلقها الزوج للمرة الثالثة فلا حق له في مراجعتها ولا يستطيعان الزواج من بعضها مرة اخرى .

أما بالنسبة للجهلاء الذين يطلقون الثلاث مرات دفعة واحدة فهم يرتكبون خطيئة فاحشة واثما مبينا في حق شريعة الله . والرسول عليه الصلاة والسلام ادان هذا الاسلوب اشد ادانة وكان عمر رضي الله عنه يجلد من يفعله .

وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَاءٍ مَاتُمْ مِنْ شَيْءٍ

ليس للزوج حق استرداد ما اعطاه للزوجة من مهر أو حلى أو ثياب أهدها اليها لأن هذا يتعارض مع أخلاق الاسلام التي تأبى استرداد ما يهديه المرء الى أى انسان . والرسول عليه الصلاة والسلام يشبه من يفعل هذا الصنيع الذى يخلو من الوفاء والشهامة بالكلب الذى يأكل تقيؤه . ومما يشين الزوج ويخزيه حقا أن يسترد بعد الطلاق أو حتى يطلب استرداد ما كان اعطاه بنفسه لزوجته . والحق ان الاسلام يأبى هذا رلا يرضاه بل انه يحض الزوج على ان يعطى زوجته متاعا عند رحيلها . (البقرة ٢٤١) .

إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ حَفِظْتُمُ إِلَّا يُقِيَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ

إذا أرادت المرأة زوجها على طلاقها ببذل منها له فان هذا يسمى في الفقه الاسلامي « خلعة » بضم الخاء فان اتفق الزوجان على شروط لانتمام ذلك فيجب تنفيذها كاملة كما اتفقا عليها فان رفع الامر الى القضاء فعليه ان يثبت - قبل كل شيء - من ان الزوجة كارهة لزوجها تماما لدرجة يستحيل معها اقترانهما في حياة سعيدة ثم يقرر القضاء ما يراه مناسبا كتعويض للزوج . وعلى الزوج القبول والاذعان وتطبيق روجته ويرى الفقهاء عامة ان التعويض يجب الا يتعدى قيمة المهر الذي دفعه الزوج .

وفي مثل هذه الحالة يفقد الزوج تماما حق مراجعة زوجته لان هذا الحق قد بيع للزوجة ان جاز لنا استخدام هذا التعبير وبالطبع لهما ان يتزوجا مرة ثانية ان ارادا ذلك .

وعند اغلب فقهاء المسلمين عدة الخلعة هي نفس عدة الطلاق غير ان ابا داود والترمذي وابن ماجه وآخرين رووا احاديث عن النبي عليه الصلاة والسلام تفيد انه قرر عدة الخلعة حيا وحدا بعد طلاقها وقضى بهذا سيدنا عثمان بن عفان في حالة مماثلة .

تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٩﴾
فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَكَحَّ زَوْجًا غَيْرَهُ

توجد احاديث صحيحة عن النبي صلى الله عليه وسلم تحذر من أي تدبير مسبق لهذا الامر بأن يتزوج رجل ما المرأة المطلقة على أساس ان يطلقها من بعد ليتمكن زوجها السابق من الزواج منها مرة ثانية (وهو ما يسمى بين العامة بالمحلل) فهذا حرام واثم كبير ولن يكون زواجا شرعيا على الاطلاق بل زنا كما ان الزوجة لا تصبح زوجة شرعية للزوج الاول عن طريق هذا التدبير المسبق وقد روى سيدنا علي بن ابي طالب وابن مسعود وابو هريرة وعقبة بن عامر رضي الله عنهم الحديث الذي يؤيد هذا وهو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « لعن الله المحلل والمحلل له » .

فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَلَٰكِنْ حُدُودُ اللَّهِ يَبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا لَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لَتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ

لا يصح لامرئ ان يطلق زوجته ثم يراجعها قبل انقضاء العدة لا لشيء
الا لينال فرصة اخرى لايلاهما والاضرار بها . لذا امر الله ان لو ذن الزوج
بنوى مراجعة زوجته حقا فعليه ان يراجعها ولديه النية في معاملتها معاملة
حسنة والا فخير لهما ان يسرحا بالمعروف وبأسلوب شريف عفيف .

وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ
الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ بِعَظُمِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ
عَلِيمٌ ﴿٢٢١﴾

يعنى لا تنسوا ان الله قد غينكم في منصب ذى مساوية عظمى فأعطاكم
الكتاب وعلمكم الحكمة واسند اليكم واجب هداية العالم وجعلكم أمة وسطا
وشهداء بالحق والخير وهذا لا يوجب عليكم أبدا أن تهزأوا بكتبه بلجوتكم
الى أساليب المراوغة والمغالطة والاحتتيال على ألفاظ الشريعة ومعانيها
الحرفية وتعيشوا في دوركم وبيوتكم حياة ظالمة فاسدة عفنة على حين ان
المفروض عليكم توضيح الطريق الصحيح للعالم اجمع .

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغُنَّ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضِلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ
إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ

يعنى اذا وافق الطرفان على ان يتزوجا مرة اخرى بعد انقضاء العدة
فعلى اقرباء المطلقة الا يمنوها من ذلك . كذا قد تعنى الآية ان من طلق
زوجته ثلاثا فعليه الا يمنعها من الزواج بآخر بعد انقضاء العدة .

ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ
أَنْزَلَ لَكُمْ وَأُظْهِرُ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٢٢﴾ * وَالْوَلَدُ
يُرِضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْعِمَ الرِّضَاعَةَ

هذا ينطبق على كل انواع الانفصال سواء بالطلاق او الخلع او بامر
القضاء اذا كان وليد الطرفين لا يزال رضيعا .

وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا
لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ

فان توفي الاب فعلى الوصى مسئولية تعويض الام او مرضعة الطفل
كما كانت على الاب تماما .

فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ
أَنْ تُسَرِّضُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ
وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٢٣﴾ وَالَّذِينَ يَتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ
وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا

هذه المدة تنطبق حتى على الارامل اللاتي لم يمسهن ازواجهن غير ان
الارملة الحبلية مستثناة من هذا وعدتها ان تضع حملها سواء وضعت بعد
وفاة زوجها مباشرة ام بعده ببضع شهور .

و « يتربصن » تعنى الا يتزوجن من رجل آخر خلال هذه العدة وكذلك
لا يضعن خلالها اى زينة . واحاديث النبى عليه الصلاة والسلام تأمر الارامل
امرا صريحا الا يتزين او يلبسن ثيابا بهية او يضعن شيئا من مستحضرات
التجميل مثلا خلال عدتهن . الا ان ثمة اختلافا فى الراى حول ما اذا كان
على الارملة ان تقضى عدتها فى بيتها ام لا ، فىرى سيدنا عمر بن الخطاب
وعثمان بن عفان وابن عمر والائمة الاربعة رضى الله عنهم ولفيف من اجلة
الفقهاء ان عليها ان تبقى فى منزل زوجها المتوفى . على حين ترى السيدة
عائشة وابن عباس وعلى بن ابي طالب رضى الله عنهم وبعض من كبار
الفقهاء ان لها الخيار فى قضاء عدتها حيث تشاء .

فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ
وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٢٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا عَرَضْتُمْ بِهِ مِنْ
خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنُتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ
لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ
حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ
وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ
مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً

لا محالة من وقوع الضرر على المرأة بأي حال من الأحوال وذلك
لانفراط عقد حياتها الزوجية حتى ولو في حالة (ما لم تمسوهن) لهذا ينبغي
على الزوج ان يعوضها عن ذلك قدر جهده .

وَمِمَّنْ عَمِلُوا عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا
عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ
لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنَصَفْ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ
النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا
تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٢٧﴾

الكرم والسخاء والدمائة والخلق الفاضل المتبادل أمر ضروري لحسن
العلاقات الانسانية لان الحياة الاجتماعية لا تكون سعيدة سعادة تامة
اذا اصر كل طرف على نيل حقوقه القانونية بالنقير والقطمير .

حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ

هنا نرى أن الله سبحانه وتعالى - بعد إعلانه أسس وقواعد ولوائح حماية وثامين السعادة الاجتماعية والعيش حياة مهذبة متحضرة - أكد على أهمية الصلاة كعمسة أخيرة لأنها وحدها التي تبث خشية الله وتقواه ومشاعر الخير في القلوب وتخلق في الأذهان فكرة الطاعة لقانون الله وتثمد المرء الى الطريق القويم . وبدونها لا يكون المرء جادا في طاعته لقانون الله ويصبح عرضة للانحراف الى أى لون من ألون العصيان كما انحرف اليهود .

وَالصَّلَاةُ الْوُسْطَى

يختلف المفسرون حول معنى « الصلاة الوسطى » لكن أغلبهم يرون انها تشير الى احدى الصلوات الخمس وهى صلاة العصر . بيد اننا لا نقف على قول صريح مأثور عن النبى صلى الله عليه وسلم يدعم هذه التفسير . واصحاب هذا الرأى حجتهم فيه ما حدث في وقعة الاحزاب حيث كان الرسول عليه الصلاة والسلام مستغرقا في صد هجوم الاعداء حتى انه لم يجد وقتا لصلاة العصر الى أن غابت الشمس فقال « ملا الله قبورهم وبيوتهم نارا فقد اضاعوا علينا صلاتنا الوسطى » ومن هذا استنتج اصحاب هذا الرأى ان الصلاة الوسطى تعنى صلاة العصر . ولكنى أرى ان ما قصده صلى الله عليه وسلم بهذا ان الاعداء كانوا هم السبب فيما تعرض له المسلمون من خسارة روحية بسبب عدم ادائهم صلاة العصر في وقتها بذهن صاف وقلب مطمئن ولما كانت صلاة العصر هى التى اسف الرسول عليها استنتج المفسرون انها المقصودة بالصلاة الوسطى .

وكلمة « وسطى » فى العربية تعنى (الوسطى) وتعنى « الجيدة » (١) وعلى هذا فالصلاة الوسطى هى الصلاة الوسطى والصلاة الحسنة أيضا التى تؤدى فى وقتها وبحضور كامل مع الله ، يعنى الصلاة التى تتوافر فيها كافة صفات وشروط الصلاة الجيدة . وبقية الآية نفسها « **وَقُومُوا لِلَّهِ خُلُقَيْنِ** » تدعم هذا التفسير الذى يرى أن المقصود بالصلاة الوسطى هو الصلاة الجيدة التى تؤدى لله تعالى وفيها صفات الصلاة الممتازة وليست أى صلاة من الصلوات الخمس المفروضة .

فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾

انتهت المحاضرة السابقة . ثم اضيف اليها ملحق متمم نجده فى الآيات التالية :

(١) أوسط الشيء أجوده وأعدل - الفريسي .

وَالَّذِينَ يَتُوفُونَ مِنْكُمْ وَیَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ
 مَتَّعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ
 عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ
 حَكِيمٌ ﴿٢٤١﴾ وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتَّعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى
 الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤٢﴾ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ
 تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٣﴾ *

ثم يبدأ بالآية التالية خطاب جديد حث الله فيه المسلمين على الجهاد
 وأمرهم أن يقوا أنفسهم تلك السقطات التي ساقطت بنى إسرائيل إلى
 الانحطاط . ولعل معرفة المناسبة الذي نزل فيها هذ الخطاب تعيننا على
 فهمه واستيعابه :

كان المسلمون آنذاك — الذين كانوا قد أخرجوا من مكة منذ قرابة
 عام ويعيشون كمهاجرين في المدينة — يلحون في طلبهم إلى الرسول عليه
 الصلاة والسلام أن يأذن لهم بقتال الكافرين الذين لم نلن لهم قناة في اضطهادهم
 على مدى أعوام خلت حتى إذا ما أذن لهم الرسول بقتال الكافرين بدأت
 تفتت همة بعضهم وتذبل شجاعتهم (انظر البقرة ٢١٦) وهذا هو سبب
 إيراد واقعتين هامتين من وقائع تاريخ بنى إسرائيل لتحذير المسلمين من
 ناحية ولشحن شجاعتهم وإيقاد حماسهم من ناحية أخرى .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ
 اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ
 لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾

هذه الآية تشير إلى خروج بنى إسرائيل (للتفصيل انظر سورة المائدة
 ٢٠ — ٢٦) حين غادروا مصر في جموع كبيرة ضخمة وتاهوا في الصحراء
 القفرة وكانوا يتوقون لأن يجدوا لهم مقرا ووطنا ومستودعا فلما أمرهم
 موسى — بوحي من الله — أن يقاتلوا الفلسطينيين ويخرجوهم من أرض

فلسطين ويدخلوها فاتحين تقاعسوا جبنا ولووا رؤوسهم رفضا واعراضا فتركهم الله لهذا يتيهون في الارض اربعين سنة كي ينقرض ذلك الجيل وينشأ من بعده جيل جديد وسط قساوات الصحراء ومشاقها ثم كتب الله لهم النصر على الفلسطينيين بعد ذلك وقد تعنى ((فقال لهم الله موتوا ثم أحييهم)) هذين الوجهين (١) .

وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ
اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ
وإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾

القرض الحسن هو ما يقرض دون تفكير في عائد شخصي أو نفع ذاتي وإنما ابتغاء مرضاة الله وحده وعلى هذا فالمال الذي ينفق في سبيل الله يعتبره الله تعالى قرضا أعطى له ويعد من ينفقه لا بسداد أصل المال كما أخذ به بدفعه أضعافا مضاعفة شريطة أن يكون « قرضا حسنا » بالمعنى الحقيقي وإن يكون ممنوحا ابتغاء مرضاته ومن أجل ما يقبله هو من أغراض وأهداف

أَلَمْ تَر إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ اأَعِثْ
لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

هذه الواقعة ذكرت هنا كي يعلم المسلمون منذ البداية صعوبة القتال واختنقاته .

فلقد طغى « العمالقة » على بنى اسرائيل فى حوالى عام ألف قبل الميلاد واغتصبوا من ايديهم عدة اجزاء من فلسطين وكان النبی صموئيل — الذى كان يدير دفة الأمور فى اسرائيل — قد وهن العظم منه واشتعل الرأس شيباً فأتى اليه زعماء بنى اسرائيل وقالوا له ها أنت قد بلغت أرذل العمر فاجع لنا ملكا يحكمنا مثل ما عليه الامم الاخرى ويرشدنا ويقاتل معنا فى سبيل الله ، والحق انهم طلبوا هذا لانهم نسوا — فى ظل سيطرة نفوذ الحكام الاجانب غير المتدينين وغلبتهم — أدنى تمييز بين الحكم الالهى والمملكة وهذا ما اغضب صموئيل واثار حفيظته واسخط عليهم ربهم وجلب عليهم لعنته .

ودونكم بعض تفاصيل هذا الأمر كما ورد فى سفر صموئيل الاول
الاصحاح السابع والثامن والثانى عشر .

(١) يعنى انقراض الجيل المتعاقب ثم نشأة الجيل الجديد وكذا الانتصار على الفلسطينيين بعد الجبن والتمرد - المترجم •

« وقضى صموئيل لإسرائيل كل أيام حياته وكان لما شاخ صموئيل فاجتمع كل شيوخ إسرائيل وجاءوا إلى صموئيل إلى الرامة وقالوا له هو ذا أنت قد شخت وابناك لم يسيرا في طريقك فالآن اجعل لنا ملكا يقضى لنا كسائر الشعوب فساء الأمر في عيني صموئيل اذ قالوا اعطنا ملكا يقضى لنا وصلى صموئيل إلى الرب فقال لصموئيل اسمع لصوت الشعب في كل ما يقولون لك . لأنهم لم يرفضوك انت بل اياي رفضوا حتى لا أمك عليهم فلکم صموئيل الشعب الذين طلبوا منه ملكا بجميع كلام الرب وقال هذا يكون قضاء الملك الذي يملك عليكم يأخذ بنيكم ويجعلهم لنفسه لمرأسته وفرسانه فيركضون أمام مرأسته ويجعل لنفسه رؤساء ألوف ورؤساء خماسين فيحرثون حرثه ويحصدون حصاده ويعملون عدة حربه وادوات مرأسته ويأخذ بناتكم عطارات وطباخات وخبازات ويأخذ حقولكم وكرومكم وزيتونكم أجودها ويعطيها لعبيده ويعشر زروعكم وكرومكم ويعطي لخصيانه وعبيده ويأخذ عبيدكم وجواريتكم وشبانكم الحسان وحميركم ويستعملهم لشغله ويعشر غنمكم وأنتم تكونون له عبيدا فتصرخون في ذلك اليوم من وجه ملككم الذي اخترتموه لأنفسكم فلا يستجيب لكم الرب في ذلك اليوم فابى الشعب أن يسمعوا لصوت صموئيل وقالوا بل يكون علينا ملك فنكون نحن أيضا مثل سائر الشعوب ويقضى لنا ملكنا ويخرج ويحارب حروبنا فسمع صموئيل كل كلام الشعب وتكلم به في أذني الرب فقال الرب لصموئيل اسمع لصوتهم وملك عليهم ملكا وقال صموئيل لكل إسرائيل هاأذا قد سمعت لصوتكم وملكت عليكم ملكا ولما رأيتم ناحاش ملك بني عمون آتيا عليكم قلتم لى لابل يملك علينا ملك والرب الهكم ملككم فالآن هو ذا الملك الذي اخترتموه الذي طلبتموه وهو ذا قد جعل الرب عليكم ملكا ان اتقيتم الرب وعبدتموه وسمعت صوته ولم تعصوا قول الرب وكنتم أنتم والملك أيضا الذي يملك عليكم وراء الرب الهكم وان لم تسمعوا صوت الرب بل عصيتم قول الرب تكن يد الرب عليكم كما على آبائكم

وأما أنا فحاشا لى ان أخطىء الى الرب فأكف عن الصلاة من أجلكم بل أعلمكم الطريق الصالح المستقيم وان فعلتم شرا فانكم تهلكون أنتم وملككم جميعا .

يتضح من هذه النصوص أن الله ونبيه لم يقبلا أو يوافقا على مطلب بنى إسرائيل أن يجعل صموئيل لهم ملكا . أما لماذا لم يمقت الله في القرآن هذا المطلب فالجواب صريح واضح وهو أن هذه القصة اوردت هنا كى يفيد منها المسلمون ويأخذوا منها عبرة ودرسا فحسب لذا لم يكن ثم مجال لالظهار الادانة أو الرضا بشأن اقامة « الملكة » . ومناقشتنا لصحة هذا المطلب أو خطئه هنا تخرج عن دائرة الموضوع لان الهدف الوحيد المرجو من ذكر هذه الواقعة هو تقرير أسباب سقوط بنى إسرائيل وجبنهم وأنانيتهم وقلة صبرهم وجلاهم ليكون كل ذلك تحذيرا للمسلمين فيتفادوا هذه العيوب فيما بينهم .

قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا
نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِينِنَا وَأَبْنَاءِ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ
تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ
اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا

تقول التوراة :

وكان رجل من بنيامين اسمه قيس وكان له ابن
اسمه شاول شاب وحسن ولم يكن رجل في بنى اسرائيل أحسن منه من
كتفه فما فوق كان أطول من كل الشعب فضلت أتن قيس أبى شاول فقال
قيس لشاول ابنه خذ معك واحدا من الغلمان وقم اذهب فتش على الاتن
وفيما هما آتيسان في وسط المدينة اذا بصموئيل خارج للقائهما
فلما رأى صموئيل شاول أجابه الرب هوذا الرجل الذى كلمتك عنه هذا
يضبط شعبي فاخذ صموئيل شاول وغلماهما وادخلهما الى
المنسك وأعطاهما مكانا في رأس المدعوين وهم نحو ثلاثين رجلا
فاخذ صموئيل قنينة الدهن وصب على رأسه وقتل أليس لأن الرب
قد مسحك على ميراثه رئيسا فقال صموئيل لجميع الشعب رأيتكم
الذى اختاره الرب (صموئيل الاول ٩ ، ١٠)

لقد مسح شاول على بنى اسرائيل زعيما بأمر الله مثل هارون وداود
وعيسى عليهم السلام لكن القرآن لم يذكر صراحة هل جعل شاول نبيا كذلك
أم لا ، لأن تنصيبه ملكا باذن الله لا يعنى بالضرورة أنه ندد جعل نبيا أيضا .

قَالُوا إِنِّي يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ
الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ
يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ
مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آدَمُ
وَنُوحٌ وَآلُ هَارُونَ

رغم أن ذكر التابوت في التوراة يختلف عن ذكره في القرآن اختلافا يسيرا إلا أننا نستطيع أن نقف منه على الكثير من التفاصيل .

فقد كان بنو إسرائيل يقدسون التابوت أيما تقديس فهو « تابوت العهد » وكانوا يؤمنون أن « بواسطته يدخل (الله) في وسطنا ويخلصنا من يد أعدائنا » من أجل هذا كانت لهم في عودته « سكينة » .

وكان التابوت يحوى بقية من آثار آل موسى وهارون المقدسة هي شطايا من الألواح التى أعطيت لموسى فوق جبل سيناء الى جانب النسخة الأصلية من التوراة التى دونت تحت إمرة موسى وأشرافه وأودعت عند اللاويين (سبط لاوى) كما كان يضم قارورة من المن كى تقدس الأجيال القادمة الله وتحمده وتثنى عليه على ما أنعم به على أجدادهم حين كانوا فى الصحراء ويجوز أن كانت فيه عصا موسى عليه السلام التى كانت آية من الله كبرى .

تَحْلِيلُ الْمَلَائِكَةِ

وقد تكون هذه إشارة من القرآن الى الحوادث المسطورة فى الاصحاحات الرابع والخامس والسادس من سفر صموئيل الثانى والتى تروى أن تابوت الرب قد استولى عليه الفلسطينيون فى معركة لقي بنو إسرائيل فيها هزيمة نكراء فحزنوا عليه كثيرا وبكوا أن « قد زال المجد من إسرائيل لأن تابوت الله قد أخذ » وبقي التابوت فى أرض فلسطين أشهراً سبعة لسنين ذعرا وهلما وفرقا شديدا كان يحل فى كل مدينة دخلها « لأن يد الرب كانت ثقيلة جدا هناك » حتى أن أهل فلسطين بدأوا يصيحون « لا يمكث تابوت اله إسرائيل عندنا لأن يده قد قست علينا » وقرروا إرساله الى إسرائيل فأخذوا بقرتين مرضعتين وربطوهما فى عجلة فاستقامت البقرتان فى الطريق الى طريق « بيتشمس » .

وحيث أن العربة كانت تتوجه بدون سائق اذن فكانت تجرها الملائكة الى بنى إسرائيل بتوجيه من الله .

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمۡ إِن كُنْتُم مِّن مِّمَّنۡ ؕ (٢٤٨) فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ

بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمۡ بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن

لَّمۡ يَطْعَمۡهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةًۭ بِيَدِهِۦ فَشَرَبُوا۟ مِنْهُ

إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ

ثم يكون هذا النهر هو نهر الاردن أو أى جدول أو نهر آخر كان على شاؤول أن يعبره مع جيش اسرائيل ولما كان شاؤول يعلم أنهم على قلة من الصبر وضبط النفس اختبرهم بهذا ليمحص الكفاء من غيرهم والشجعان من الجبناء وطبيعى أن من لم يستطيعوا الصبر على العطش زمنا قصيرا ما كانوا ليقدروا على الصبر والجلد أمام العدو الذى أذاقهم الهزيمة من قبل .

ولأن نفس هذا الامتحان كان جدعون قد أجراه قبل شاؤول انتهى كل من بالمر PALMER ورودويل RODWELL الى استنتاج غريب هو ان الامر قد التيسر فى هذه الاية (٢٤٩) بين جدعون وشاؤول وهما بالطبع يريدان بهذا أن يثبتا أن القرآن ليس كتابا منزلا بل هو من تصنيف محمد «عليه الصلاة والسلام» . ولعمري ما أسخف قولتهم وما أسفه رأيهم فلو أن حادثين متشابهين قد وقعا وذكر أحدهما فى التوراة فهذا ليس حجة ودليلا على أن الآخر لم يحدث لمجرد أن لا ذكر له فى التوراة أضف الى هذا أن أحدا قط لا يستطيع الادعاء بأن التوراة تحوى تاريخ بنى اسرائيل كاملا غيرمنقوص والدليل على هذا أن التلمود يحوى عديدا من الاحداث التى لم يرد لها ذكر فى التوراة .

ج
فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ

يحتمل أن يكون هؤلاء هم الذين اظهروا قلة جلدتهم وصبرهم عند شاطئ النهر .

قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا اللَّهَ كَمِ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ

ج
غَلَبَتْ فِتْنَةٌ كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾

وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا

وَوَثِّقْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾

فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ

تقول النوراة أن داوود كان فتى غير محنك التحق صدقة بجيش
شأؤول وحين كان جالوت بطل الفلسطينيين يتحدى بنى اسرائيل قائلا « انا
عيرت صفوف اسرائيل هذا اليوم أعطوني رجلا فنتحارب معا » سمع بنو
اسرائيل هذا وارتاعوا وخافوا جدا لكن داوود قال لشأؤول « لا يسقط قلب
أحد بسببه ، عبدك يذهب ويحارب هذا الفلسطيني » فرفض شأؤول ذلك
فألح عليه داوود الى أن أذن له بقتاله فلما رآه جالوت ازدراه واحتقره لصغر
سنة وقال له « تعالى الى شأعطى لحمك لطيور السماء ووحوش البرية »
فأجابه داوود يحبسك الرب في يدي فأقتلك . فتعلم كن الأرض أنه يوجد
اله لاسرائيل وتعلم هذه الجماعة كلها أنه ليس بسيف ولا برمح يخلص الرب
لان الحرب للرب وهو يدفعكم اليينا » ثم قتله داوود وذاع صيته بين بنى
اسرائيل فزوجه شأؤول ابنته وصار ملكا على اسرائيل من بعده (انظر
سموئيل الاول ١٧ ، ١٨) .

وَمَا آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ
بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾

يعنى ان الله قد وضع قاعدة ضابطة تنظم الامور على الارض وهى ان
يجعل سبحانه فرقا وجماعات من البشر يعلو شأنهم وينالون غلبة وسطوة
وقوة الى قدر محدود حتى اذا ما تجاوزت احداها حدودها كسرت شوكتها ،
أما اذا جعلت الغلبة والسيطرة فى الأرض لقوم أو حزب على الدوام فلا
محالة من انتشار الفساد فى ملك الله .

تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ * تِلْكَ
الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ
وَمَا آتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْنَا
الَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَّنْ ءَامَنَ
وَمِنْهُمْ مَّنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْنَا وَلَكِنِ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾

المعنى ان الاختلافات التى نشبت بين الناس بعد حصول العلم عن
طريق الانبياء وزادت حدتها ووصلت الى اقتتال ليس السبب فيها أن الله

— جل شأنه وتعالى عن ذلك — لم يكن في مقدوره إيقافها ولو شاء ربك لما جعل أحدا يحيد عن دعوة رسله قيد شعرة أو يسلك سبيل الكفر والعصيان أو يفسد في الأرض لكنه حاشاه أن يكره أحدا على اعتناق دين خاص أو سلوك سبيل معين وهو الملك العادل لأنه لم يبعث الإنسان إلى الأرض إلا اختبارا وبلاء فان سلبه حرية العمل والارادة وجعله مسيرا لا يملك من أمر نفسه شيئا لأضحى الاختيار لا معنى له ولا هدف وراءه . وهو حين أرسل رسله للناس إنما أرسلهم لدعوتهم إلى صراطه المستقيم وأيدهم بالبينات والآيات ولم يرسلهم لأكراه خلقه على الإيمان به والخضوع لسلطانه . فما وقع من خلافات ثم من قتال وحروب سببه أن الناس قد أساءوا حرية الإرادة المحدودة التي منحت لهم وليس لأنه — معاذ الله — عاجزا عن إيقافها وتسويتها .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ

يعنى أن الذين اختاروا سبيل الإيمان بالله عليهم أن يضحوا بأموالهم في سبيل ما آمنوا به .

مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمَ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةَ وَلَا شَفِيعَةً ۖ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾

المقصود بالكافرين هنا أما أولئك الذين يرغبون طاعة أوامر الله ويرون جمع المال أعظم مكانا من كسب رضا الله وأما أولئك الذين لا يؤمنون بالنوم الذى لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والذى حذرهم الله منه . وأما أولئك الحمقى الذين يحسبون علاقتهم بشيخ أو ولى أو وساطته ستنجيهم في الآخرة بطريق أو بآخر .

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ

رغم أن جهلاء الناس قد يؤلهون أربابا كثيرة ويعبدون أشياء عدة إلا أن الحقيقة الخالدة هي أن كافة المخلوقات تنتمى إلى الله الذى لم يكن له شريك أزلا ولا شريك له أبدا فهو الله الحي القيوم واهب الحياة للخلق أجمعين لاعون ولا مدد الا منه وهو المعين والامعين سواه وهو وحده مالك وملك ملكته لاشبيه له في صفاته ولاند له في ذاته ولا مثيل له في ميزاته ولا شريك له في

حقوقه وطاقاته ولذا فاتخاذ اله آخر — أيا كان — مع الله في الأرض أو السماء
أن هو الا زور وبهتان على الله مبين .

لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ

هذا يدمغ تصورا عن الله أساسه أنه تعالى — جلت ذاته وتقدس
صفاته — تعتريه النقوص وتحدده الحدود مثله مثل المخلوقات البشرية
الناقصة المتناهية . خذ لذلك مثلا ما تقوله التوراة :

« وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل فاستراح في اليوم
السابع من جميع عمله الذي عمل » التكوين ٢ : ٤٢ .

« فاستيقظ الرب كنائم كجبار معيط من الخمر » (المزمور ٧٨ : ٦٥)
حاشا لله أن تناله هذه النقائص والعيوب .

لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ

هو مالك السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما لا شريك له في ملكه
وسلطانه ومملكته وحاكميته وحكمه . وكل شيء يتخذه الجاهلون الهما ما هو
الاجزاء من هذا الكون الذي هو ملك لله وحده فمن المحال أذن أن يكون شريكا
لله أو ندا .

مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ

هذا يستلزم ظن الجاهلين أن المشايخ والقديسين والملائكة ومن اليهم
سيتوسطون لهم عند الله ويحملونه على الصفح عنهم فالحق يخبرهم هنا أن
ليس ثمة مخلوق يستطيع حتى الوقوف أمامه — لاحمله على الصفح — فلا
رسول ولا ملك ولا قديس ولا شيخ سوف يتجاسر ويلفظ بحرف واحد دون
أذن من حاكم وسلطان الكون .

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ

يرى القرآن أن اتخاذ شريك مسخ الله أو ند أو نسبه حقوقه تعالى أو

صفاته الى أحد آخر بأى وسيلة يعد جرماً كبيراً لا يغتفر فهذا شرك بالله سبحانه . والقرآن يقوض في الآية السابقة دعائم الشرك ويقضى عليه بإعلانه أن حكمة الله غير متناهية وسلطانه غير محدود وقوته مطلقة لا نهائية ثم اذا هو يقدم نفس الشيء في هذه الآية أيضاً ولكن من وجهة نظر أخرى وذلك بتساؤله أنى لأحد أن يتدخل في إدارة الكون وتنظيمه مع أن أحداً قط ليست لديه المعرفة التي هي شرط أساسي لهذا العمل ؟ فمعرفة الملائكة والبشر محدودة ناقصة حتى أن أحداً منهم لا يقدر على فهم نظام الكون . لهذا فأى تدخل منهم في إدارته سيسفر حتماً عن فساد لا تنظيم لان البشر لا يستطيعون معرفة ما غيبه عنهم وفلاحهم فعليهم إذن أن يثقوا ويؤمنوا أشد الإيمان بهداية الله لأنه هو مصدر كل معرفة ونبع كل علم وهو وحده الذي يعلم ما ينفعهم وما يضرهم .

وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾

الكرسي مستخدم في هذه الآية كرمز شكلي يشير الى السلطة . وتسمى هذه الآية بآية الكرسي وهي تعطينا عن الله معرفة لا نجد لها نظيراً في أية آية أخرى وهذا هو السبب في أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال في حديثه أنها أفضل آيات الكتاب .

ولعل سائل يسأل فما مناسبة ذكر الله وصفاته في هذا المكان ؟ ولإجابة هذا السؤال يلزمنا أن نسرح طرفنا في الخطاب الذي يبدأ بالآية رقم ٢٤٣ .

فأول ما فيه أن المؤمنين حرضوا على الجهاد في سبيل الله والتضحية بالحياة والمال لأقامة دينه كما أمروا أن يحترسوا من المزالق التي وقع فيها بنو إسرائيل ثم أقر في أذهانهم أن النجاح لا يعتمد على مجرد العدد والمؤن والعتاد فحسب بل على الإيمان والصبر والحلم وضبط النفس والحزم كذلك ثم تقررت الحكمة من الحرب كسلاح به يدفع الله الناس بعضهم ببعض وهي أن لو تركت أمة أو جماعة لتستمر في القوة والنفوذ فسوف تجعل حياة معارضيها ومناوئبيها حياة لا راحة ولا قرار فيها ثم بينت الآيات أن الله ليس بعاجز عن الذهاب بما بين الناس من الخلافات والخصومات لكنه لا يريد أن يزيلها قهراً وقسراً ولذا فهو يرسل الرسل بالحق لهذا الغرض وفي ذات الوقت يترك البشر أحزارا في قبوله أو رفضه . بعد ذلك أمر المسلمون مرة أخرى كما في بداية الخطاب أن ينفقوا أموالهم في سبيل الله ثم يعلن القرآن في هذه الآية أنه رغم اختلافات عقائد الناس ودياناتهم فالحقيقة هي أن الله يحكم العالم كله وهو بالطبع لا يشاء أن يكره الناس على أن يؤمنوا به ولكنه يخبرهم فقط عن طريق رسوله أن من آمن فأولئك هم المفلحون ومن كفر فأولئك هم الخاسرون .

لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ

معنى « الدين » في هذه الآية تلك العقيدة التي شرحت في الآية السالفة (آية الكرسي) ونظام الحياة القائم على أساسها . ولا إكراه في الدين يعنى أن عقيدة الاسلام ونظامه العملى والاخلافى فى الحياة لا يمكن فرضه على أحد قسرا وقهرا . لأن مثل هذه الامور لا يمكن إكراه أحد عليها .

مَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا
أَنْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾

الطاغوت فى اللغة هو من تجاوز حده المذروع . والمراد بالطاغوت فى اصطلاح القرآن العبد الذى يتجاوز حدود « عبديته » ويزعم لنفسه السيادة والالوهية والحكم ويجعل عبدا لله عبدا له . ومرد العبـد على الله نه مراتب ثلاث :

- ١ — اذا سلم بطاعته لله أصلا ولكنه خالف أحكامه فى الواقع وهذا فسق .
- ٢ — اذا انحرف عن طاعة الله أصلا وزعم لنفسه الحرية التامة أو عبد أحدا غير الله وهذا كفر .
- ٣ — اذا بغى على مالك الملك وأمضى حكمه الشخصى فى ماك الله ورعيته وهذه هى المرتبة التى اذا وصل المرء اليها سمى « طاغوتا » ولا يمكن لأحد أن يؤمن بالله ايمانا صحيحا ما لم يكفر بهذا الطاغوت .

اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ

الظلمات هنا تعنى ظلمات الجهل التى تسلم المرء الى الحيدة عن المحبة القويمة والصراط المستقيم وتدفعه الى أن يبذل جهوده وطاقاته فى السبيل الضالة . والنور نقبض الظلمات وهو نور الحق الذى يمكن المرء من أن يرى الحقيقة بوضوح ويفهم الهدف الحقيقى من الحياة وينبع الصراط المستقيم بوعى تام واصرار لا يلين .

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ
أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾

رغم أن الطاغوت لفظ مفرد إلا أنه عومل هنا معاملة الجمع من حيث المعنى لأن من يرفض الله يصبح عبداً — لا لطاغوت واحد — بل لأشكال من الطواغيت عديدة منها الشيطان الذي يواصل اغراءه وفتنته بمغريات جذابة زائفة ومنها نفسه التي تجعله عبداً لعواطفه وأهوائه ونزواته وتضله إلى سبيل عوجاء وهناك طواغيت أخرى هم زوجته وأولاده وعشيرته وأقرباؤه وأسرته وعائلته وأصدقائه وأمتة وزعماءه السياسيون والدينيون وحكومتهم ودولته كل أولئك طواغيت يبنون تسخيرهم عبداً لرغباتهم ومطامحهم . وهذا العبد الذي يملكه كل هؤلاء السادة يضيع حياته كلها في محاولة تحقيق المستحيل وهو ارضاء السادة كلهم .

بعد أعلن القرآن فيما سبق أن الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور وأن الذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات . وها هو يسرد في الآيات التالية ثلاث واقعات لإثبات ذلك الأولى قصة امرئ بينت له الحقيقة بأدلة دامغة حتى أنه ما استطاع لها رداً ورغم هذا رفضها لأن الطاغوت كان يضله فظل سادراً في الغواية تائها في لجج الظلمات . أما الثانية والثالثة فهى قصص من يؤمنون بالله إيماناً عميقاً فلم يخرجهم من الظلمات إلى النور فحسب بل أراهم الحقيقة المستترة وجعلهم يشاهدونها عياناً ليتمكنهم من الشهادة بها .

الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ أُولَٰئِكَ لِيُخْرِجَهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَىٰ النُّورِ ۚ وَفِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّمَن يَتَذَكَّرُ ۚ

الشخص الذى يشير اليه القرآن فى هذه الآية هو « نمرود » الذى كان ملكاً على العراق مسقط رأس ابراهيم عليه السلام ولو اطلعنا على التوراة لوجدناها تخلو من ذكر هذه المجادلة التى وقعت بين ابراهيم عليه السلام وبين النمرود الا أن التلمود يوردها تفصيلاً ومضمونها هو نفس مضمون ما يرويه القرآن . فهو يقول أن أباً ابراهيم كان كبير ضباط الملك نمرود وكانت له عند سيده مكانة مرموقة وكان ابنه ابراهيم محباً لله منذ طفولته ولما بلغ أشده شرع يدعو لوحداية الله علانية ويدين الشرك بالله . ولكى يبرهن على دعوته حطم أصنام قومه فأسرع أبوه إلى النمرود وأبلغه بما فعل ابراهيم وسأله ان يأتى به لسؤاله فاستدعى نمرود ابراهيم عليه السلام وجرى بينهما النقاش المذكور فى الآية .

أَنَّ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ

النقطة التي كان عليها الجدل هي من الذي كان إبراهيم يعترف به ربا ؟
الله أم نمرود ؟ وقد اشتد النقاش لغطرسة وصلف نمرود الذي كان يكره
رعاياه على الاعتراف به ربا من دون الله . وطبيعي أن يوقفه كان على خطأ
اذ كان عليه — كعبد مقر بنعمة الله الذي آتاه الملك — أن يعترف بأنه ربا .
لكنه بدلا من الاعتراف بفضل الله عليه ونعمته علا في الأرض وتكبر حتى زعم
نفسه رب رعيته . ولما كان إبراهيم عليه السلام لا يستطيع احتمال هذا
الوضع أو قبوله وقع ما وقع بينهما من نزاع .

ولكى نفهم طبيعة هذا النزاع علينا أن نضع في أذهاننا عدة أمور :

١ — أن من السمات العامة لكافة الأمم المشتركة إيمانهم بأن الله رب
الأرباب واله الآلهة مع اشراكهم به آلهة وأربابا أخرى فلا يعترفون به وحده
ربا ولا يتخذونه دون سواه الها ومعبودا .

٢ — أن المشركين كانوا يقسمون الألوهية الى شطرين الوهية ما فوق
الطبيعة والوهية الحكم وكانوا ينسبون الى الله أولاهما التي تتحكم في كل
قسم من الاسباب المؤثرة ومن ثم كانوا يرجعون الى الله ليساعدهم في
قضاء حاجاتهم والتغلب على مصاعبهم لكنهم في جهالتهم اتخذوا الأرواح
والملائكة والجن والبخور وأشياء أخرى عديدة شركاء مع الله العلي العظيم
وصلوا لها وعبدوها وقدموا القرابين بين أيديها في معابد وقفوها عليها .
أما الوهية الحكم التي هي لله حقا والتي تجعل بيده وحده اقرار طريق الحياة
وتتطلب طاعة أوامره وأن تكون له السلطة المطلقة فوق كل شئون العالم
كبيرها وصغيرها فان المشركين في كل زمن اما يغتصبونها من الله تماما
ويضعونها على الأسر الحاكمة أو الموالين للحكام وشيعتهم وأنصارهم واما
يقسمونها بين الله وبين هؤلاء . وهذا هو السبب في أن الحكام غالبا ما يدعون
الألوهية بالمعنى الثانى ولكى يدعموا دعواهم يزعمون أنهم سلاسل الآلهة
بالمعنى الأول وغالبا ما يعاضدهم في هذا طبقة رجال الدين ويؤازرونهم في
رسم وتنفيذ مخططاتهم الشريرة في تثبيت ادعاءاتهم .

٣ — أن نمرود كان يدعى الألوهية بمعناها الثانى فهو لم يكن ينكر
وجود الله أو يزعم أنه خالق السماوات والأرض أو حاكم الكون وربيه بل كان
يزعم فحسب أنه رب العراق وحاكمه المطلق أرضا وبشرا . فكان يزعم أن
ما يصدر عن لسانى فهو قانون يطاع وما من أحد يعلبنى فيحاسبنى لذا فمن
لا يعترف بى وحدى ربا له فهو عاص متمرّد .

٤ — أن النزاع المشار اليه في الآية قد وقع حين أعلن إبراهيم عليه
السلام « انى اعترف برب العالمين وحده ربا لى والها أعبده دون سواه
وانكر انكارا تاما ربوبية والوهية أحد غيره » . طبيعى أن اعلان مثل هذه العقيدة

لا يقتضى على الديانة القومية والآلهة الدينية فحسب بل يحطم كذلك الدولة القومية وقوتها المركزية المتمثلة فى نمرود الذى كان يزعم نفسه رب العراق المطلق وهذا هو السبب فى احضار ابراهيم عليه السلام أمام نمرود كمتهم بالعصيان والتمرد لاستجوابه ومساءلته .

إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِىْ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِىْ وَأُمِيتُ قَالَ
إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ
فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾

رغم أن ابراهيم أعلن فى جملته الأولى بوضوح أن ليس ثمة رب سوى الله حاول نمرود تفنيد قوله بصفاقة فلما دمه ابراهيم عليه السلام بالدليل الثانى تحير نمرود وبهت حتى أنه لم يقدر على الاتيان بحجة أخرى لمواصلة النقاش لانه كان يعلم علم اليقين أن الشمس تجرى بتصريف من الله الذى يعترف ابراهيم به ربا . ومع هذا لم يقبل نمرود هذه الحقيقة السافرة التى بانئت له بجلاء لأن قبولها كان يعنى أن يتنازل عن دعواه فى الحكم المطلق ولما كان عصيانه وتمرده وكبرباؤه فى داخله ليس مستعدا لترك هذا الادعاء لذا لم يخرج من ظلمات عبادة النفس الى نور الحقيقة رغم أنه أفحم افحاما تاما . ولو كان نمرود اتخذ الله له وليا — بدل اتخاذه نفسه — لكان وجد فى دعوة ابراهيم عليه السلام الهداية الصحيحة .

يقول التلمود أن الملك أرسل ابراهيم عليه السلام الى السجن بعد هذه المجادلة حيث أمضى فيه أياما عشرة ثم حكم عليه الملك ومجلسه بان يحرق حيا بالثائه فى الأتون المتوهج . وقد ورد ذكر احراق ابراهيم فى القرآن أيضا فى سورة الانبياء ٥١ — ٧٤ وسورة العنكبوت ١٦ — ٢٤ وسورة الصافات ٨٥ — ٩٨ .

أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُشِهَا

من غير المفيد أن نحس حول تحديد شخصية هذا الرجل أو اسم القرية لان هذا ليس مهما بل ويستحيل القيام به ولا يوجد لهذه الاشياء ذكر فى القرآن أو الاحاديث الصحيحة وليس لدينا مصدر صحيح آخر يعول عليه الى جانب هذا فان معرفة أسمائها لاتضيف الينا شيئا جديرا بالاهمية قد يساعدنا على فهم الهدف الذى لأجله سبقت هذه القصة هنا وهو أن الله يخرج من اتخذه وليا من الظلمات الى النور لأن هذا تم ايضا حه دون تحديد

المدينة بانها اورشليم او غيرها او بان ذلك الشخص كان عزرا او نحميا او حزقيال . غير ان كلماته وسياق حديثه يفصح عن انه كان ولابد نبيا .

قَالَ أَنِّي مُخَيَّرٌ هَذِهِ أَلَلَهُ بَعْدَ مَوْتِهَا

هذا الاستفسار لايعنى ان هذا النبي كان لا يؤمن بالبعث او يشك في القيامة بل يعنى أنه كان يطلب ان يرى الحقيقة رأى العين كما طلب ذلك انبياء آخرون .

فَأَمَّا تِلْكَ مِائَةُ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى خِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ

ان بعث شخص مات منذ مائة عام لهو في ذاته آية حية بينة لمن كانوا يعاصرونه .

وَأَنْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۖ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِكَ تُؤْمِنُونَ ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَئِن لِّيَظْمَنَ قَلْبِي

يعنى أريد الطمأنينة التى تحصل بالتجربة العملية .

قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ

أورد البعض تفسيرات غريبة لهاتين الواقعتين الآنف ذكرهما . لكنى أرى أن ليست بنا حاجة للاتيان بتفسير مستغربة بعيدة الاحتمال لان الله تعالى — كما قال الرجل في الواقعة الاولى — على كل شيء قدير الى جانب أن معاملة الله لانبيائه لها طبيعة غير عادية لان المؤمن العادى لاتلزمه رؤية الحقيقة عيانا ليقوم بواجباته أما النبى فمن الضرورى لمهمته ورسالته أن يرى بعينه تلك الحقائق التى عليه أن يدعو الناس لها لان الانبياء عليهم أن يخبروا الناس — بايمان صلب متين ويقين واعتقاد كامل — أننا قد راينا باعيننا هذه الحقائق التى تتأسس عليها معرفتكم حدسا وتخمينا . فأنتم جهاء ونحن عارفون وأنتم عميان ونحن مبصرون . ولهذا كانت الملائكة تأتيهم وجها لوجه كى يروههم بأعينهم . كذلك بين لهم نظام السماوات والأرض فمعلا والجنة والنار والبعث والقيامة بعد الموت . ورغم أن الانبياء كانوا يؤمنون بكل هذا حتى من قبل تشریفهم بالرسالات الا أن الله جعلهم يشاهدون الحقائق بعد بعثتهم كفضل وامتيان خاص بهم .

حرض المسلمون فى الخطاب الذى بدأ بالآية رقم ٢٤٣ على التضحية بالنفس والنفيس وبالروح والممتلكات لانجاح القضية العظيمة الشريفة التى آمنوا بها . وفى الآية الاتية استؤنفت الفكرة من جديد بعد تقوية وتثبيت ايمانهم بالله الذى أمروا بأن يضحوا فى سبيله وصدرت تعليمات وأوامر لتغذية وانماء هذا الموقف العقلى اللازم للقيام بهذه التضحيات وبذلها . وبالطبع هيهات للناس أن يقدموا على التضحيات المالية فى سبيل قضية أخلاقية ما لم تكن وجهة نظرهم الاقتصادية قد تغيرت تماما . لكن الماديين الذين يعيشون ويموتون وهم يجمعون المال ويكسونه ويزنون كل أمر صغر أم كبر بمقياس الربح والخسارة فلا يمكن أن ينتظر منهم انفاق أى شيء فى سبيل أهداف أسمى وأرفع . وحتى حين تراهم ينفقون فى سبيل مبدأ نبيل أو قضية شريفة فانهم لايفعلون هذا الا بعد أن يكونوا قد وازنوا بين الامور وحسبوا مدى ما تحققة هذه القضية لقومهم وذواتهم من نفع وفائدة وطبيعى أن المرء لا يقدر أن ينقدم تحت هذا التفكير قيد شعرة واحدة فى سبيل الله ، اذ يتحتم على الانسان — لأجل اعلاء كلمة الله — أن ينفق فى سبيله كل طاقته وحياته وماله بصرف النظر عن أى مكسب أو خسارة دنيوية لان هذا الطريق يتطلب كرما وسخاء وشجاعة كبيرة وقلبا متسعا عظيما — وفوق هذا وذاك — رغبة صادقة حقيقية فى نيل رضا الله والفوز به كذلك يتطلب تغيرات جذرية فى النظام الاجتماعى من أجل تفتيت وازالة الاخلاق المادية وخلق وتكوين القيم الروحية فى مكانها . لذا فمن هذه الآية (مثل الذين ينفقون أموالهم . . .) والى الآية رقم ٢٨١ يعطى الله تعليمات وارشادات لخلق هذا النوع من القيم الاخلاقية والفكرية .

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

كافة الاموال والثروات التى تنفق بما ينطبق وقانون الله وابتغاء

مرضاته هي في سبيل الله . حتى ولو أنفقت لسد احتياجات المرء نفسه أو أقاربه . كذلك ما ينفق على المساكين والفقراء أو أعمال البر السامية أو الدعوة إلى الإسلام أو الجهاد فهو في سبيل الله أيضا .

كَمَلِ حَبَّةٌ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَنَبَلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ
يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾

لأنه تعالى عنده خزائن لانهاية لها ويعلم كل شيء سرا كان أم علنا فعلى المرء أن يوقن أنه على قدر إخلاصه وصدقه وعمق مشاعره العبادة في انفاقه ثروته في سبيل الله يكون عظيم المكافأة التي ينالها من رب العالمين . وأن يؤمن ايمانا تاما بأن الله الذي يخرج من الحبة الواحدة سبعمئة حبة قادر ولا شك على أن يضاعف الحسنة سبعمئة ضعف .

وبعد تقرير هذه الحقيقة ذكرت صفتان من صفات الله على وجه الخصوص (واسع عليم) وذلك لتوضيح أن الله عنده خزائن كل شيء عموما مصادر كل أمر وانه قادر على أن يجازي عن الأعمال إلى المدى الذي تستحقه وانه تعالى عليم بكل شيء وليس غافلا عما ينفقه العبد وبأي نية ينفقه لهذا فلا يخافن امرؤ أن يفقد ما يستحقه من جزاء ومكافأة .

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ
أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ *

يعنى ليس ثمة خوف من أن يفقدوا ما يستحقون من ثواب ومكافأة ولا هم يحزنون على ما ينفقون .

قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾

تشير هذه الآية إلى أمرين الأول أن الله سبحانه لا يحتاج إلى عطاء من أحد لانه هو الغنى بلا مثال والثاني أنه تعالى يحب الكرماء ذوي الجود والعطاء ويكره البخلاء الاثحاء الحقراء لانه هو نفسه جواد كريم حلیم فای شبه اذن بين الله الكريم الذي يهب للناس ما لا يعد ولا يحصى مما يحتاجون

اليه في حياتهم ويعفو دوما عن سيئاتهم ويتجاوز عن أخطائهم وبين من يريقون حياء وجه المرء بارسالهم اليه مرارا يذكرونه باحسناتهم اليه ويشيرون الى عطايهم حتى وان كان عطاؤهم شيئا قليلا . يقول الحديث النبوى : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر اليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب عظيم المنان الذى لا يعطى شيئا الا منه ... »

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَتَكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ
مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

لأن نفاقه يثبت أنه لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر . واحسانه تظاهرا ورياء ليرى الناس أنه جواد محسن يثبت أنه يتخذ الناس — لا الله — آلهة وأربابا ينتظر منهم أن يكافئوه ويجزوه فالمنافق لا ينتظر من الله جزاء أو مكافأة ولا يؤمن بأن هذه الاعمال سوف توزن ذات يوم .

فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا

الوابل في هذا المثل هو الاحسان ، والصفوان (صخرة صلبة) الذى يسقط عليه المطر هو النية السيئة التى يحسن بها المنافق ، والتراب هو الخير الظاهرى الذى يخفى وراءه النية السيئة . ورغم أن المطر يحيى الزرع وينبت الحب الا أنه يصبح ضارا اذا نزل على صخرة عليها طبقة خفيفة من التراب لانه يذهب بهذا التراب ويذر الصخرة عارية مكشوفة . وكذا الحال فى الاحسان فرغم أنه ينمى الفضيلة ويكثر الخير الا أنه يفقد هذه الصفات اذا لم يخرج بنية حسنة ويصير ثروة مبددة كما يتبدد المطر الساقط على صخرة تعلوها طبقة خفيفة من التربة .

لَا يَقْدُرُونَ عَلَى شَيْءٍ ءِمْمًا كَسِبُوا ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢١٨﴾

كافر هنا تعنى الكافر بالنعمة أو جاحدها فمن لا ينفق ما أعطاه الله من ثروة فى سبيله تعالى وابتغاء مرضاته ويبددها بغية نيل استحسان الناس وابتغاء رضاهم فهو كافر ينسى فضل الله عليه ويجحد بنعمته . ويضارعه فى كفره هذا من ينفق فى سبيل الله ويتبع ما أنفق أذى وإيلا لما لم يأخذ منه شيئا . وحيث أن هذا الكافر لا يبتغى رضا ربه فان الله لا يهديه أو يرشده الى طريق رضاه .

وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتُبَيِّتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ
 كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَغَاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا
 وَابِلٌ فَطَلَّ ۖ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾

الوابل هنا (المطر الغزير) هو الاحسان الذى يقدمه المرء بنية خالصة
 لله وبأعمق مشاعر العبادة . والطل (أضعف المطر) هو الاحسان الذى
 يؤديه المرء دون مشاعر عميقة أو عواطف قوية رغم اخلاصه فيه لله

أَيُّودٌ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
 لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضِعْفًا فَأَصَابَهَا
 إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ۚ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ
 تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾

يعنى أنكم لا تحبون أن يفسح كسب عمركم كله في أكثر أوقاتكم احنياجا
 اليه وحين لا تكون أمامكم فرصة للكسب من جديد فكيف بكم تحبون أن تعملوا
 في دنياكم ثم ما أن تصلوا الى أخراكم حتى يتبين لكم أن كافة مآثر الحياة
 لاقيمة لها وأن ماكنتم تكدحون في الدنيا لكسبه قد تركتمره فيها وأنكم ما قدمت
 شيئا تستطيعون اكل ثمرة في الآخرة وليست هناك فرصة أخرى لتقدموا
 فيها شيئا لاخراكم .

ان الفرصة الوحيدة للعمل من أجل الآخرة تكون في الدنيا فحسب .
 فلو أفنيتم العمر في الدنيا دون تفكير في الآخرة واضعتم جهودكم وسعيكم في
 تحصيل منافع الدنيا أضحت حالكم عند غروب شمس الحياة حالة مؤسفة
 ملؤها الحسرة والاسى كحال ذلك العجوز الذى كانت له حديقة هى كل ثروة
 عمره وعونه في الحياة فاحترقت في عجزه وشيخوخته حين لم يكن في مقدوره
 أن يفرس غيرها ولم يكن في وسع اولاده أن يعينوه ويؤازروه .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا انْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ
مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ
تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢١٧﴾

يعنى أن الله الغنى عن العالمين يأمر الناس أن ينفقوا في سبيله أفضل
وأحسن ما لديهم للمصلحة أو نفع يناله سبحانه بل لخيرهم وصالحهم ولأنه
تعالى رب الصفات الحميدة وصاحب النعوت والسمات المجيدة وهو الكمال
ولا كمال لغيره لذا فهو لا يرضى عن تدلت شخصيته وانحطت أخلاقه وشمائله
ولا يحب الأشياء الوضعاء والحمقى الذين يتخيرون أحقر الأشياء لينفقوا
منها لأنه تعالى سنام الجود والكرم والسخاء يفيض بأفضاله ومنه وبركاته
على مخلوقاته كيف يشاء .

الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ
وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١٨﴾ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ
الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢١٩﴾

الحكمة تعنى البصيرة والتدرة على الفعل وتمييز الحق والصواب ومن
ثم فمن عنده حكمة لن يتبع سبل الشيطان الضيقة السقيمة بل يتبع سبيل
الله وطريقه الواسع العريض . والحكمة والمهارة في عين مريدى الشيطان
أن يكونوا بخلاء أشحاء يوقفون أنفسهم على اكتساب المال وتجميع الثروة
ما تردد بين أضلعههم نفس . أما من أوتوا الحكمة حقاً فيرون هذا سلوكاً
مشيناً والحكمة عندهم أن ينفقوا أموالهم وثرواتهم بكرم وسخاء في وجوه
البر وأعمال الخير بعد اشباع متطلباتهم وحاجاتهم على نهج وسط قويوم
لا يرفون ولا يقترون . وقد يتمتع الاولون بشراء عريض في الدنيا ولكن الحياة
الدنيا ليست هى الحياة كلها بل هى جزء جد قليل من الحياة الحقيقية التى
تدوم وتخلد بعد الممات اذا فمن يرم متعة هذه الدنيا القصيرة الامد على
حساب سعادة الآخرة الخالدة السرمدية فهو لاشك أحق جهول والحكيم
من يحسن استخدام هذه الحياة العاجلة القصيرة ويتزود للنجاح والرخاء حتى
ولو كان في دنياه على حظ قليل من المال والشراء .

وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٢٧٠﴾

يعنى ان الله عليم بذات الصدور مطلع على سرائر وافعال العباد يعلم اذا كان عبده يتفق في سبيل الله ام في سبيل الشيطان واذا كان يقدم نذره لله ام لاحد من المخلوقات ، لذا فالذين ينفقون في سبيل الله وله يندرون سيجزون احسن ما كانوا يفعلون . اما الذين ينفقون في سبيل الشيطان ولغير الله يندرون فليس لهم من قوة ولاناصر ينقذهم من العذاب الاليم .

والنذر وعد يلزم المرء فيه نفسه بأداء عمل أو انفاق مال اذا ما تحققت له امنية ينمناها فان كانت امنيته ورغبته مشروعة وطلبها من الله وحسده ونذر لله دون سواه وأوفى به كان الوفاء بمثل هذا النذر موجبا للاحر والثواب اما اذا كان النذر لغير الله أو لتمنى تحقيق امنية غير مشروعة فان الوفاء به يوجب على المرء نار جهنم وعذاب السعير .

إِنْ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ

الأفضل أن يؤدي المرء الصدقة المفروضة (الزكاة) علانية ويؤدي كافة الصدقات الاخرى سرا . وهذا المبدأ ينطبق على سائر الاعمال الدينية طرا فما كان منها فرضا فمن الافضل اداؤه علنا وما كان منها تطوعا فمن الخير تأديته سرا .

وَسُكِّرَ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾

ان بذل الخير سرا يعين على تكوين شخص المرء وينمى الفضائل فيه ويمحق الرذائل ونتيجة لهذا يصبح المرء محبوبا عند الله مفضلا فيغفر الله له — نظرا لخير معدنه وصلاح واخلاص جوهره — ما يشاؤه تعالى مما يبدر منه من هفوات الاهمال والتقصير في اداء الواجب ويتجاوز تعالى عما يريد من سيئاته ولممه .

لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا يُنْفِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾

في هذه الآية محا الله ما غشى على بصائر المسلمين من خطايا في الفهم .
 فقد كانوا يترددون في التصديق على غير المسلمين سواء كانوا أقاربهم أم غرباء
 عنهم ظانين ان الاحسان لا يكون في سبيل الله ولوجهه الكريم الا اذا ذهب
 الى المسلمين دون سواهم فأخبرهم المولى عز وجل في هذه الآية أنه لم
 يحملهم مسئولية فرض الهداية على الكافرين تسلطاً وقهراً وان ما عليهم
 من مسئولية تنتهي عند تبليغهم الكافرين الحق الذي انزله الله . والله اذا
 شاء ان يفتح بصائرهم او يطمس على قلوبهم وعلى هذا فلعلى المسلمين
 ألا يمسكوا يد العون ويدخلوا بالنصدق على غير المسلمين وسد حاجاتهم
 بسبب رفضهم الهداية لان الله تعالى سيجزيهم خيراً عن تصدقهم واحسانهم
 الى أى انسان مهما كان طالما كان احسانهم وتصدقهم ابتغاء وجه الله .

لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ
 يَحْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَنَّهُمْ لَا يَسْأَلُونَ
 النَّاسَ الْخَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٧٢﴾

أمر الله المسلمين في هذه الآية بتقديم العون والمساعدات الى من
 وقفوا انفسهم على خدمة الاسلام فعجزوا عن ان يضربوا في الارض ليبتغوا
 من فضل الله كما كان يفعل بعض الصحابة الأوفياء في حياة الرسول عليه
 صلوات الله وسلامه . فقد كانت هناك طائفة من المتطوعين الزاهدين
 وقفوا أوقاتهم وحيواتهم وانفسهم على خدمة الدين الحنيف عرفوا بأهل
 الصفة وكانوا على استعداد دائم رهن اشارة الرسول عليه الصلاة والسلام
 الذي لقنهم معرفة الاسلام ودرّبهم على خدمته فراحوا ينقلون ما عرفوه وتلقوه
 عن الرسول الى الآخرين وارسلهم الرسول عليه الصلاة والسلام في مهام
 وبعثات مختلفة وبالطبع امثال هؤلاء يستحقون ان يعينهم المسلمون على
 الحياة وهم الذين كانوا يعملون كل وقتهم لخدمة الاسلام وليس لديهم متسع
 من الوقت لكسب العيش وتحصيل القوت والرزق .

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ
 أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٣﴾
 الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا

الربا في اللغة هو الزيادة باطلاق أما معناه الاصطلاحي فهو المال الذي يأخذه الدائن من المدين بسعر محدد زيادة على المال الأصلي الذي يقرضه له وهو ما يسمى بالفائدة . وحين نزل القرآن كانت الفائدة على أنواع وأشكال فمثلا كان هناك من يبيع للناس ما عنده ثم يحدد لسداد ثمنه موعدا فان لم يستطع من اشترى سداده في وقته اعطاه فسحة من الوقت على ان يرفع ثمن ما باعه . وكان هناك ايضا من يقرض الناس مالا ويطلب اليهم رده مع مبلغ اضافي يتفق الطرفان عليه خلال فترة معينة وكان هناك من يحدد سعر الفائدة لفترة محددة فان لم يرد المدين المال الأصلي ومعه الفائدة زيد سعر الفائدة على المدة الزائدة وهلم جرا .

لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ

يشبه القرآن المرابي بالمجنون فكما ان المجنون يفقد الادراك لاختلال عقله واعتلال ذهنه كذلك آكل الربا يجن بالمال حتى انه ليفصل نفسه عن الفطرة السليمة والذوق القويم . فهو بليد الحس والشعور حتى انه لا يعقل كيف تضرب انانيته وجشعه بمعاولها في جذور الحب الانساني ومشاعر الود والاخوة البشرية ويحطمان خير الانسانية العام ولا يشغل باله او يقلق خاطره انه يصيب ثراء على حساب الآخرين فهو بهذا يتصرف في دنياه كالمجنون وسيقوم آن بعثه في الآخرة كالمجنون أيضا لأن المرء يقوم يوم القيامة بحالته التي مات عليها .

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا

فأساس فساد نظريتهم انهم عموا عما بين الربح والفائدة من فرف كبير فقالوا حيث ان الربح في التجارة حلال فلم تكون الفائدة على القروض حراما ؟ ولا تحسبوا ان المرابين في الجزيرة وحدهم الذين كانوا ينادون ويزعمون هذا بل ان أصحاب البنوك والمرابين في عصرنا هذا يدعون بنفس دعوى الجاهلية القديمة ويوردون حججا مماثلة تحليلا للفائدة واستساغة لها فيقولون مثلا ان من يقرض احدا بعض ماله كان في استطاعته ان يستثمره ويفيد منه وان من يقترض هذا المال يستثمره بالفعل في تجارة أو مشاريع تعود عليه بالربح فلم لا يأخذ المقرض من المقرض نصيبا مما ربح وكسب ؟ وينسون ان ليس ثمة ممن يربح ربحا محددًا مضمونا دون خسارة . فالمرء في التجارة والصناعة والزراعة وما إليها عليه ان ينفق العمل ورأس المال وأن يراجه في نفس الوقت المخاطر والخسارة دون ضمان لربح محدد اكيد

ولندع الى حين وضع المدين الذي يقترض مالا لاستهلاكه الشخصي والوفاء بما يحتاج هو وأسرته وكذا مسألة سعر الفائدة وتعال بنا نقارن

بين حال المرابى الذى يقرض المال لتشغيله فى اعمال تجارية مربحة بسعر متوسط للفائدة وبين حال من يزاولون التجارة وما اليها فعلا . فهؤلاء يوقفون كل وقتهم وعملهم وقدراتهم ومواهبهم ويستثمرون مالهم الخاص ويعملون ليل نهار كى تربح تجارتهم بفضل مجهوداتهم الخاصة دون ان يأمنوا خطر الخسارة على حين يستمر المرابى الذى يقرض المال ولا شيء أكثر من هذا فى أخذ نسبة ربح معينة دون التعرض لأية أخطار مهما كان نوعها . فكيف يحق له ابتلاع نسبة محددة من الربح ؟ وبأى معقولية يأخذها؟ وعلى أى أسس للمطلق والعدل وبأى وجهة نظر اقتصادية يربح هذه النسبة ؟ وكيف يكون امرؤ على حق وصواب فى ان يقرض مصنعا مثلاً مبلغاً من المال بسعر فائدة محدد من تاريخ اقراضه والى عشرين عاماً مقبلة على حين لا يستطيع احد ان يعلم أو يتنبأ بارتفاع أو انخفاض الاسعار الذى قد يحدث خلال هذه السنوات العشرين ؟ وكيف يصح لمن يمول قروض الحروب ان يطلب — حتى من أمته هو — سعر فائدة محدد لمدة قرن بأكمله على حين تواجه الأمة كلها المخاطر والتهلكات وتحمل الخسائر وتبذل من التضحيات ما تبذل ؟ .

ج وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا

ان الفارق بين الربح والفائدة والذى يقود الى نتائج اخلاقية واقتصادية عديدة هو : —

١ — ان تحديد الربح بين البائع والمشتري يتم على شروط متساوية . فالمشتري يبتاع ما يحتاجه والبائع يأخذ ربحاً نظير الوقت والعمل والقدرات الذهنية التى يوظفها فى اعداد وتجهيز السلعة للمشتري . أما الفائدة فهى على نقيض هذا والمدين بالطبع ليس فى مقدوره ان يحدد التعامل بينه وبين الدائن على شروط متساوية نظراً لضعف جانبه ووهن موقفه والمرابى يأخذ قيمة الفائدة المحددة التى يعتبرها ربحاً له ومكسباً بقدر ما يشاء . فان انفق المدين كل ما اقترض من مال فى تلبية احتياجاته الشخصية فلا شك ان عنصر الوقت لا يأتى عليه بربح على الاطلاق . وان استثمر ما اقترض فى تجارة أو صناعة أو زراعة ونحوها كانت أمامه فرص متساوية للربح والخسارة وهكذا يدر الاقتراض بفائدة ربحاً مضموناً محدداً على طرف وخسارة على الطرف الآخر او ربحاً مضموناً محدداً على طرف وربحاً غير محدد وغير مضمون على الطرف الآخر .

٢ — ان التاجر يحدد ربحه وبطلبه دفعة واحدة وعن كل ما أنتج أما المرابى فيواصل ابتلاع الفائدة تكراراً وتواصل الفائدة سيرها نحو الزيادة بمرور الوقت . ومهما كان الربح الذى يحدده المدين على اموال الدائن التى يستثمرها كبيراً الا ان له فى النهاية حدوده . أما الفائدة التى يأخذها الدائن على امواله فلا حدود لها فقد تستنزف ربح المدين

عن آخره وهذا يحدث بالفعل في أحيان كثيرة . ليس هذا فحسب بل قد يصل الأمر الى حرمانه من كافة وسائل العيش أو ما يلزم لاستخداماته الشخصية وقد يبقى المدين وعليه نفس كمية الدين كما كانت آن الاقتراض

٣ — ان التعامل في مجال التجارة ينتهى بانتقال المادة وثمنها الى ايدى آخرين فلا يلزم على المشتري بعد هذا ان يعيد شيئا الى البائع . وبالنسبة لايجار الاماكن والمنارل والاراضى وما اليها فالعين المؤجرة لا تتدد او تبلى في حد ذاتها وانما ترد الى مالكها بعد انقضاء الفترة المحددة لايجارها أما بالنسبة للمال فعلى المدين ان ينفقه أولا ثم يولده ويوظفه ثم يعيده الى الدائن مع فائدة وبذا يضطر المدين لان يعرض نفسه لخطرين خطر توظيف المال وتشغيله وخطر استخراج الفائدة المطلوبة عليه .

٤ — ان من يزاوّل التجارة أو الصناعة أو الزراعة أو غيرها يتقاضى ربحه على ما أنفق من وقت وعمل وجهد وذكاء ونحوه أما المرابى فيبغى نصيب الأسد في ارباح المدين دون مواجهة خطر او بذل جهد وعرق وليس لربحه مبرر سوى انه يستثمر ما زاد عن حاجته من مال فهو شريك الى المدى الذى يكفل له مائدة محددة مضمونة وحسب بقطع النظر عن كم الربح وبلا مبالاة بما يقع من خسارة .

يظهر لنا من كل ما سبق ان التجارة — حتى من وجهة النظر الاقتصادية — تشارك في بناء المجتمع وتساعد على نمائه . وان الربا يهدم كبنائه ويقوض بنيانه . اما من وجهة النظر الاخلاقية فالربا بطبيعته يخلق الجشع والحرص والطمع والانانية وتحجر التلويب وغلظة الافئدة وعبادة المال والشراء ويقتل في الأفراد مشاعر الاخوة وروح التعاون وعلى هذا نالربا مهلك للمجتمع اخلاقيا واقتصاديا .

فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ
وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾

هذا العفو ينطبق على الوجهة القانونية للربا الذى أخذ قبل نزول آيات التحريم ولا يعنى ان ما دخل منها فى حيب المرابى قد اصبح حلالا ايضا فالفاظ الآية تدلنا على ان القضية لله يتخذ فيها ما يشاء من قرارات وان امر من كان يتعامل بالربا قبل نزول الآيات صائر الى الله يحدث فيه كفو، بشاء وان الله لم يغفر ما سلف تماما . ولاجتناب التقاضى الذى لا ينتهى فى هذا الامن اعلن سبحانه وتعالى سقوط حق المطالبة القانونية برد الربا الذى أخذ فيما مضى . أما من الزاوية الاخلاقية فان آكل الربا يظل مدنسا

وعليه أن يبذل ما في وسعه لتطهير نفسه من دنس الربا فلا ينفق حصيلة على نفسه بل يجتهد في الوصول الى من أخذ منهم ما أخذ ويرده اليهم فان لم يستطع الاهتداء اليهم فعليه ان ينفق ما جمعه من مال حرام في وجوه الخير الاجتماعية . وهذه هي الطريقة الوحيدة التي يسندليح بها ان يدرا عن نفسه عقاب الله الذي سيفصل في هذه القضية يوم الحساب اما من استمر في الاستمتاع بهذا المال الحرام فسيعرض نفسه لعذاب الله وعقابه له حتى عن تعامله بالربا فيما سلف .

بِمَحَقِّ اللَّهِ الرَّبَّاءُ وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ

ما اصدق هذا وأصوبه من الزاوية الاجتماعية والاقتصادية والاخلاقية والروحية فمع ان الربا يغنى في ظاهرة والصدقة تدفع وتفقر فبالعكس يصدق تماما . فالربا في شريعة الله عائق بطبيعته أمام التقدم والا زدهار الاجتماعى والاقتصادى والاخلاقي والروحي أما الصدقة — بما فيها الاقتراض بغير فائدة — فتدفع الى النماء والتقدم .

ولو سرجنا النظر في الربا من الزاوية الاخلاقية والروحية لرأينا في جلاء انه يقوم على الجشع والطمع والاثانية والبخل والغلبة وأنه يروى هذه الشرور والمآثم ويغذيها في نفس الرباى . بينما تقوم الصدقة على اساس الكرم والعطف والسخاء وتغرس هذه الصفات السامية وتنميها في نفس المصدق . فأنى لاحد ان ينكر خير هذه الصفات وافضليتها على سابقتها ؟

أما ان تناولنا الربا — بقليل من التدبر والتمحيص — من الناحية الاجتماعية بان لنا توا ان المجتمع هيهات ان تقوم له قائمة اذا أسس افراده معاملاتهم فيما بينهم على الاثانية وحب النفس . فان كان كل فرد فيه لا يبغى مساعدة الآخر دون نفع يعود على شخصه وان كان الاغنياء فيه يعتقدون ان الفقراء ما وجدوا الا ليتيحوا لهم فرص الاستغلال العسفى فلا محيص من تصادم مصالح كليهما فيتصدع بناء المجتمع وتتفكك لبناته فان عاضدت العوامل الاخرى هذا الوضع المجحف فان الصراع الطبقي لا محاولة واقع . أما ان أقام افراد المجتمع معاملاتهم على أساس الود والعطف المتبادل وعامل كل منهم أخاه بكرم وسخاء فسوف يصنعون من مجتمعهم بناء متينا واذا حاول كل فرد فيه أن يعين الآخر عند الحاجة وعامل من يملكون من لا يملكون بعطف او على الاقل بعدل فسوف تنشأ فيه مشاعر الاخوة والحب ويشند بناؤه لبنة الى لبنة ويتقدم — بالطبع — بخطى عاجلة سريعة وذلك لانتشار روح التعاون والاخاء بين خلاياه وانسجته .

ولنتاول الربا الآن من وجهة النظر الاقتصادية . ان القروض نوعان قرض استهلاكي وهو ما يستدينه الفقراء المعوزون لقضاء لوازمهم الشخصية

وآخر اقتصادى وهو ما يقترضه رجال الاعمال لتوظيفه فى مشاريع واعمال تجارية او صناعية او زراعية او غيرها . أما الاول فكلنا يعرف ان اخذ فائدة عليه يسوق الى دمار محقق ويؤدى الى خراب وطامة ليس لها من دون الله كاشفة وانا لنرى الدائنين واصحاب البنوك يمحسون دماء العمال الكادحين والفلاحين المعوزين والفقراء بوجه عام ويسكنونهم دار البؤس والشقاء لان دفع الفائدة يجعل تسديد الديون مستحيلا عليهم فى اغلب الأوقات فيضطرون للاقتراض مرة تلو الاخرى محاولين التخلص من هذه الورطة الشنيعة وحتى بعد دفع الفائدة التى تكون قد بلغت اضعاف اصل المال يبقى المال الاصلى كما كان من ذى قبل لان الدائن يلتهم النصيب الاكبر من دخل المدين الذى يجد نفسه عاجزا عن الاقتصاد فى الإنفاق حتى لا يتخطى حدود دخله . وهذا بالطبع يقتل استفادة العمال من عملهم فكيف يخلصون فيه ويجتهدون وهم يرون ثماره يبتلعها آخرون ؟ الى جانب انهم لا يستطيعون حتى شراء الدواء اللازم اذا انهك الجوع قواهم وقضى الهم والغم على صحتهم وذلك لاحتياجهم لشديد الى المال وهكذا يؤدى الربا الى تسمين واتراف قلة على حساب مص دماء الاغلبية ويتسبب فى افساد الامة بوجه عام لان العجز وقلة الكفاءة الناتجة عن هذا تفسد نوعية الانتاج القومى وتهبط بمستواه ويسقط مصاصو الدماء أنفسهم فى النهاية هريسة ظلمهم وجشعهم وجورهم لان تفاعل الغضب المكبوت والكرهية الدفينة فى قلوب المضطهدين المظلومين مع انانية المرابين غلاظ الاكباد يفجر ثورة دامية تسحق شرفهم وحياتهم وثروتهم التى اقتنوها ظلما وعدوانا .

أما التسم الثانى وهو الفائدة المحددة على القروض الاقتصادية فنكتفى بذكر ثلاثة من شروطها العديدة :

١ - ان المشروعات التى لا تستطيع تحقيق ربح يعادل سعر الفائدة الموجود فى السوق لا تستطيع تدبير المال وتوفره مهما كانت نافعة للامة وستتجه كافة وسائل التمويل فى الدولة الى المشروعات التى قد تأتى بفائدة مساوية او اكبر من سعر الفائدة فى السوق مهما كانت عديمة الفائدة او حتى ضارة من الناحية الاجتماعية .

٢ - ليس ثمة عمل تجارى او صناعى او زراعى ونحوه يضمن سعرا محددًا ومنتظما للربح - خمسة او ستة او عشرة فى المائة مثلا - تحت كل الظروف وفى كل الاحوال . بل الواقع انه لا يمكن لاي عمل ان يضمن سلامته من أى خسارة فكيف بنا نتحدث عن ضمانه للربح ؟ فالعمل الذى يقترض مالا بسعر محدد للفائدة لا يمكن أن يكون فى منجى من الخطر والخسارة .

٣ - ولأن المقترض ليس شريكا مباشرا فعليا فى ربح العمل او خسارته وانما يجعل كل همه وهدفه تحصيل فائدته المحددة المضمونة دون اكتراث بما عداها لذا فهو لا يهتم بمصلحة العمل فى قليل او كثير بل يقصر اهتمامه على تحقيق وتحصيل نفعه وحده ومن اجل هذا يحاول بأناية بالغة

أن يسحقه ويحبس ماله إذا شعر بأدنى هزة من الانخفاض أو الكساد في السوق وبذا يخلق بانتيبه ذعرا ماليا وأرباكا شديدا ويفرض الطريق لأرمة أخرى فإن حدثت أرمة بالفعل عجل بها إلى كارثة مقبرة .

هذه ثلاثة من أضرار الربا وشروبه لا تخفى على من له علم بأوليات الاقتصاد وأبعديته فهل لأحد أن ينكر حقيقة قانون الله الذي أعلن فيه سحقه أن الربا يسحق الاقتصاد القومي ويدمره ؟

ولنتناول الصدقة في السطور التالية من وجهة النظر الاقتصادية :

إن المسورين إذا انفقوا أموالهم بسخاء في سد لوازمهم الشخصية في الحياة والوفاء باحتياجات عيالهم ووزعوا منها جزءا على المحتاجين لمكتوبهم من تلبية ضرورات الحياة أو اقترضوه رجال الأعمال دون فائدة أو استثماره في مشاريع تجارية أو صناعية وغيرها على أساس المشاركة في الربح أو الخسارة أو اقترضوه حكومتهم بدون فائدة لاستغلاله في الخدمات القومية مما من شك في أن التجارة والزراعة وما إليها ستصيب قسطا من الازدهار والنماء ويرقى مستواها ونوعها ويرتفع مستوى الثروة القومية ويعظم الانتاج ويتكاثر إذا قورن بما عليه من بلد يحلل الربا ويجعله أمرا مشروعاً .

وهكذا يتضح أن الربا يربط الأمة إلى قاع التأخر والانحطاط ويعوق تقدمها وإن الصدقة تدفعها إلى قمة التقدم والارتقاء وتفيض عليها خيرا كثيرا

وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾

أكل الربا ولا ريب كاشر تعيس ذنيم واقل ما كان ينبغي عليه — كمد مقرر بنعمة الله الذي وهبه مالا وفيرا — أن يقرض ماله لعباد الله الآخرين دون فائدة . فإن لم يفعل هذا واستخدم كرم الله في استغلال عباد الله الذين لا يملكون كما يملك أصبح كافرا بل أثما شريرا .

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾

في هذه الآيات قدم الله لنا شخصيتين متباينتين متناقضتين الأولى شخصية عبد الثروة الأناني آكل الربا الجشع الذي لا يابيه بالله ولا بمخلوقاته ويصرف ليله ويقضى نهاره في تكديس المال . والثانية شخصية عبد الله الكريم العطوف الجواد الذي يرفعى حقوق الله ومخلوقاته ويكسب ماله حلالا وينفقه في

احتياجات نفسه واحتياجات الآخرين وفي أعمال الخير ووجوه البر . والله سبحانه وتعالى يلعن لصف الأول من البشر ويمقتهم لأنهم لا يقدمون خيراً ولا يستدليعون تأسيس مجتمع صالح ليس هذا وكفى بل أنهم يلقون بأنفسهم وبا الآخرين في حفر البؤس والشقاء في الحياة الدنيا ويوم القيامة سيجزون أسوأ ما عملوا ويجرعون غصة وحميماً . بينما يثنى الله على النمط البشري الثانى ويحبهم لأنهم يسارعون الى الخيرات ويساعدون على بناء المجتمع فلهم في هذه الدنيا حسنة وأمن وسكينة وعليهم في الآخرة سيول من نعم ومسررات وافصال وبركات .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا

إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلُمُونَ

وَلَا تَظْلُمُونَ ﴿٢٧٩﴾

نزلت هذه الآية بعد فتح مكة لكنها الحقت هنا لاتصالها بموضوع الربا . وحتى قبل تنزيلها كان الناس في المجتمع المسلم يعدون الربا شيئاً كريهاً ممقوتاً رغم انه لم يكن عندهم أمر صريح بتحريمه أما بعد نزول هذه الآية اضحى التعامل بالربا جريمة في الدولة الاسلامية . فأنذرت القبائل التى كانت تعامل به بالحرب ان لم يذورا نهجهم هذا وكان من بين بنود اتفاقية الاستقلال الذى منح لنصارى نجران في الدولة الاسلامية ان لو استمروا في تعاملهم بالربا لكان ذلك نقضاً للاتفاقية ولحلت بينهم وبين الدولة الاسلامية حالة حرب .

وقد استنتج ابن عباس والحسن البصرى وابن سيرين وربيع بن انس رضوان الله عليهم من قوله تعالى ((فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)) ان أكل الربا في الدولة الاسلامية ينبغى انذاره ان يكف عن صنيعه ويتوب فان لم يفعل ذلك قتل قتلاً . بينما يرى الفقهاء الآخرون ضرورة القائه في السجن الى ان يتعهد بالابوة والتوبة عن ذلك .

وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنِظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ

إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾

هذه الآية تخول المحاكم الإسلامية الحق القانوني في اجبار الدائن على اعطاء الدين فسخة اكبر من الوقت ليتمكن من دفع دينه ان كان في مخرصة وضيق لا يستطيع معه ان يقضى دينه . ويصبح للمحاكم الإسلامية حق حذف الدين كله او بعضه في ظروف واحوال معينة . جاء في الحديث ان رجلا اصاب في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في شمار ابتاعها فكثر دينه فقال النبي عليه الصلاة والسلام تصدقوا عليه فتصدق الناس عليه فلم يبلغ ذلك وفاء دينه فقال النبي صلى الله عليه وسلم لغرمائه « خذوا ما وجدتم وليس لكم الا ذلك » .

وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى

يستنتج من هذا ان مدة الدين ينبغي ان تحدد .

فَاكْتُبُوهُ

هذا يحذرنا مما اعتاده الناس من عدم تسجيل الدين تسجيلا رسميا ان كان الدائن والمدين اصدقاء او ذوى قرى لان ذلك — في رأيهم — يعد فقداناً للثقة المتبادلة . فسيحانه وتعالى ينصحن بتسجيل الديون واشهاد شهيدين على ذلك كي تبقى علاقات البشر ومعاملاتهم واضحة صافية ينال فيها كل ذى حق حقه . يقول الحديث الشريف :

« ثلاثة يدعون الله فلا يستجاب لهم رجل له امرأة سيئة الخلق فلم يطلقها ورجل دفع مال يتيم قبل ان يبلغ ورجل اقترض رجلا مالا فلم يشهد » .

وَلْيَكُتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَيْهِ اللَّهُ فَلْيَكُتُبْ وَلْيَمْلِكِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِكْ وَلِيُّهِ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ

يعنى من رجال المسلمين وحيث ان استشهاد الشهود يتم بالاخير
والانتقاء فعلى المسلمين ان يتخذوا شهودهم من المسلمين فحسب . وليتخذ
الذميون شهداءهم بالطبع من الذميين أمثالهم .

فَإِنْ لَمْ يَكُنَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَأَمْرَاتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ

يعنى ان كل من هب ودب ليس كفاء لأن يكون شهيدا وانما أولئك
الذين يتمتعون بالثقة بين الناس من ناحية اخلاقهم ودينهم وشخصياتهم
وأمانتهم وعفتهم وما اليه .

أَنْ تَصِلَ إِحْدَهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ
إِذَا مَادُّوهُ وَلَا تُسْعَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ
ذَلِكَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ
تَكُونَ تِجْرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا

يعنى رغم انه من الافضل كتابة تلك المعاملات التجارية اليومية التى
تتم نقدا الا انه ليس ثمة حرج اذا لم تكتب تلك التعاملات اليومية التى تدور
بين التجار المتجاورين .

وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ

يعنى ينبغى الا يكره احد على الكتابة او الشهادة ويعنى ايضا وجوب
الا يلحق احد الطرفين بالكاتب او الشهيد اذى لادلائه بحقائق ضده .

وَإِنْ تَفَعَّلُوا فإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَ اللَّهُ بِكُلِّ
شَيْءٍ عَالِمٌ ﴿٢٨٢﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَسَ مَقْبُوضَةً

لا يعنى هذا أن الرهن لا يؤخذ كضمان إلا في السفر وحسب ، ولكن ذكر السفر على وجه الخصوص لأن هذه الحالة تحدث أكثر ما تحدث في السفر . كذلك ليس عدم القدرة على استحضار كاتب شرطاً ضرورياً لأخذ الرهان فإن كان المحتاج المعوز لا يستطيع الاستدانة إلا إذا أعطى لقاء الدين شيئاً يضمّنه فليفعل ذلك . والقرآن يتعمد ألا يذكر هذه الحالة الأخيرة لأنه يبغى تلقين المؤمنين الكرم والسخاء والسماحة . وبالطبع تأبى كرامة المرء ذى الشخصية النبيلة العالية إلا يقرض المحتاج ما لم يأت به برهن نظير قرضه .

ومعروف كذلك أن الرهن أن كان يدر إنتاجاً فعلى الدائن أن يحتفظ بما انتجه كاملاً ويخصمه من كمية الدين وإلا كان ربا . والهدف الوحيد المقصود من الرهن هو ضمان سداد المدين لدينه وليس للدائن حق استغلال الرهن والاستفادة منه . فإن كان الدائن يسكن مثلاً في دار أخذها رهناً من مدين أو أجرها لآخر فإن قيمة إيجارها تعد ربا ما لم يعطها للمدين إذ لا فرق بين أخذ فائدة مباشرة على الدين أو اكتساب مال منه أو استغلال الرهن والافادة منه . غير أن الدائن قد يستفيد من لبن الماشية الرهن أو يركبها أو يحمل عليها شيئاً لأن هذا يعد عوضاً عما يطعمها من علف .

فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمْنَتَهُ
وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا
فَإِنَّهُ يَكْتُمُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾

كتم الشهادة يعنى المراوغة والتهرب من ادائها وكذا اخفاء الحقائق أن الادلاء بالشهادة .

لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ

في هذا الجزء الختامى من السورة نرى أن عقائد الإيمان الأساسية تتقرر كما تقررت في صدرها . لذا من الخير أن نقارن بين هذه الآيات وبين تلك التى وردت في أول السورة .

وتعد هذه الآية « الله ما في السماوات وما في الأرض » أول بند من بنود الإيمان . فالتسليم بأن الله هو رب السماوات والأرضين وما فيهما وما بينهما لا يدع مناصاً من الخضوع والاذعان له تعالى .

وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحْسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ

في هذه العبارة قرر الله اثنين من بنود الايمان أولهما ان كل امرئ مسئول ومحاسب على ما قدمت يداه بصفته الفردية وثانيهما ان الحاكم الأعلى الذي سيلقى الانسان حسابه أمامه عليم تمام العلم بالسرائر والظواهر وما تخفيه الأنفس والصدور وما تعلنه الجوارح والحواس وأنه خبير بالطوايا مطلع على ما يدور في الأذهان والنوايا .

فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾

يعنى ان الله هو السلطان المطلق وليس اى حاكم من الحكام الدستوريين فحاشاه ان يجده قانون يعمل في اطاره وتنزهت ذاته عن تقيدها بدستور تسير على بنوده وافقاره فهو الاله الصمد والرب الاوحد له السلطة المطلقة في أن يعذب ويعاقب من يشاء أو يتوب ويغفر لمن يشاء .

ۚ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ۚ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ
وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ۚ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ
وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ غُفْرَانُكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾

هنا اعيد تقرير بنود الايمان الاساسية اجمالا واختصارا وهى الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله جميعا والبعث والحساب امام الله في الآخرة وعلى المسلم بعد التسليم بها وقبولها ان يخضع طوعا لكل حكم من الله ويصدق ويذعن لكل أمر من ربه . ثم عليه في ذات الوقت ألا يزهو مختلا بصالح اعماله وانما يطلب من ربه ان يهبه مغفرة وصبرا .

لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا

يعنى ان الله لن يؤاخذ احدا على تقصيره فيما لم يكن في مقدوره فعله ولن يعاقبه على ارتكابه ما لم يكن في مكنته الابتعاد عنه واجتنابه . ورغم هذا علينا ان نعى تماما ان المرء ليس قاضى نفسه فيقرر ما يستطيع عمله

وما لا يستطيع بل الله وحده من بيده الأمر يقرر لكل انسان ما يقدر على فعله وما لا يقدر .

لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ

هذه هى الفقرة الثانية من القانون فالمكافآت والعقوبات فى حقيقتها نتائج وعواقب اعمال كل امرئ وافعاله . فالمرء يجزى خيرا عما فعله بنفسه من خير لا على خير قدمه سواه .

ويجدر بنا ان ننوه فى هذا الى ان المرء اذا عمل عملا صالحا استمر فى اصدار نتائج طيبة ردحا من الزمن بعد موته فكل ما تولد عنه من خير يضاف الى كفة ميزانه عن آخره . وان اقترف شرا تسبب فى تفريخ شرور ومآثم بعد قضائه فكل ما افرخ من شرور يضاف عليه الى نهايته . لكن كلا الحاصلين اعنى الخير والشر هما نتائج اعمال المرء وما قدم فى حياته . باختصار لن يعاقب المرء او يثاب الا على ما كسبت يداه وقدمت عن عمد وقصد اذ ليس فى قانون الثواب والعقاب الالهى نقل او ترحيل للحساب من عميل الى آخر .

رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَأَمْحَلَّتْهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا

يعنى ربنا احفظنا وقنا المحن والمصائب والمضائق والزلات التى مر بها من ساروا فى طريقك قبلنا .

ورغم ان الله قد وضع قانونا من لدنه يقضى بابتلاء المؤمنين والا يتركوا « أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون » حتى يعلم الذين جاهدوا منهم ويعلم الصابرين الا ان المؤمن عليه ان يدعو الله ان يجعل طريق الحق والايمان أمامه سهلا يسيرا وأن يقابل ابتلاءات الله واختبارات الله بقلب راض وجأش رابط .

رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ

يعنى اجعل احمالنا من المحن والبلاوى والفتن والاختبارات احمالا

تتفق وقدرتنا ونستطيع حملها والقيام بها واجعل ما تبطينا به مما نستطيع
اجتيازه بسلام ونجاح كي لا نفشل وتذهب ريحنا ونضل صراطك المستقيم .

وَأَعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

لكي نفهم روح هذا الدعاء الحقيقة ينبغي ان نأخذ في اعتبارنا ان هذه
الآيات نزلت في مناسبة معراج الرسول عليه صلوات الله وتسليماته قبل
هجرته الشريفة الى المدينة بحوالى عام . وكان الصراع بين الاسلام والكفر
قد بلغ سنامه آنذاك واشتد بلاء المسلمين وزلزلوا زلزالا شديدا وقست
قلوب الكافرين عليهم ليس في مكة وحدها بل ضاقت الجزيرة على المسلمين
بما رحبت ولم يكن بها واد ولا قفر ولا جبل ولا سهل يستطيع المسلم ان يحيا
فيه آمنا فتلقى المسلمون هذا الدعاء يضمّدون به جراح انفسهم ويتزودون به
امام المحن والبلايا .

وبديهى ان العبد لابد وان يؤمن ايمانا راسخا بحصول استجابة
دعائه وطلبه اذا كان الرب نفسه هو من لقنه الدعاء وعلمه الطلب . من
أجل هذا عمل هذا الدعاء في نفوس المسلمين عمل السحر فأفعمهم بشجاعة
ليس لها نظير ونزل عليهم سكينه واطمئننا في ساعة بلغت المحنة فيها
منتهاها ووصلت الطامة عليهم الى ذراها بالاضافة الى أنه علمهم أن
يحكموا عواطفهم ويتحكموا في مشاعرهم وتوجيهها في نطاق الحدود التي
احتواها هذا الدعاء ولا يدعونها تتبدد في مسارات خاطئة ضالة . وهذا
هو سبب خلوه من اى نوع من المرارة ومقت الاعداء وليس في الفاظه
ومعانيه مسحة من الانتقام والتعلق بأمور الدنيا ومشاغلها وهذا ما كان
المسلمون في اشد الحاجة اليه في وقت كانوا يعبرون فيه اعظم المصائب
وأبلغ الرزايا ويتكبدون فيه أفدح الخسائر المادية ويعانون فيه ما لا يحصره
العد من الشدائد والرزايا ويتخطفون في كل بقعة ويحاصرون في كل مكان
ويؤذون بدنيا ويزلزلون اقتصاديا . ولعمري فما التباين بين سمو الافكار
الواردة في هذا الدعاء وبين شدة ما كانوا فيه من المحن الا ضوء لامع يكشف
عن المستوى العالى من التدريب الروحي والأخلاقى الذى كانوا يتلقونه حتى
في أحلك الساعات وأعنفها وهذا هو مستوى الأخلاق السامى الذى وضعه
الله ليصل اليه كل مؤمن صادق الايمان راسخ العقيدة .

تَقْسِيْرُ
سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

مقدمة

اسمها:

ورد في هذه السورة ذكر آل عمران فجعل اسمها كعلامة مميزة .

أجزاؤها وزمن نزولها :

تنقسم هذه السورة الى أربعة خطابات :

الخطاب الأول : من أول السورة والى قوله تعالى ((قل أطيعوا الله والرسول فان تولوا فان الله لا يحب الكافرين)) .

الخطاب الثاني : يبدأ بالآية ((ان الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين)) وينتهي بقوله تعالى ((فان تولوا فان الله عليم بالمفسدين)) وقد نزل هذا الجزء سنة تسع من الهجرة وفي مناسبة قدوم وفد نجران الى النبي صلى الله عليه وسلم .

الخطاب الثالث : ويبدأ من قوله عز وجل ((قل يا اهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء ... الى الآية ... وان تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا ان الله بما يعملون محيط)) وهو متصل بالخطاب الأول من حيث الزمن .

الخطاب الرابع : من أول الآية ((واذا غدوت من اهلك تبوء المؤمنون مقاعد للقتال والله سميع عليم)) والى نهاية السورة وقد نزل بعد معركة أحد .

مباحث السورة :

ان ما يربط هذه الخطابات المختلفة ويجعل منها مقالا متصلا مسلسلا هو تساوى الغرض والمضمون الرئيسى . وهذه السورة موجهة على وجه الخصوص الى جماعتين الاولى اهل الكتاب (اليهود والنصارى) والثانية من آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم .

فاما الفريق الاول فقد وجه لهم في هذه السورة مزيد من الدعوة التى بدأت حلقاتها في سورة البقرة ، وأبرزت وجوه ضلالهم وفسادهم في العقيدة وفى الاخلاق ، واخبروا ان هذا الرسول وهذا القرآن يدهوان الى ذلك الدين

الذى دعت اليه الانبياء وهو دين الحق الذى يطابق فطرة الله . وأن كافة الطرق التى اخترتموها بعد انحرافكم عن طريق هذا الدين المستقيم هى طرق غير صحيحة حتى من وجهة نظر الكتب التى تؤمنون بها كتباً سماوية .

واما الفريق الثانى فقد جعلوا رواد الحق المسئولين عن اصلاح العالم بوصفهم خير أمة أخرجت للناس . وعلى هذا صدر اليهم مزيد من التعاليم والارشادات والأوامر التى بدأت فى سورة البقرة ، فبسطت أمامهم صورة الزوال الاخلاقى والاندثار الدينى للامم السابقة كى يضعوها عبرة أمام أعينهم ويحذروا السير فى مسالكها ودروبها ، وأخبروا بأسلوب العمل الذى ينبغى السير عليه باعتبارهم جماعة مصلحة ، وكيفية معاملة أهل الكتاب والمنافقين الذين يقيمون كل نوع من العراقيل فى الطريق الى الله . كذلك صدرت اليهم التوجيهات الخاصة باصلاح نقاط الضعف التى ظهرت بينهم فى حرب أحد .

هكذا نجد أن هذه السورة ليست متصلة الأجزاء فى حد ذاتها فحسب وانما تربطها بسورة البقرة علاقة قريبة حتى أنها تبدو وكأنها تنمة لها يستشعر المرء بداهة أن مكانها لا بد وأن يتصل بسورة البقرة .

مناسبة نزولها .

الخلفية التاريخية للسورة :

١ — أن الابتلاءات والمصاب والمشكلات التى نبه اليها المؤمنون بهذا الدين الحق مسبقا فى سورة البقرة حدثت على نحو شديد . ورغم أن المؤمنين غلبوا وانتصروا فى حرب بدر ، الا أن هذه المعركة أهاجت على المؤمنين أعداءهم فقد استفز هذا الصدام المسلح — الذى وقع لأول مرة بين المؤمنين وغيرهم — كافة طاقات العرب التى كانت تعادى هذه الحركة الجديدة ، وغشت المسلمين حالة من الخوف والفرع الدائم فكانوا يشعرون بأن هذه المدينة الصغيرة (يثرب) التى كانت تقاتل العالم كله من حولها سوف تمحى من صفحة الوجود وتصبح أثرا بعد عين وكان لهذه الظروف أسوأ الأثر على وضع المدينة الاقتصادية فلقد كان وفود عدد ضخم من المهاجرين على تلك البلدة الصغيرة — التى كان يسكن أهلها فى بضع مئين من الدور والمنازل — سببا فى اضطراب معاشها واقتصادها ثم جاءت هذه الحرب لتزيد الطين بلة .

٢ — لم تف القبائل اليهودية التى كانت تعيش فى أطراف المدينة بحرف واحد من بنود المعاهدات التى عقدها معهم النبى عليه الصلاة والسلام بعد الهجرة ، وفى وقعة بدر وقف أهل الكتاب الى جانب المشركين الوثنيين بدلا من مساندة المسلمين الموحدين المؤمنين بالكتاب والنبوة والاخرة ، فما أن انتهت المعركة حتى راخوا يستثيرون قريشا وغيرها من القبائل العربية ضد المسلمين علانية ويحرضونها على الثار منهم ونخص منهم بالذكر كعب بن أشرف راس بنى نضير الذى وصلت مساعيها فى هذا الى حد العداوة

العمياء بل اللؤم والخسة والدناءة ، وألقى اليهود بعلاقات الصداقة والجوار التي كانت تربطهم بأهل المدينة منذ قرون . وأخيرا حين وصل أذاهم وخيانتهم ونقضهم العهد حدا لا يطاق هاجم النبي صلى الله عليه وسلم سبعا بدر بعدة أشهر — بنى قينقاع الذين كانوا أشد القبائل اليهودية اذى وشرا وأخرجهم خارج اطراف المدينة ، الا أن هذا اثار القبائل اليهودية الاخرى وأشعل نار عنادهم فوضعوا يدهم في يد المسلمين المنافقين من أهل المدينة وقبائل الحجاز المشركة وبدأوا يخلقون المصاعب في وجه الاسلام والمسلمين من كل جانب حتى أن النبي صلى الله عليه وسلم نفسه كان يعيش متوقعا هجومهم عليه هجمة قاتلة ولكن لايعرف متى ذلك . وكان الصحابة الكرام كلهم آنذاك ينامون ممتشقين أسلحتهم وكانوا يتناوبون الحراسة ليلا خشية أن يغير عليهم الأعداء . وكان النبي اذا غاب عن عيونهم برهة وجيزة خرجوا يبحثون عنه في فزع وهلع بالغ .

٣ — اتقدت نار الانتقام في قلوب قريش بعد هزيمتهم في بدر وأجج اليهود هذه النيران وزكوها فكانت النتيجة أن خرج من مكة — بعد عام واحد — ثلاثة الاف في جيش عرمرم هاجم المدينة ووقعت حرب أحد وكان قد خرج مع الرسول صلى الله عليه وسلم من المدينة لهذه الحرب الف رجل وفي الطريق برز ثلاثمائة من المنافقين دفعة واحدة وانفصلوا عن جيش المسلمين وعادوا أدراجهم الى المدينة وقد حوت المئات السبع التي بقيت مع الرسول شرذمة من المنافقين بذلوا كل جهد ممكن لاثارة الفتنة بين المسلمين ابان الحرب ، وكانت هذه هي المرة الاولى التي عرف المسلمون فيها أن في وسطهم مثل هذا الجمع الغفير من الخونة الأفاعى الذين اتحدوا مع أعدائهم وأصروا على ايداء أخوتهم والاضرار بأبناء عشيرتهم .

٤ — ان الهزيمة التي لقيها المسلمون في أحد رغم أن تدابير المنافقين وحيلهم كان لها ضلع كبير فيها الا أن نقاط ضعف المسلمين واخطاءهم فيها لم تكن قليلة وانه لأمر طبيعي أن تظهر بعض نقاط الضعف في جماعة تكونت منذ وقت وشيك على نظام أخلاقي وطريقة تفكير خاصة وتواجه الحرب الثانية في سبيل حماية عقيدتها ومنهجها ولما تكتمل تربية أفرادها بعد لهذا بات ضروريا أن يصدر تعليق كامل على الحرب بعد انتهائها أشير فيه الى نقاط الضعف التي أصابت صفوف المسلمين من وجهة النظر الاسلامية واعطيت فيه الارشادات والتعاليم اللازمة لاصلاحها وتقويمها .

وجدير بنا في هذا الصدد أن نشرح طرفنا في تعليق القرآن على هذه الحرب لنرى كيف يختلف عن تلك التعليقات التي يصرح بها القادة الدنيويون عقب خوضهم المعارك والحروب .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم ﴿١﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾

انظر شرح هذا في تفسير الآية ٢٥٥ من سورة البقرة .

نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ
التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٣﴾

يفهم الناس بوجه عام أن المراد بالتوراة هي الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم (١) وأن المقصود بالانجيل أناجيل العهد الجديد الأربعة الشهيرة (٢) ومن هنا ظهرت هذه المشكلة :

أي هذه الكتب ياترى هو كلام الله حقا ؟ وهل يصدق القرآن فعلا كل ماورد فيها من أقوال ؟ والحقيقة أن التوراة ليست هي الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم بل هي منشورة في بطنها وأن الانجيل ليس هو الاناجيل الأربعة بل هو موجود بين سطورها .

فالمراد بالتوراة أصلا تلك الأحكام التي نزلت على موسى عليه السلام منذ بعثته وإلى وفاته أى في مدة تقارب اثنين وأربعين عاما كانت منها تلك الوصايا العشر التي دونها الله على الألواح وأعطاهما له . أما بقية الأحكام فقد أمر موسى عليه السلام بكتابة اثنتى عشرة نسخة منها وأعطاهما لأسباط

(١) هي التكوين والخروج واللاويين والعدد. والتثنية — المترجم .
(١) هي انجيل متى وانجيل مرقس وانجيل لوقا وانجيل يوحنا — المترجم .

بنى اسرائيل الاثنى عشر وأعطى نسخة من بين هذه النسخ الى بنى لاوى
أحد أسباط بنى اسرائيل كي يحفظوها . وكان هذا الكتاب يسمى بالتوراة
وقد ظل سليما محفوظا ككتاب مستقل حتى اول تدمير لبیت المقدس وكانت
نسخة بنى لاوى والالواح الحجرية توضع فى تابوت العهد ويعرفها بنو
اسرائيل باسم (التوراة) . غير أن غفلتهم ونسيانهم وصل الى حد أنه حين
حدث ترميم الهيكل السليماني فى عهد (يوسياه) ملك يهوذا . عشر كبير
الكهان على التوراة موضوعة فى مكان ما فى (خلقيا) واعطاها الى كاتب الملك
كأعجوبة أثرية فأخذها الكاتب وقدمها للملك كاكشاف مدهش عجيب (أنظر
الملوك الثانى أصحاح ٢٢ من ١٣:٨)

وحين فتح (بختنصر) اورشليم واحرق الهيكل والمدينة باكملها وسواها
بالتراب فقد بنو اسرائيل نسخ التوراة الأصلية التى كانت لديهم أعداد جد
قليلة منها وكانوا قد أسدلوا عليها ستائر النسيان .

ثم لما عادت بقية بنى اسرائيل من الأسر البابلى فى عهد الكاهن عزرا
(عزير) الى اورشليم وبنى بيت المقدس من جديد دون عزرا كل تاريخ بنى
اسرائيل بعون من بعض أكابر القوم وهو ما يضم الآن الأسفار السبعة
عشر الاولى من العهد القديم .

والاسفار الاربعة من هذا التاريخ التى تحوى سيرة موسى عليه
السلام وهى الخروج واللاويين والعدد والثنائية ادرجت فيها آيات التوراة
التي كانت فى يد عزرا ومعاونيه حسب موقعها وفق ترتيب نزولها .

فالتوراة الآن اذن هى تلك الأجزاء المتفرقة التى تنتشر فيها سيرة موسى
عليه السلام بين صفحات العهد القديم ونستطيع أن نثبتها من بين هذا السرد
التاريخى بعلامة واحدة هى أننا اذا وجدنا مصنف سيرة موسى يقول : قال
الله لموسى كذا . . . أو قال موسى الرب الهكم يقول كذا . . . فلنعلم أن جزءا من
التوراة قد بدأ هنا . ثم اذا استأنف سرد السيرة فلنعلم أن هذا الجزء قد
انتهى . واذا ما أسهب مصنف التوراة فى شرح وتفسير شىء ما فى موضع
وسط صفحاتها تعذر على المرء العادى أن يميز ما اذا كان هذا الجزء من
التوراة الأصلية أم من الشرح والتفسير . ومع ذلك فمن لهم بصيرة فى تدبر
الكتب السماوية فى مقدورهم أن يعرفوا الى حد ما التفاسير والشروح التى
أضيفت وألحقت بهذه الأجزاء على نحو صحيح .

والقرآن يسمى هذه الاجزاء المتناثرة (التوراة) ويصدقها والحقيقة
اننا لو جمعنا هذه الاجزاء وقارناها بالقرآن فلن نجد قيد شعرة من الاختلاف
بين التعاليم الأصلية الكلية فى الكتابين اللهم الا الاختلاف فى الاحكام الجزئية
فى بعض المواضع والتدبر لكليهما اليوم يستطيع أن يحس احساسا واضحا
بان كلا الراغبين صادر من منبع واحد .

كذلك فالانجيل في أصله هو تلك الخطب والاقوال التي قالها المسيح عليه السلام حتى آخر عامين أو ثلاثة من حياته بوصفه نبيا من عند الله . أما هل كتبت هذه الكلمات الطيبات في حياته أم لا فليس عندنا أى مصدر نستقى منه المعلومات حول ذلك وقد يجوز أن يكون بعض الناس قد دونوها ويجوز أن بعض المؤمنين به سمعوها وحفظوها شفاهة . على أى حال حين كتبت رسائل مختلفة عن سيرته الطاهرة بعده بردح من الزمن أدرجت فيها — الى جانب البيان التاريخي — تلك الأقوال والخطب التي وصلت الى مصنفى هذه الرسائل عن طريق الروايات الشفهية أو المذكرات المكتوبة . وكتب متى ومرقس ولوقا ويوحنا التي تسمى اليوم (أناجيل) ليست هى الانجيل الاصلى وإنما الانجيل الحق هو أقوال المسيح التي أدرجت بين سطورها وليس لدينا وسيلة للتعرف عليها والتفريق بينها وبين كلام كتاب سيرة المسيح عليه السلام سوى أنه حين يقول المؤلف قال المسيح كذا . . . أو وعلم المسيح الناس كذا . . . فهذه هى أجزاء الانجيل الاصلى والقرآن يسمى هذه الأجزاء بالانجيل وبصدقها ولو جمع امرؤ اليوم هذه الأجزاء المنثورة بين صفحات العهد الجديد وقارنها بالقرآن لما وجد بين كليهما سوى فرق طفيف وحتى هذا الفرق البسيط الذى يدركه من يقوم بهذه المقارنة يمكن حله وازالته بسهولة ويسر بعد التفكير فيه بعقل بعيد عن التعصب .

مِنْ قَبْلِ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿١٠١﴾

يعنى هو العليم بحقائق الكون ومن ثم فالكتاب الذى أنزله لابد وأنه حق من أوله الى آخره بل ان الحق الخالص لا يتيسر للانسان الا فى هذا الكتاب الذى نزل من لدن هذا العليم الخبير .

هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٢﴾

هذه الآية تحوى اشارة الى حقيقتين هامتين الأولى أن فطرتكم لا يعرفها أحد مثلما يعرفها من خلقتها وعلى هذا فليس لكم من سبيل سوى الاعتماد على رشده وهدايته . والثانية أن من هيا أشباع حاجاتكم وضروراتكم جميعها من أصغرها الى أكبرها وأكبرها فى كل موقع وموضع عبر حياتكم منذ استقراركم فى أرحام أمهاتكم والى نهاية أجلكم كيف لا يكون قد أعد لكم الهداية فى الحياة الدنيا وهيا لكم رشده فى حين أن أكثر شىء تحتاجون اليه فى حياتكم هو هذه الهداية ؟

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ

محكم تقال للشيء المتين الراسخ الناضج ، والمراد بالآيات المحكمات الآيات التي صيغت في لغة صافية واضحة ، والتي لا مجال للشك أو الاشتباه في تحديد مفهومها ، والتي تدل الفاظها وكلماتها على معانيها ومقاصدها دلالة قاطعة لا لبس فيها ولا غموض ، والتي يستحيل على المرء أن يجد فرصة فيها ليجنح بها إلى التأويل . هذه الآيات هن أم الكتاب يعنى أنها تحقق الغرض الذى نزل من أجله القرآن ففيها دعى العالم الى الاسلام وفيها ذكرت العبر والنصائح وفيها أبطلت الضلالات وأوضح الطريق القويم وفيها ذكرت مبادئ الدين وأصوله الأساسية وفيها تقررت العقائد والعبادات والاخلاق والفرائض والأوامر والنواهي فإذا كان المرء طالبا للحق والحقيقة ويريد الرجوع الى القرآن ليعرف أى طريق يمشى فيه وأى سبيل يصمد عنه ويبتعد فان هذه الآيات المحكمات سوف تكون النبع الاصلى الذى يروى ظمأه ويرتكز عليها توجيهه فطرة وسيظل مشغولا بالافادة منها بدرجة أكثر .

وَأَخْرَجَ مِنْهَا

يعنى تلك الآيات التى يحتمل مفهومها الظن أو الاشتباه .

وطبيعى أنه لا يمكن أن يقدم للانسان أسلوب للعيش وطريقة للحياة مالم تعط له المعلومات الضرورية عن حقيقة الكون وبدايته ونهايته وعن وضع الانسان وما الى ذلك من الامور الاساسية الاخرى . كذلك من الطبيعى أيضا أن تلك الاشياء التى وراء حواس الانسان ولا تدخل فى نطاق علمه ولا يستطيع رؤيتها أو لمسها أو تذوقها لاتوجد فى لغة البشر تلك الالفاظ التى وضعت لها خاصة ولاتلك الاساليب البيانية المعروفة التى تصور هذه الأشياء تصويرا صحيحا فى ذهن كل سامع فلا محالة اذن من أن توجد فى لغة البشر الالفاظ والأساليب البيانية التى تستخدم الاشياء المحسوسة — التى هى أقرب شيها للحقائق الأصلية — لتوضيح هذا النوع من المضامين والمعانى ولهذا استعملت مثل هاتيك الالفاظ والأساليب فى القرآن لتبيان مسائل ما وراء الطبيعة والمقصود بالآيات المتشابهات تلك التى استخدم فيها هذا البيان .

غير أن أكبر فائدة للانسان من هذه اللغة البيانية هى دفعه قريبا من الحقيقة أو ابراز فكرة خافتة عنها وبقدر ما يبذل من محاولات وجهود لتعيين معنى هذه الآيات ستظهر تأويل وترجيحات كثيرة حتى ان الانسان ليبعد عن الحقيقة بدلا من الاقتراب منها فأما الذين يطلبون الحق ولا يرغبون العبث فيقنعون من المتشابهات بتلك الفكرة الخافتة التى تعطىها لهم عن الحقيقة والتى تكفى لتسيير العمل ويوقفون كل اهتمامهم بالمحكمات فقط .

واما العابثون أو الباحثون عن الفتنة المؤججون لنيرانها فلا يشغلهم سوى البحث والتدقيق في التشابهات دون غيرها .

فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۚ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمَّنَّا بِهِ ۚ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾

لعمري كيف يؤمن أولئك الناس بالمتشابهات وهم لا يعرفون معناها الصحيح ؟ هذا أمر لا يعترى الشك ذهن أحد فيه . والحقيقة أن العاقل يستمد الإيمان بأن القرآن كلام الله من دراسة المحكمات لا من تأويل المتشابهات وإذا ما أمن واطمأن — بعد تفكير وامعان في المحكمات — الى أن هذا الكتاب هو كتاب الله فعلا فلن تبعث المتشابهات في قلبه ادنى هواجس الشك والتردد فان وقر مفهومها السليم في ذهنه أخذه وان اشكل عليه آمن بكلام الله ايمانا مجهلا وحول اهتمامه الى العمل بدل اتجاهه صوب سبيل البحث والتفتيش والسفسطة والجدل .

رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا

انظر تفسير الآية ١٦١ من سورة البقرة .

لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ وَقُودُ النَّارِ ﴿١٠﴾ كَذَّابٌ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۚ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سِتُغْلِبُونَ ۚ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ۚ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلِهِمْ رَأَىٰ الْعَيْنِ

رغم أن الفرق الحقيقي بين عدد الفئتين كان ثلاثة أمثال إلا أن الناظر بعينى رأسه كان يحس أن جيش الكفار ضعف جيش المسلمين .

وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٢﴾

كانت حرب بدر آنذاك قد وقعت منذ زمن قريب . ولهذا أشير الى وقائعها ونتائجها ثم جعلت عبرة للناس . ولقد كان للناس في هذه المعركة عبر ودروس ثلاثة :

الاول أن الوضع الذى تقابل فيه المسلمون والكفار ظهر فيه الفرق بين أخلاق الفريقين . ففريق تدور فيه كئوس الشراب على عسكرهم الكثيرين وتصحبهم الغانيات يرقصن ويغنين ويلهين ويترغن وفريق في جنوده التقوى والورع وخشية الله وقمة السمو الأخلاقى يصلون ويصومون ويذكرون الله في كل أمر ويدعون ربهم واليه يضرعون . فكان اذا نظر امرؤ الى كليهما أيقن بسهولة أى الفريقين يقاتل في سبيل الله .

والثانى أن الطريقة التى انتصر بها المسلمون في قلة عددهم وعتادهم على الكفار في كثرة عددهم وتدجج عسكرهم بأعظم السلاح اتضح منها أن الله يؤيدهم ويقف الى جانبهم .

والثالث ان هذه الواقعة كانت صدمة قاسية شديدة لأولئك الذين نسوا قدرة الله الغالبة الناصرة وانتشوا بعتادهم ومتاعهم وسكروا بحشود مناصريهم ومعاضديهم . فكيف توقع شزيمة من المعدمين الفقراء الغرياء المهاجرين وحفنة من فلاحى يثرب القشفين الهزيمة بقريش سيدة قبائل العرب أجمعين ؟

زَيْنَ النَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ

الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ

وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ

عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَعَابِ ﴿١٣﴾ * قُلْ أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ

ذَلِكَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا

الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ

(أنظر ماورد في شرح هذا المعنى في الآية ٢٥ من سورة البقرة)

وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾

يعنى أن الله لا يخطئ عطاؤه ولا يقضى قضاء سطحيًا عابرا وإنما يعلم أعمال عباده وأفعالهم تمام العلم ويطلع على نواياهم وسرائرهم خير اطلاع فيعلم من بين عباده من هو أحق بأنعمه واحسانه .

الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَمْنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ

يعنى أولئك الذين يبدون استقامة تامة على طريق الحق ولا يضعفون أمام المصائب والخسائر ولا يحطم الفشل قلوبهم ولا يزلهم حرص ولا طمع بل يستمسكون بعروة الحق الوثقى حيث يغيب عن الأنظار في الظاهر أدنى احتمال للنجاح والفوز .

(أنظر تفسير الآية ١٥٣ من سورة البقرة)

وَالصَّادِقِينَ وَالْقَنِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ شَهِدَ

اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

يعنى أن الله الذى يعلم حقائق الكون كلها علما مباشرا ويرى جميع الموجودات دونها حجاب ولاستر ولا يخفى عليه شئ في السماوات أو في الأرض يشهد — وأى شهادة أصدق من شهادته جل شأنه — أن ليس في الوجود كله وجود آخر يتصف بالالوهية وتكون له سلطة المالك وحقوق الربوبية غير ذاته العلية .

وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ

أكثر الشهادات ثقة واعتبارا بعد الله شهادة الملائكة لأنهم هم العمال الذين يعملون على ضبط مملكة الكون . فهم يشهدون — بناء على علمهم الذاتى المباشر — أن لاحكم غير حكم الله يعضى في هذه المملكة ، وليس ثمة

وجود غير الله يرجعون اليه في ادارة السماوات والأرض . والشهادة التي تلى هذه هي شهادة أولئك الذين يعرفون الحقائق قليلا أو كثيرا وهي شهادة يتفقون فيها منذ بدء الخلق والى يوم الناس هذا على أن لهذا الكون كله الها وربا ومديرا واحدا لاغير .

قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ

يعنى أن هناك نظام حياة وطريقة عيش واحدة صحيحة عند الله لعباده ألا وهي أن يسلم الانسان بالله ربا له ومالكا ومعبودا ويدع نفسه مستسلما له في عبودية وذل والا يخترع بذهنه طريقة لاداء واجبات العبدية وفروضها بل يتبع ما أرسله الله له على يد أنبيائه في كل صغيرة وكبيرة اتباعا جادا حاسما . وطريقة الفكر والعمل هذه اسمها الاسلام وما أصدق وأصح من الا يجيز خالق الكون وحاكمه ومالكه لرعيته منهاج حياة وطريق عمل غير هذا الاسلام . وقد يرى الانسان لحماقته وجهله أن له الحق في اتباع كل مذهب والسير وراء كل نظرية ابتداء من الدهرية والالحاد والى الشرك وعبادة الأوثان الا أن حاكم الكون يرى هذا عصيانا وتمردا كبيرا .

وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ

المعنى أن كافة الرسل الذين بعثوا من لدن الله في أى مكان وأى زمان كان دينهم الاسلام وان كل كتاب أنزله الله في أية أمة وبأية لغة كان يدعو الى الاسلام ويعلمه . أما المذاهب الكثيرة التي راجت في الناس بعد تحريف هذا الدين الاصلى ومسخه فليس لظهورها سبب غير أن الناس خرجوا عن حدهم المشروع وأرادوا لأنفسهم حقوقا وفوائد وامتيازات أكثر فأحدثوا في الدين الاصلى ما أحدثوا من التبديل والتحريف بما ينسجم ورغباتهم .

وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَاسَلِمْتُ

بعبارة أخرى يعنى قل لقد آمنت ومن اتبعنى بهذا الاسلام الخالص

النقى الذى هو دين الله الاصلى فهل تتركون ما زدتوه عليه وزاده اسلافكم وتتجهون الى هذا الدين الاصلى الحقيقى ؟

فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَاللَّهُ بِصِيرٍ
بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ
بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾

هذا تعبير تلميحى . والمقصود أخبرهم بأن العذاب الاليم هو نهاية
أعمالكم التى نقتربونها اليوم برضا منكم وسرور وتحسبون أنكم تحسنون
صنعا .

أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

يعنى أن قواهم ومساعدتهم التى بذلوها فى هذا السبيل نتيجتها فى الدنيا
خراب ودمار وفى الآخرة عذاب وبوار .

وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴿٢٢﴾

يعنى ليست هناك قوة تجعل هذا السعى السيئ والعمل الحابط ناجحا
مثمرة أو تنقذه من سوء المآل قيد شعرة . وتلك القوى التى يثقون فيها
ويعتمدون عليها لن يكون لهم من بينها ناصر ولا معين .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ
لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّوْا فِرْيَقًا مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾

يعنى يقال لهم اتخذوا كتاب الله أول وآخر مرجع واصدعوا بما يأمركم
به واطيعوا أحكامه وما يراه حقا فاتخذوه حقا ، وما يراه باطلا فاعتبروه

باطلا وواضح أن المراد بكتاب الله هنا هو التوراة أو الانجيل وأن المقصود بالذين أوتوا نصيبا من الكتاب علماء اليهود والنصارى .

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ^ط

يعنى أنهم اعتبروا أنفسهم أحياء الله وأصفياه فكانوا يعتقدون أننا مهما فعلنا فالجنة نصيبنا فنحن أهل الإيمان أولاد فلان وقوم فلان ومريدو الشيخ فلان واتباع الولي فلان فلن تمسنا النار ولو فرض وادخلنا النار فلاينم معدودات حتى تظهر من كدورات الذنوب وأوساخ الآثام ثم نرسل الى الجنة مباشرة . هذا النوع من الافكار والمعتقدات جعلهم ينزعون الخشية من قلوبهم واذهانهم ويتجاسرون على ارتكاب جرائم أشد واقطع وينحرفون عن الحق أكثر وأكثر .

وَعَرَّاهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا

جَعَلَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ

وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ

مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ

مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾

تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ

مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ

بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾

حين ينظر الانسان الى فعال الكافرين والعاصين وكيف يحيون في نرف ورغد ثم يحول وجهه صوب المؤمنين فيرى طاعتهم واستقامتهم وكيف يعيشون في فقر وفاقة وتكتنفهم تلك الالام والرزايا التي كان يصادفها الرسول عليه الصلاة والسلام وصحابته الكرام في العام الثالث للهجرة وما

نحوه عندئذ يدور في قلبه تساؤل مر يبعث الحسرة والالام . هذا التساؤل انزل الله جوابه هنا في أسلوب كله رقة ولطافة هيات ان يتصور المرء رقة وعذوبة تفضلها .

لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ
ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتُوا

يعنى لو سقط مؤمن وسط جماعة معاديه للاسلام وكان يخشى منها ظلما وعنتا فله ان يكتنم ايمانه ويظل معهم كأنه واحد منهم فان بان لهم اسلامه ففى وسعه ان يظهر لهم الود والمصادقة بل يبطق بكلمة الكثر حفاظا على روحه اذا لم تكن به القدرة على التحمل وسط الخوف والفرع الشديد .

وَيَحْذَرُكَ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾

يعنى لا يستولى عليكم الخوف من البشر بحيث يهجر خوف الله قلوبكم فالناس قد يفلحون في افساد حياتكم لكن الله قادر على ان يسوكم عذاب الخلد . لهذا فان اكرهتم على سلوك سبيل التقية مع الكفار للابقاء على ارواحكم واموالكم فينبغى ان يكون ذلك الى الحد الذى لا يضر جماعتكم الاسلامية او يلحق الاذى بروح ومال احد من المسلمين . . . ولكن احذروا ان تقدموا للكافرين بايديكم ما به يعلو الكفر على الاسلام و ما فيه احتمال شلبة الكافرين على المسلمين واعلموا تمام العلم ان لو الحقتم بدين الله او جماعة المؤمنين او احد افرادها ضرا واذى او قدمتم للكافرين الباغين على الله خدمة حقيقية لتصونوا ارواحكم وتحموا انفسكم فانكم لن تصونوها من حساب الله او تحموها من قصاصه ابدا فالمصير حتما اليه .

قُلْ إِنْ تُخَفُّوْا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تَبْدُوْهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ
وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ
خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تُوَدِّ لَوْ أَنْ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيَحْذَرُكَ
اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٣٠﴾

يعنى أن من رافته الواسعة ورحمته الرحبة نحذركم من تلك الأعمال
التي توجب تدمير نهايتكم وفساد مآلكم ومصيركم +

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ
لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ
وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾

هنا ينتهى الخطاب الاول ومن تدبرنا لاسلوبه — خاصة الاشارة التى
وردت فيه عن وقعه بدر — نرجح أنه نزل بعد وقعه بدر وقبل حرب أحد
يعنى فى العام الثالث الهجرى ولقد فهم الناس خطأ من رواية محمد بن اسحاق
أن الآيات الثمانين الاولى من هذه السورة نزلت فى مناسبة قدوم وفد نجران
فى العام التاسع الهجرى ، غير أن مضمون هذا الخطاب التمهيدى يوضح
لنا فى جلاء أن نزوله كان قبل ذلك بأمد بعيد كما أن مقاتل بن سليمان يصرح
فى روايته بأن الآيات التى نزلت فى مناسبة قدوم وفد نجران هن فقط تلك التى
تحتوى ذكر سيدنا يحيى وسيدنا عيسى عليهما السلام وهى ثلاثون آية أو
تزيد .

* إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾

عمران هو والد سيدنا موسى وهارون عليهما السلام ويسمى فى
التوراة (عمرام) .

وبهذه الآية يبدأ الخطاب الثانى وقد نزل فى العام التاسع الهجرى حين
أتى وفد جمهورية نجران المسيحية الى الرسول صلى الله عليه وسلم .
واقليم نجران هذا يتوسط بين الحجاز واليمن وكانت نجران تضم آنذاك
ثلاثا وسبعين مدينة ويقال أنه اقليم كان فى استطاعته أن يخرج مائة وعشرين
ألف محارب وكان كل أهله يدينون بالمسيحية ويحكمهم ثلاثة قادة الأول يسمى
« العاقب » وكان أمير القوم والثانى « السيد » وكان مسئولا عن الشؤون
الاجتماعية والسياسية والثالث « الأسقف » وكان يضطلع بالامامة الدينية .

وحين فتح النبى صلى الله عليه وسلم مكة وايتن العرب جميعا أن
مستقبل البلاد قد آل اليه طفتت وفود من سائر أنحاء بلاد العرب تاتى اليه
وأرسل فادة نجران الثلاثة الى المدينة وفدا منهم ضمن هذه الوفود يضم
ستين رجلا . وبالطبع لم يكونوا على استعداد حربى لخوض نزال أو عراك

بل كانت المسألة هي أما أن يقبلوا الاسلام أو يظلوا ذميين ان شاءوا ولهذا أنزل الله هذا الخطاب على نبيه ليدعو فيه وفد نجران الى الاسلام .

ذَرِيَّةٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤﴾

أن سبب ضلال المسيحيين وفساد عقيدتهم هو ايمانهم بعيسى عليه السلام ابنا لله وليس عبدا له ورسولا من لدنه ، ثم جعلهم اياه شريكا مع الله في ألوهيته ، فاذا ما زال هذا الخطأ الأساسى عن أذهانهم أصبح في غاية اليسر أن يتجهوا صوب الاسلام الحقيقى الخالص . ولهذا السبب أنزل الله في هذا الخطاب تمهيدات يقول فيها أن آدم ونوحا ومن ظهر من الانبياء من آل ابراهيم وآل عمران كانوا جميعا بشرا آدميين يتناسلون وتتوالد ذريتهم ولم يكن منهم اله قط ولم يكن لهم امتياز أو خصوصية سوى أن الله اصطفاهم ليبلغوا دينه الى بقية عبادته وليصلحوا العالم مما هو سادر فيه .

إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ

لو أخذنا امرأة عمران هنا على انها زوجة عمران لكان ضروريا ان يكون عمران هنا ليس هو عمران الذى ذكر آنفا . وانما المقصود به أبو مريم الذى يجوز أن أسمه كان «عمران» ايضا .

واذا اعتبرنا أن المراد بالمرأة عمران امرأة من آل عمران فان معنى هذا أن ام مريم كانت من هذه القبيلة — قبيلة عمران — الا أننا لانملك مصدر معلومات نرجح عن طريقه أحد المعنيين على الآخر ترجيحاً قاطعاً اذ التاريخ لا يديننا سوى هوية أبى مريم أو قبيلة أمها وبالطبع لو سلمنا بصحة الرواية التى تقول أن أم سيدنا يحيى وأم مريم كانتا أختين أصبح فهمنا للمقصود بالمرأة عمران على أنها امرأة من قبيلة عمران فهما صحيحا لأننا نجد فى انجيل لوقا تصرّيحاً بأن أم سيدنا يحيى كانت من أولاد سيدنا هارون . (انظر لوقا ١ : ٥) .

رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٥﴾

يعنى السميع لدعاء عبادك العظيم بنواياهم .

فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ
وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ

يعنى ان انولد محرر من مواطن الضعف الفطرية والقيود الاجتماعية
التي هي من نصيب البنت فلو كان ولدا لكان أحسن وأصلح للأغرض الذي
من أجله نذرت لك مولودى .

وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ
الرَّجِيمِ ﴿٢١﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا
وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ

هنا يبدأ ذكر ذلك الحين الذى بلغت فيه مريم سن الرشد ودخلت
الهيكل وبدأت تتبطل وتذكر الله ليلا ونهارا وغالبا ما كان زكريا الذى رباها
خالها ومن مجاورى الهيكل وهو ليس سيدينا زكريا النبى الذى ورد ذكر
قتله فى العهد القديم .

أما المحراب فيذهب ذهن الناس عامة عند سماع هذا اللفظ الى
المحراب الذى جعل فى مساجدنا لنقف أمامه غير أن المراد بالمحراب هنا شيء
آخر تماما . فهو الحجرة التى تبنى فى الصوامع والكنائس وتتصل بمكان
العبادة الاصلى وتكون على ارتفاع كاف من سطح الأرض ويعتكف فيها
مجاورو المعبد والخدام والمعتكفون وكانت مريم تعتكف فى واحدة من هذه
الحجرات .

وَجَدَ عَنْهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرُؤُا أَنَّىٰ لَكَ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ
مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٢﴾
هَٰذَا لَكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ
ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٢٣﴾

كان سيدنا زكريا الى وقتها بلا اولاد وحين راى هذه الفتاة الصالحة تمنى قلبه فطرة أن يعطيه الله اولادا صالحين مثلها وحين راى كيف يرزق الله بقدرته هذه الفتاة المعتكفة غمره الامل فى أن قد يرزقه الله وهو فى شيخوخته هذه

فَنَادَتْهُ الْمَلَكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَى

اسمه فى الانجيل يوحنا المعمدان . (انظر متى اصحاح ٣ ، ١١ ، ١٤ ومرقس ١ ، ٦ ولوقا ١ ، ٣ للتعرف على أحواله) .

مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ

المراد بكلمة من الله سيدنا عيسى عليه السلام ولأن ولادته كانت معجزة غير عادية تمت بكلمة من الله وأمر خارق للعادة لذا دعاه القرآن « كلمة من الله » .

وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٠﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ

يعنى سيهبك الله ولدا رغم كبر سنك وعقر زوجك .

اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٢١﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً

يعنى قل لى علامة تطلعنى عليها مسبقا اذا ما حدثت الواقعة العجيبة الاعجازية وهى انجاب شيخ مسن وعافر عجوز .

قَالَ آيَتُكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَأَذْكُرَبَكَ كَثِيرًا
وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ﴿٢٢﴾

الغرض الاصلى من هذه الخطبة توضيح غلط اعتقاد المسيحيين أن المسيح عليه السلام هو ابن الله وبالتالي فهو اله وأورد ذكر سيدنا يحيى في صدر الخطبة وكأن الله يقول ان كانت ولادة عيسى عليه السلام تمت بطريقة اعجازية فلقد وقعت في نفس العائلة ولادة يحيى عليه السلام قبل ستة أشهر من ولادة عيسى وبنفس الطريقة الاعجازية . فالله سبحانه وتعالى يريد بهذا أن يفهم النصارى أنه اذا كانت ولادة يحيى الاعجازية لم تجعله الها فكيف يكون ذلك لعيسى على أساس مجرد ولادته الغير عادية . .

وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ
وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَمْرُؤُا اقْنُتِي لِرَبِّكِ
وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ
الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَهِمُ

يعنى كانوا يقتربون . ولقد لزم الأمر أن تجرى هذه الشرعة لان والدة مريم كانت نذرتها للعمل الالهى فى الهيكل ولما كانت لاتزال طفلة صـارت المشكلة أى المجاورين يكفلها

أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾
إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ
الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنْ
الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنْ
الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي
بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ

يعنى سيكون لك ولد مع أن أحدا من البشر لم يمسه . ولقد قيل نفس الجواب « كذلك » ردا على قول زكريا فيما سبق ومعناه في كلا الموضعين واحد والفقرة التى بعد ذلك بل البيان السابق واللاحق على حد سواء يؤكد أن مريم قد بشرت بولد دون أى اتصال جنسى وأن سيدنا عيسى قد ولد عنى هذا النحو فعلا . والا فلو كانت مريم وضعت مولودها بالطريقة الفطرية المعروفة التى تلد بها نساء الدنيا جميعا وكانت ولادة عيسى تمت على هذا النحو أيضا لأضحى كل ما ورد عبر عشرين آية من هذه السور أو ما يقاربها كلاما مهملا كل الإهمال ولأضحى كل ما ورد عن ولادة عيسى فى القرآن فى غير هذه السورة من مواضع لغوا لامعنى له .

لقد اعتبر النصارى سيدنا عيسى الها وابنا لله على أساس ولادته غير الفطرية بلا أب ، وطعن اليهود مريم فى شرفها لانهم راوا فتاة بكرًا قد ولدت فلو كانت هذه الواقعة لم تحدث أصلا لكان يكفى لتفنيد أفكار الفريقتين — أى النصارى واليهود — أن يقال لهم أنكم أيها الناس تخطئون كل الخطأ فقد كانت هذه الفتاة متزوجة . وكان فلان زوجها وأن عيسى جاء من نطفة هذا الرجل ولما كان هناك ما يدعو لتلقيبه بعيسى بن مريم بدلا من مناداته بعيسى ابن فلان فى وضوح وصراحة . ولما كانت هناك ضرورة ليراد التمهيدات المطولة والاحاديث المعقدة بدلا من القول الحاسم المختصر مما يزيد الأمر تعقيدا بدلا من إيضاحه وتبينه . فمن يأخذون القرآن على أنه كلام الله ويسعون لإثبات أن ولادة المسيح كانت ولادة طبيعية من أب وام أنما يثبتون فى الأصل أن الله تعالى — جل شأنه — ليست له القدرة التى لحضراتهم على التعبير عما يريد قوله وتبيين معناه .

اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾
وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ
بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِّنَ
الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ
الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَكُونُونَ
وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنِّي فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾

يعنى هذه الآيات كافية لإقناعكم بأننى رسول خالق الكون وحاكمه ذى السلطة العليا بشرط أن تكونوا على استعداد لقبول الحق ولا تكونوا ظالمين باغين متمردين .

وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ

يعنى أن هناك دليلا آخر يثبت نبوتى وبعثتى رسولا من عند الله فإذا لم أكن مرسلًا من عنده تعالى بل كاذبا دعيا لابتدعت دينا آخر مستقلا براسه ولنحيثكم بقوة مهارتى ومواهبى عن سابق دينكم ودعوتكم الى دينى الجديد المبتدع . لكننى أصدق نفس الدين الأصلى وأقر بصحة ذات التعاليم التى جاء بها رسل الله قبلى .

وهذا القول واضح فى الانجيل الحالية تمام الوضوح بالنسبة لسيدنا عيسى عليه السلام وأنه جاء بنفس الدين الذى جاء به موسى عليه السلام والأنبياء الآخرون . فتراه فى انجيل متى يعظ الناس فوق الجبل فيقول :

« لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ما جئت لأنقض بل لأكمل » .

(متى اصحاح ٥ : ١٧) .

وقد سألته أحد أبحار اليهود :

« يا معلم أى وصية هى العظمى فى الناموس فقال له يسوع تحب الرب الهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك هذه هى الوصية الاولى والعظمى والثانية مثلها تحب قريبك كنفسك بهاتين الوصيتين يتعلق الناموس كله والأنبياء » .

(متى ٢٢ : ٣٧ — ٤٠) .

ثم قال المسيح لتلاميذه :

«على كرسى موسى جلس الكتبة والفريسيون فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوا وافعلوه ولكن حسب أعمالهم لاتعملوا لأنهم يقولون ولا يفعلون »

(متى ٢٣ : ٢ — ٣)

وَلِأَحَلِّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ

يعنى أننى سانسخ توهيمات جهلائكم ومجادلات وسفسطات فقهاءكم القانونية وتشديدات رهبانكم والقيود التى وضعت والصقت على شريعة الله الأصلية عندكم بسبب غلبة غير المسلمين وسطوتهم عليكم وسأحل لكم ما أحل الله وأحرم عليكم ما حرمه .

وَجِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ
فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ *

يظهر من هذا أن دعوة عيسى عليه السلام كانت تعتمد على ثلاثة أصول
مثلها مثل دعوة الانبياء طرا .

الأول : التسليم بأن الله وحده هو السلطة العليا التي يختار المرء سبيل
«العبدية» أمامها ويقوم على طاعتها كل النظام الاجتماعي والاخلاقي .

الثاني : طاعة أحكام النبي بوصفه نائبا ممثلا عن هذا السلطان
الاعلى .

الثالث : أن القانون الذي يضع حدود وقيود التحريم والتحليل هو
قانون الله فحسب أما قوانين الآخرين المفروضة فرضا فباطلة مردودة .

فليس من فرق اذن — ولو قيد شعرة — بين مهمة ودعوة سيدنا عيسى
وسيدنا موسى وسيدنا محمد وغيره من الانبياء عليهم اجمعين السلام .
ويخطيء من يقر لكل واحد منهم بمهمة ودعوة مختلفة باختلاف شخصه ويفرق
بينهم في الغرض والنوع .

ان من يأمره مالك الملك بالذهاب الى رعيته لدعوتهم لا يمكن أن يكون
الغرض من مجيئه شيئا آخر سوى منعهم من العصيان والتحرر والاستقلال
المطلق وكفهم عن الشرك (يعنى أن يشركوا آخرين مع مالك الملك في السلطة
العليا بأى شكل من الأشكال) ودعوتهم الى الاذعان التام والعبودية الخالصة
والطاعة والعبادة للمالك الأصلي .

ومن أسف أن الاناجيل الموجودة لم توضح دعوة المسيح بالدرجة
التي نجدها في القرآن ومع هذا نستطيع أن نضع أيدينا على هاتيك الأصول
الثلاثة في شكل اشارات متناثرات على صحائفها .

فدعوة المسيح الى العبودية لله وحده دون سواه مثلا نجدها في قوله
عليه السلام :

« للرب الهك تسجد واياه وحده تعبد » .
(متى ٤ : ١٠)

ولم يكن المسيح يقول هذا فحسب بل ان كافة جهوده كان الغرض
منها أن يطاع امر الله في الأرض كما هو مطاع في السماء :

« ليأت ملكوتك لتكون مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض » .
(متى ٦ : ١٠)

أما أن المسيح عليه السلام قدم للناس نفسه على أنه نبي ونائب عن ملكوت السماء . وأنه كان يدعو الناس ليطيعوه بوصفه هكذا فإن ذلك يظهر من أقواله العديدة .

فحين بدأ دعوته في مدينة الناصرة موطنه . اجتمع أهل بلده وإخوانه على مخالفته وفي هذا تتفق روايات متى ومرقس ولوقا على أنه قال :
« لأكرامة لنبي في وطنه »

وحين راحوا يدبرون قتله في أورشليم وأشار الناس عليه بالرحيل إلى مكان آخر أجابهم :

« لا يمكن أن يهلك نبي خارجا عن أورشليم »
(لوقا ١٣ : ٢٣)

وحين كان يدخل أورشليم للمرة الأخيرة صاح تلاميذه « مبارك الملك الآتي باسم الرب » فغضب الفريسيون من هذا وطلبوا إليه أن يسكتهم فقال لهم .

« ان سكت هؤلاء فالحجارة تصرخ » .
(لوقا ١٩ : ٣٨ — ٤٠)

وقال في موضوع آخر :

« تعالوا إلى يا جميع المتعبين والثقلى الأحمال وأنا أريحكم احملا نيرى على وتعلموا منى لأنى وديع ومتواضع القلب فتجدوا راحة لنفوسكم لأن نيرى هين وحملى خفيف » .
(متى ١١ : ٢٨ — ٣٠)

أما أن المسيح عليه السلام كان ينبغي أن يطيع الناس قانون الله بدلا من القوانين الوضعية فإن ذلك يتجلى في رواية متى ومرقس التى خلاصتها أن الفريسيين اعترضوا على المسيح وقالوا :

« لماذا يتعدى تلاميذك تقليد الشيوخ فانهم لا يغسلون أيديهم حينما يأكلون خبزا فأجاب وقال لهم وأنتم أيضا لماذا تتعدون وصية الله بسبب تقليدكم فان الله أوصى قائلا أكرم أباك وأمك ومن يشتم أبا أو أما فليمت موتا وأما أنتم فتقولون من قال لأبيه وأمه قريبان هو الذى تنتفع به فلا يكرم أباه وأمه فقد أبطلتم وصية الله بسبب تقليدكم يامراؤون حسنا تنبأ عنكم أشعياء قائلا يقترب إلى هذا الشعب بفمه ويكرمنى بشفتيه وأما قلبه فمبتعد عني بعيدا وباطلا يعبدوننى وهم يعلمون تعاليم هى وصايا الناس » .

(متى ١٥ : ٣ — ٩ مرقس ٧ : ٥ — ١٣)

فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ

الحواريون تعطى أقرب المعانى لما يعطيه لفظ « الأنصار » عندنا والانجيل يستخدم لفظ التلاميذ بدلا من الحواريين على وجه العموم ويدعوهم في بعض المواضع «رسلا» بمعنى ان المسيح عليه السلام كان يرسلهم للدعوة وليس معناه أنهم كانوا رسلا من عند الله

نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ

عبر القرآن الكريم في أكثر مواضعه عن الأخذ بنصيب في إقامة الاسلام (بنصر الله)

وهذا معنى يتطلب الشرح :

ان قطاع الحياة الذى منح الله الانسان فيه حرية الارادة لم يجبر الانسان فيه بقوته الالهية على الاختيار بين الكفر والايمان أو الطاعة والعصيان ولكنه سبحانه وتعالى يريد الانسان — بالدليل والحجة والنصيحة — أن يقول ان الحق بالنسبة له وان الطريق الوحيد لفلاحه ونجاته هو اختيار العبودية والطاعة لخالقه رغم توفر الحرية له في أن ينكره ويعصيه ويتمرد عليه . وبذا فتدبير جذب العباد بالتفهيم والنصيحة الى الصراط المستقيم انما هو في الأصل من عمل الله والذين يوافقون الله في هذا العمل ويرافقونه ويناصرونه يسميهم الله أنصاره ورفاقه ولعمري ان هذا لمقام سام يصل اليه العبد فان كان الانسان في الصلاة والصيام وسائر العبادات مجرد عبد غائه في مقام الجهاد في الدعوة لدين الله واقامته ينال شرف رفقة الله ونصره وهو أسمى مراتب الرقى الروحي في هذه الدنيا .

ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ
فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكْرُؤًا مِمَّا كَرِهَتْ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِيْنَ ﴿٥٤﴾
إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ

هنا استخدم لفظ متوفيك ومعنى توفي اصلا اخذ واستوفي وقبض الروح هو المعنى المجازى لا اللغوى لهذا اللفظ . وهذه الكلمة هنا مستخدمة في

نفس معنى الكلمة الانجليزية TO RECALL أى سحب احد المسؤولين من منصبه أو اقالته بلفظ آخر . ولما كان بنو اسرائيل يصرون على ارتكاب المعاصي منذ قرون ويمضى سلوكهم القومى الى وجهة منحرفة رغم تنبيههم وتحذيرهم وتفهمهم مرات ومرات ولما كانوا يقتلون الانبياء ويتعطشون لاهراق دم كل عبد صالح يقوم لدعوتهم الى الطريق القويم ، ارسل الله اليهم — كآخر فرصة — رسولين جليلين فى آن واحد هما سيدنا عيسى وسيدنا يحيى عليهما السلام وايدهما بآيات وعلامات صريحة تقطع بكونهما نبيين من لدن رب العالمين لا يستطيع انكارها أو التعامى عنها الا من وصل عناده للحق والصدق الى درجة عليا وفاق صلفه وعجرفته وجراته على الحق حدا بعيدا غير أن بنى اسرائيل فوتوا على أنفسهم هذه الفرصة الأخيرة ولم يكتفوا برد دعوة هذين الرسولين العظيمين بل أمر أحد سراتهم على الملا بقطع رأس سيدنا يحيى ذلك النبى الجليل نزولا على امر راقصة غانية وتآمر علماءهم وفقهاؤهم وسعوا فى استصدار الامر من الحاكم الرومانى باعدام سيدنا عيسى عليه السلام فأصبح من العبث اضاءة الجهد والوقت فى بذل مزيد من النصح والتفهم لبنى اسرائيل بعد ذلك ولذا استدعى الله رسوله (أى توفاه) وضرب على بنى اسرائيل الذلة الى يوم القيامة .

وهنا ينبغى ان نفهم امرا آخر وهو ان الغرض من هذا الخطاب القرآنى كله تنفيذ عقيدة الوهية المسيح التى اعتنقها المسيحيون وآمنوا بها ولقد كان لظهور هذه العقيدة بينهم اسباب ثلاثة :

- ١ — ولادة المسيح الاعجازية .
- ٢ — معجزاته الصريحة الملموسة .
- ٣ — رفعه الى السماء الذى نجد ذكره واضحا جليا فى كتبهم .

والقرآن يؤيد الامر الاول ويصدقته ويقول ان ولادة المسيح من غير أب هى معجزة من الله القادر قدرة مطلقة ، فالله يخلق ما يشاء وليست هذه الولادة غير الطبيعية دليلا على أن المسيح اله أو له نصيب من الألوهية .

كذلك صدق القرآن الامر الثانى بل سرد معجزات المسيح واحدة بواحدة لكنه قال انه فعل ذلك كله باذن الله ولم يفعل أيا منها برغبته وقدرته واختياره ، وعلى هذا فليس من بين ذلك ما يحق لكم أن تستنتجوا منه أن المسيح كان له حظ من الألوهية .

أما فيما يتعلق بالامر الثالث فاذا لم تكن رواية المسيحيين غلطا من أساسها لكان ضروريا لتنفيذ عقيدتهم فى الوهية المسيح ان يقال لهم فى صراحة ووضوح ان من جعلتموه الها وابنا لله قد وجد ميتا ومدفونا فى التراب وان كنتم تريدون مزيدا من الاطمئنان فاذهبوا الى المكان الغلانى وشاهدوا قبره ولكن القرآن بدلا من هذا كله لم يكتف بعدم التصريح بموته وباستخدام الألفاظ التى يفهم منها أنه رفع حيا الى السماء . وانما قال — عكس ما زعم

المسيحيون — أن المسيح لم يصلب أصلا يعنى أن من قال في آخر لحظة « ايلى ايلى لم شبيقتى » ومن كنتم تطوفون به معلقا على صليبه ليس هو المسيح ، انما المسيح قد رفعه الله اليه قبل هذا .

لعمري ان من يحاولون — بعد هذا — ان يستخرجوا من آيات القرآن معنى وفاة المسيح انما في الحقيقة يثبتون ان الله — جل شأنه — ليست لديه السليقة التى يستطيع بها ان يعبر عن مراده في عبارات والفاظ واضحة لا لبس فيها . نعوذ بالله من ذلك .

وَرَأْفِعُكَ إِلَىٰ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ
الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ

المراد بالذين كفروا اليهود الذين دعاهم المسيح عليه السلام الى الايمان فرفضوه وكفروا به أما الذين اتبعوه فهم على عكس ذلك واذا كان المراد بالذين اتبعوك من اتبعوه حقا فمعناها يقتصر على المسلمين فحسب، وان كان المقصود منها من قبلوه جملة فان المعنى ينسحب على المسيحيين والمسلمين معا .

ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ
كَفَرُوا فَأَعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴿٥٦﴾
وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ
الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَلِكَ نَسُؤُهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ
مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾

يعنى ان كانت الولادة الاعجازية دليلا يكفى لجعل أحد الها أو ابنا لله فأحرى بكم أن تعتقدوا هذا عن آدم فاذا كان المسيح قد ولد دون أب فان آدم قد جاء الى الدنيا بغير أب وأم .

الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنَ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾

النكات الرئيسية التي قدمت للمسيحيين في الجزء الانف من الخطاب
تتلخص فيما يلي : —

الامر الاول الذى اراد الله ان يقره في اذهانهم هو ان الاسباب التى
نشأ منها اعتقادكم في ألوهية المسيح ليس من بينها سبب يحملكم على هذا
الاعتقاد . فلقد كان المسيح بشرا ، ورأى سبحانه وتعالى — وفق حكمته —
أن يخلقه على نحو اعجازى غريب ، وأن يؤيده بالمعجزات التى تؤكد نبوته
تأكيدا صريحا ، ولم يدع منكراى الحق يصلبونه بل رفعه اليه . اذ السيد
المالك له الحرية فى أن يستخدم عبده كيف يشاء ، فكيف يصح أن نستنتج
من مجرد معاملة غير عادية ان هذا العبد كان هو السيد المالك ، أو أنه كان
ابن المالك أو شريكه فى الملكية ؟.

والامر المهم الثانى ان ما جاء المسيح ليدعو اليه هو نفس ما جاء محمد
عليه الصلاة والسلام ليدعو الناس اليه ، وليس من اختلاف بين دعوتيهما
ولو قدر ذرة .

وثالث الامور فى هذا الخطاب أن دين الحواريين بعد المسيح كان هو
الاسلام الذى يقدمه القرآن ، أما المسيحية التى قامت بعد ذلك فلم
تتخذ التعاليم التى كان المسيح يقول بها أساسا لها وعمادا ، ولم تتبع
ذلك المذهب الذى اتبعه الحواريون اصحاب المسيح عليه السلام .

فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا
وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ
لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾

المقصود من عرض تسوية النزاع على هذه الصورة ان وفد نجران
كان لا يزال مصرا على تمرده وعناده . ولم يكن عندهم جواب اى من الامور
التى ذكرت آنفا بل حتى كتبهم المقدسة نفسها ليس فيها سند يدعون على
اساسه — ادعاء ملؤه اليقين — ان عقائدهم هذه او احداها تطابق الواقع
تماما ولا تتعارض مع الحقيقة أبدا .

ولما نظر الوفد الى سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام ، ونبصروا
تعاليمه ومعجزاته ملا صدور أكثرهم صدق نبوته أو على الأقل ضعف
انكارهم له ، ولهذا حين قيل لهم ان كنتم على يقين تام من صدق
عقيدتكم فتعالوا ندعو الله ان ينزل لعنته على الكاذبين ما برز واحد منهم
لهذه المواجهة ، فانجلى امام العرب جميعا ان زعماء مسيحية نجران الذين

طالما حاطت بهم هالات القدسية يتبعون — أصلا — عقائد لا يثقون في صدقها ثقة تامة .

إِنَّ هَذَا هُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ
يَ أَهْلَ الْكِتَابِ

من هنا يبدأ خطاب ثالث اذا ما دققنا البصيرة والعقل في مضمونه استطعنا الحدس بأنه نزل في الزمن بين حرب بدر وحرب احد . غير ان هذه الخطابات الثلاثة تتصل معانيها ببعضها اتصالا ظاهرا حتى ان انسياب الكلام وارتباطه عبر آياتها من أول السورة والى هنا لا يبدو عليه الانقطاع او يظهر فيه التفكك . ولهذا السبب التبس الامر على بعض المفسرين فظنوا ان الآيات التالية (التي اولها قل يا اهل الكتاب تعالوا . .) ايضا من آيات الخطاب الخاص بوفد نجران الا ان الخطاب الذي يبدأ بهذه الآية يوضح اسلوبه ان المخاطب فيه هم اليهود لا النصارى .

تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ

يعنى اتفقوا معنا على هذه العقيدة التي تؤمن بها نحن ايضا ولا تستطيعون انكار صحتها ، وهي العقيدة المنقولة عن انبيائكم وتوجد تعاليمها في متون كتبكم المقدسة .

أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا
بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا
مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَ أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَحْجُجُونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا
أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾

يعنى أن يهوديتكم ونصرانيتكم هذه ظهرت بعد نزول التوراة والإنجيل
وان ابراهيم عليه السلام مات قبل نزول هذين الكتابين بأمد بعيد فمن به مسكة
من عقل اذن ، يدرك بسهولة ان ابراهيم عليه السلام كان على دين غير
اليهودية أو المسيحية . فإذا كان سيدنا ابراهيم على الطريقة المثلى والصراف
القويم فلا محيص من التسليم بأن نجاة الانسان واتباعه للطريق القويم
ليس مقصورا على الايمان باليهودية والنصرانية والسير على سبيلها .
(انظر تفسير الآية ١٣٥ والآية ١٤٠ من سورة البقرة) .

هَآأَنُتُمْ هَآؤُلَآءِ حَآجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ
فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ؕ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾
مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا
مُسْلِمًا

والمراد بلفظ حنيف المستخدم هنا الشخص الذى يحول وجهه عن كل
سمت وطرف ثم يمضى فى طريق خاص .

وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ
وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِىُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّتْ طَآئِفَةٌ مِّنْ
أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾
يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾

يجوز أن نفهم ((وأنتم تشهدون)) بمعنى المشاهدة أو بمعنى الشهادة
وكلا الفهمين لا يخل بالمعنى المقصود قط . والحق ان حياة النبى صلى الله
عليه وسلم الطاهرة العفينة واثر تربيته المحيرة فى حيوات الصحابة الكرام
وسيرهم وكذا معانى القرآن الراقية السامية . كل هذه الامور كانت
آيات مضيئة من الله بحيث اذا ما شاهدها اى انسان له علم بأحوال الانبياء
والكتب السماوية استحال عليه الشك فى نبوة الرسول عليه الصلاة
والسلام . والواقع أن كثيرا من اهل الكتاب (خصوصا اهل العلم منهم)

كانوا يعرفون ان محمداً عليه الصلاة والسلام هو نفس النبي الذي بشر به
الأنبياء السابقون ، حتى انهم كانوا يضطرون في بعض الاحايين — من شدة
نور الحق وقوته — الى الاعتراف بأفواهم بصدقه وحقية تعاليمه وما جاء
به . من اجل هذا كثيراً ما يتهمهم القرآن بتكذيب آيات الله التي يشاهدونها
بأعينهم ويشهدون بحقيتها عن قصد واصرار بسبب شرور انفسهم وخبث
سرائرهم .

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾
وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهَ
النَّهَارَ وَاكْفُرُوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾

هذه حيلة من الحيل التي كان زعماء اليهود القاطنين في أطراف
المدينة يحيكونها لاضعاف الدعوة الاسلامية . فلكي ينفروا الناس من
المسلمين ويشككون عامتهم في النبي عليه الصلاة والسلام راحوا يتواطون
في السر مع بعض الناس ليقبلوا الاسلام علنا أول الأمر ثم يرتدوا ويذيعوا
بين الناس اينما حلوا أننا وجدنا كيت وكيت من العيوب والمفاسد في الاسلام
والمسلمين ورسولهم ولهذا انفصلنا عنهم .

وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ
أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنِّ الْفَضْلَ بِيَدِ
اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾

لفظ « واسع » المستخدم هنا يردده القرآن في ثلاثة احوال : حين
يأتى الحديث عن ضيق تفكير وبصيرة فريق من الناس فيلزم ذكره ليسببهم
الى حقيقة ان الله ليس مثلكم ضيق النظر ، وحين يذم القرآن البخل والبخلاء
فيورده ليقول لهم ان الله كريم جواد مبسوط اليد ينفق كيف يشاء وليس
بخيلاً — معاذ الله — مثلكم ، وحين ينسب الناس الى الله اى نوع من
التقييد والحصر والتحديد بسبب غباء عقولهم وظلمة تفكيرهم . فيقول لهم
القرآن ان الله واسع لا يحده حد .

(انظر تفسير الآية ١١٥ من سورة البقرة)

أما «. عليهم » في هذه الآية فتعني ان الله يعلم من يستحق الفضل والشرف .

يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾
* وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَّهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ
وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَّهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ
عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ

سَبِيلُ

يعنى ان تراعى الامانة والتقوى في تعاملهم من اخوانهم اليهود فحسب اما غير اليهود فلا جناح عليهم في اغتصاب اموالهم واكلها . ولم يكن هذا الفكر الجاهلى يصدر عن عامة اليهود وحدهم . فالحق ان النظم الدينى فى اليهودية بأكمله بنى على أساس التفريق بين اليهود وغيرهم فى الأحكام الاخلاقية . فحرام على الاسرائيلى أن يقترب شيئا مع أحد أبناء دينه وحلال له ان يرتكب نفس الشيء مع غيرهم . والشيء الواحد حق للاسرائيلى وليس حقا لغيره . فالتوراة مثلا تلزم اليهودى ان يبرىء كل صاحب دين يده مما اقترض صاحبه كل سبع سنوات فتقول « الاجنبى تطالب واما ما كان لك عند اخيك فتبرئه يدك منه » (التثنية ١٥ : ٣) . وتقول فى موضع آخر « للاجنبى تقرض برىا ولكن لاخيك لا تقرض برىا » (التثنية ٢٣ - ٢٠) وتقول « اذا وجد رجل قد سرق نفسا من اخوته بنى اسرائيل واسترقه وباعه يموت ذلك السارق » (التثنية ٢٤ : ٧) .

وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾

بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾
إِنَّ الَّذِينَ يَسْتُرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ
لَا خَلَقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ
إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يَزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾

السبب أن هؤلاء الناس يرتكبون كل هذه الجرائم الاخلاقية ثم يرون انهم يوم القيامة سيكونون وحدهم عباد الله المقربين ، وان ما علق بهم من ميل الى الذنوب سيسقط عنهم بتقديمهم القرايين لشييوخهم . في حين ان الامر سيكون لهم عكس ذلك يوم القيامة .

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُنَ السِّتْرَ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ
وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ

رغم انه من الممكن ان يكون معنى هذا انهم يحرفون معانى كتاب الله أو يقلبون ألفاظه ليستخرجوا منها معنى أخرى الا أن معنى هذه الآية الأصلية انهم حين يتلون الكتاب يأتون على لفظ أو فقرة مما يخالف مصلحتهم وعقائدهم ونظرياتهم التي وضعوها بأنفسهم فيلَوْن السِّتْرَ فيتغير معناها ولا نعدم أمثلة لذلك بين أهل الكتاب الذين قبلوا القرآن . فبعض الذين ينكرون بشرية النبي يقرأون الآية « إنما أنا بشر مثلكم » « ان ما أنا بشر مثلكم » (١)

وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ
وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ
لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ

كان علماء الدين عند اليهود أصحاب مناصب أو قل موظفين وكان عملهم ارشاد الناس في الأمور الدينية وتنفيذ أحكام الدين وإقامة العبادات وكانوا يسمون ربانيين مثلما قال عنهم القرآن نفسه في موضوع آخر « لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الاثم وأكلهم السحت » . كذلك يؤدي لفظ ربانى نفس المعنى عند المسيحيين .

بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ
تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ
مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾

(١) بهذه القراءة تصبح ان حرف توكيد ونصب وما نافية وبذا يكون المعنى « اننى لست

بشرا مثلكم » - المترجم

هذا نفى جامع لكل الأقوال الباطلة التي نسبتها مختلف أمم الدنيا الى المرسلين وأضافوها الى كتبهم والتي تتخذ رسولا من الرسل أو ملكا من الملائكة الها ومعبودا بأى طريقة وعلى أى نحو ولقد ذكرت فى هذه الآيات قاعدة كلية نقول ان أى تعاليم تنادى بالعبدية والعبادة لاحد غير الله وترفع عبدا من عباد الله من مقام العبدية الى مقام الألوهية لا يمكن ان تكون تعاليم معطاة من رسول قط وحين ترون هذا فى كتاب من كتب الايمان فاعلموا انه نتيجة لتحريفات الزمرة الضالة المضلة من المنتسبين اليه .

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَآءَآتِكُمْ مِنْ كِتَابٍ
وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ
وَلَتَنْصُرُنَّهُ

يعنى اننا قد اخذنا ميثاقا من كل رسول — وكل ميثاق يؤخذ من نبي فهو ملزم لاتباعه ايضا — ان تنصر كل نبي يرسل من عندنا لاقامة الدين الذى امرناك باقامته والدعوة اليه ، فلا تعصب ولا كبرياء ولا مخالفة للحق بل الانضمام تحت راية كل من قام من البشر ليرفع راية الحق بأمرنا .

وعلينا ان نفهم هنا ان كل نبي قبل سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام قد اخذ عليه هذا العهد ، وعلى هذا اخبر كل نبي قومه بمن سيأتى بعده ، وأمرهم بمعاضدته وشد ازره ، ولكن لم يرد فى القرآن ولا فى الحديث قط ان محمدا عليه الصلاة والسلام قد اخذ منه هذا الميثاق او انه اخبر قومه بنبي يأتى من بعده ، وأمرهم بالايمان به .

قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا
وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ
الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾

المقصود بهذا تنبيه اهل الكتاب الى انهم بانكارهم لمحمد صلى الله عليه وسلم ومعارضتهم له ينقضون عهد الله وميثاقه الذى اخذه من انبيائهم ومن ثم فهم « فاسقون » أى خارجون على طاعة الله .

أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

يعنى ان دين الكون ومن فيه وما فيه هو الاسلام بمعنى طاعة الله والخضوع له والتسليم وها انتم تعيشون في هذا الكون ومن بين مخلوقات الله فيه فأى نظام للحياة تبحثون عنه بعد ترككم الاسلام واعراضكم عنه .

قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾

يعنى ليس سبيلنا أن نؤمن بنبي ونكفر بآخر ، ونصدق أحدهم ونكذب الآخر ، وانما نحن أطهار من التعصب برءاء من حمية الجاهلية ، وكل عبد من عباد الله يأتى من لدنه بالحق نشهد بصدقه ونصدق دعوته ،

وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ
مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا
بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ

اعيد هنا نفس الامر الذى ذكر من قبل مرارا عديدة وهو ان يهود العرب في عهد النبي صلوات الله وسلامه عليه كانوا يعرفون انه على حق وأن ما جاء به هو نفس ما جاءت به الانبياء من قبل بل ويشهدون على ذلك بالسنتهم ثم ما كان منهم الا أن عادوا الى دينهم القديم في التعصب والمخالفة ومعاداة الحق وهو الجرم الذى كانوا يقرغونه منذ قرون وقرون

وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُولَئِكَ جزاءُهم
 أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾
 خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾
 إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
 رَحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا

كُفْرًا

يعنى لم يقف الامر بهم عند حد الرفض والانكار بل جنحوا الى سبيل
 المخالفة والمعارضة العملية أيضا ، وبذلوا ما في وسعهم لصد الناس عن
 سبيل الله ، واختلقوا الشبهات ونشروا الظنون والأكاذيب ، وبثوا
 الوسائس في القلوب والافئدة ، ونسجوا المؤامرات والدسائس كي لا تفاج
 دعوة النبي بأى حال من الاحول .

لَن تَقْبَلَ تَوْبَتَهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا
 وَهُمْ كُفَرَاءُ فَلَن يَقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلَّةٌ مِنَ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ أَفْتَدَى بِهِ
 أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٩١﴾ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى
 تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ

الغرض من هذا محو فكرتهم الخاطئة عن « الخير » أو « البر » ،
 فلقد كانت اسمى افكار الخير وارقى تصوراته عندهم ان يلتزم المرء في حياته
 بالتشريع المتوارث منذ قرون خلت والذي اتخذ عندهم شكلا صوريا ظاهريا
 وأن يزن كافة أمور الحياة الدقيقة الصغيرة وفرعياتها وضمانياتها بميزان
 مجادلات علمائهم الفقهية التى صارت لديهم نظاما قانونيا عريضا . كان
 اتباع الشرع هذا فى الظاهر فقط ، اما تحت هذا الغطاء الظاهري

فكانت تختفى بين اكابر متدينى اليهود عامة عيوب الحرص والبخل وكنتم الحق وبيعه وكان الراى العام يعد ذلك خيرا وبراً .

وللاطاحة بهذا الفهم الخاطىء يخبرهم الله فى هذه الآيه أن مقام بر الانسان وصلاحه اسمى من تلك الأشياء التى اعتبرتموها أساس الخير والصلاح . فروح الخير والبر الحقيقية هى حب الله حبا لا يرى فى الدنيا شيئا اعز من رضا الله ، وما الشيء الذى تسئولى محبته على قلب الانسان فلا يضحى به فى سبيل حب الله الا صنم لن تفتح ابواب الخير امام المرء مالم يحطمه تحطيمها . ولعمري ان تباع الشرع فى الظاهر مع انعدام هذه الروح ليس الا كظلاء براق دهنت به قطعة خشب انيقة المظهر نحرها السوس وافسد داخلها واذا انخدع بها الانسان فلن ينخدع بها رب العالمين

وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ * كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ

حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ

لما فشل علماء اليهود فى اثاره اعتراض له اساس من الوجاهة على ما جاء به القرآن أو تعاليم محمد عليه الصلاة والسلام (اذ لا فرق فى اساسيات الدين بين ما جاء به الانبياء السابقون وبين ما جاء به النبى العربى على الاطلاق) بدأوا ينبشون على اعتراضات فقهية ، فكان اول ما قالوه للنبى عليه الصلاة والسلام فى هذا انك قد احللت بعض الاطعمة والاشربة مما كان حراما فى عصور الانبياء الاولين . فرد الله على اعتراضهم هذا فى هذه الآيه .

إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ
التَّوْرَةُ

اذا اعتبرنا المقصود باسرائيل هنا بنى اسرائيل كان معنى ذلك ان بنى اسرائيل قد تعارفوا — مجرد عرف — على تحريم بعض الأشياء قبل نزول التوراة ، واذا اعتبرنا المراد باسرائيل سيدنا يعقوب كان معنى ذلك انه عليه السلام امتنع عن أكل بعض الأشياء اما بسبب كراهيته لها كراهية طبيعية ، واما بسبب مرض ألم به فاعتبرها أولاده من بعده حراما عليهم . وهذه الرواية الأخيرة أكثر شيوعا وانتشارا ويتضح من آية أخرى فى القرآن أن حكم التوراة بتحريم لحم الجمال وغيرها ليس حكم التوراة الاصلية وانما حشره علماء اليهود حشرا فى كتابهم .

قُلْ فَاتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنْ أَفْتَرَى
 عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٤﴾
 قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنْ
 الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾

المعنى الى أى مدى يستذهبون فى تقصى هذه الجزئيات الفقهية ؟
 لقد تركتم اساس الدين وهو عبادة الاله الواحد ووقعتم فى قذارات
 الشرك ، وها أنتم تفتشون وتبحثون فى المسائل الفقهية فى حين أن هذه
 المسائل ظهرت من مجادلات وفذلكات علمائكم خلال قرون الانحطاط الطويلة
 بعد الانحراف .

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى
 لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾

كان اعتراض اليهود الثانى انكم قد حولتم وجوهكم عن بيت المقدس
 وهو قبلة الأنبياء الاولين وجعلتم الكعبة قبلتكم ولقد رد الله على هذا الاعتراض
 فى سورة البقرة ، الا أن اليهود أصروا من بعد ذلك على اثارته مرة أخرى
 لذا رد الله عليه هنا ايضا ، والتوراة نفسها تشهد بان بيت المقدس قد بناه
 سيدنا سليمان بعدمضى اكثر من اربعمائة وخمسين سنة بعد موسى عليه
 السلام . (١) وانه جعل قبلة اهل التوحيد فى عهد سليمان عليه السلام
 (٢) وعلى عكس ذلك تقطع روايات كل العرب المتواترة والمتفق عليها ان
 ابراهيم عليه السلام قد بنى الكعبة ، وانه مات قبل سيدنا موسى بثمانمائة
 أو تسعمائة سنة . لهذا فأسبقية الكعبة وأولويتها على بيت المقدس حقيقة
 قاطعة ليس فيها اى مجال للاخذ والرد .

فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ

(١) تقول التوراة « وكان فى سنة الأربع مئة والثمانين لخروج بنى اسرائيل من أرض مصر
 فى السنة الرابعة لملك سليمان على اسرائيل فى شهر زيو وهو الشهر الثانى أنه بنى البيت
 للرب » (الملوك الأول ٦ : ١) - المترجم .

(٢) تقول التوراة « لتكون عيناه على هذا البيت ليلا ونهارا على الموضع الذى قلت
 أن اسمى يكون فيه لتسمع الصلاة التى يصليها عبدك فى هذا الموضع أسمع تضرع عبدك
 وشعبك اسرائيل الذين يصلون فى هذا الموضع » (الملوك الأول ٨ : ٢٩ - ٣٠) - المترجم .

يعنى في هذا البيت آيات صريحة وعلامات بيّنة على أنه مقبول عند الله وإن الله يحب أن يكون هذا البيت بيته . فلقد بنى في صحراء جرداء ثم هيا الله لجأوريه أفضل رزق وأحسنه ، وعاشت كل الجزيرة في حالة من الفزع وانعدام الأمن لا مثيل لها بسبب ما كانوا عليه من جاهلية ولكن مع كل ذلك الفساد الذى كان يملأ الأرض بأسرها بقيت منطقة الكعبة وأطرافها آمنة مستقرة بل أن من بركات الكعبة أن كان الأمن يعم سائر البلاد بسببها أربعة أشهر كل عام (١) . ثم رأى الجميع ما حدث لأبرهة حين هاجم الكعبة وسعى لتخريبها وتدميرها ، وكيف انهزمت جيوشه بطريقة الهية مضرة ولقد كان كل طفل في بلاد العرب آنذاك يعرف هذه الواقعة وكان من شاهدها عيانا لا يزالون على قيد الحياة وقت نزول هذه الآيات .

مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا

كان لهذا البيت احترامه واجلاله حتى في عصور الجاهلية المظلمة لدرجة أن الخصوم من أولئك العرب السفاحين آنذاك كان يرى بعضهم بعضا عنده دون أن يتجاسر أى منهم على مهاجمة الآخر .

وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبَغَّوْنَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ ۚ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۚ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ۖ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾

يعنى اطيعوا الله واخلصوا له ، وكونوا له اوفياء الى آخر نفس بين
ضلوكم .

وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا

المراد بحبل الله دينه . ولقد عبر عن بالحبل لانه الرابطة التى تربط
المؤمنين بالله من ناحية وتربطهم ببعضهم وتخلق منهم جماعة واحدة من
ناحية أخرى ومعنى « الاعتصام » بهذا الحبل أن تكون الأهمية الاولى فى
عين المسلمين للدين ، وان يكون حبهم وشغفهم به وحده ، وان يجاهدوا
ويجدوا فى اقامته ويتعاونوا فيما بينهم على خدمته ، أما اذا غابت تعاليم
الدين الاساسية عن اعينهم وتخلوا عن اقامة الدين كهدف اساسى وحيث
واتجهت اهتماماتهم وشغفهم وولوعهم الى الجزئيات والفروع فلا محالة من
ظهور الفرقة بينهم ونشوب الاختلاف بين صفوفهم وهو ما جرف امم الانبياء
الاولين عن هدفهم الاصلى فى الحياة واصابهم بالخزى فى الدنيا والآخرة .

وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ
قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ
مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا

هذه اشارة الى الحالة التى كان عليها العرب قبل الاسلام اذ العداوة
ناشبة بين قبائلهم ، والقتال بينهم على كل شىء واى شىء ، والدماء مراكمة
ليل نهار حتى أوشكوا أن يفنوا عن آخرهم وينقطع دابرهم فما كان لهم
من واق يقيهم الاحتراق والفناء فى هذه النيران العظيمة سوى نعمة الاسلام

هذه الايات نزلت وكان اهل المدينة قد اسلموا قبل نزولها بثلاثة او
اربعة اعوام وكانت نعمة الاسلام الحية عليهم لاتزال بارزة شاخصة
امام عيونهم وقد تصالحت الاوس والخزرج اللتان عاشتا سنين طويلة فى
قتل وسفك فيما بينهما وصارتا سمنا على عسل — كما يقول المثل — وعامل
اهل هاتين القبيلتين مها جرى مكة معاملة لانظير لها فى الحب والايثار
والتضحية قلما تجدها بين افراد اسرة واحدة .

كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ

يعنى اذا تبصرتم هذه الآيات استطعتم أن تدركوا أين يكمن فلاحكم في التمسك بهذا الدين أم في تركه والعودة الى ما كنتم عليه من قبل ؟ وای الفريقين يريد لكم الخير الله ورسوله أم اليهود والمنافقون الذين يجدون ويجتهدون في ارجاعكم الى ما كنتم عليه في الجاهلية ؟

وَلَتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾

هذه اشارة الى الامم التي تلقت عن انبياء الله تعالى دين الحق الصافية النقية ثم تركت اساس الدين بعد تصرف زمن قليل وتفرقوا فيما بينهم على اساس المسائل الفرعية والامور الضمنية ، ثم شغلوا بالاعتتال على أمور تافهة حتى انهم لم يعوا المهمة التي أسندها الله اليهم ، بل ولم تشغف قلوبهم اصول العقيدة ومبادئ الاخلاق الاساسية التي يركز عليها عماد فلاح الانسان وسعادته .

يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ ففِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾

يعنى لان الله لا يريد ان يظلم الناس فتد اراهم الطريق القويم وحذرهم مسبقا بما سيحاسبهم عليه فمن اختاروا سبيل الضلال ولم يرجعوا عن صنيعهم فسيظلمون انفسهم .

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ
الْأُمُورُ ﴿١٤٢﴾ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ
بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ

هذا هو نفس المعنى الذى سبق ذكره فى سورة البقرة (١) فالحمد
سبحانه وتعالى يقول لأتباع النبى عليه الصلاة والسلام ان منصب امامة
الدنيا وزعامة العالم الذى اقصى عنه بنو اسرائيل لعدم كفاعتهم قد امرتهم
بمباشرة مهامه ومسئوليته لأنكم أصبحتم أفضل أمم العالم خلقا وعملا ،
وتربت فيكم الصفات اللازمة للامامة العادلة وهى الامر بالمعروف والنهي
عن المنكر عاطفة وعملا ، والايمان بالله وحده لا شريك له عقيدة ومسلكا .
ومن ثم يلزم عليكم أن تنهضوا بمسئوليات هذا المنصب ولا تقترفوا الأخطاء
التي اقترفها أسلافكم .

وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلَ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ

المراد باهل الكتاب هنا بنو اسرائيل .

مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ أَكْثَرُهُمُ الْفٰسِقُونَ ﴿١٤٣﴾ لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ
يُقْتُلُوكُمْ يُولُوكُمْ أَدْبَارًا ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٤٤﴾ ضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الدَّلِيلُ أَنْ
مَا تُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ

يعنى اذا أصابوا خطا من الامن والاستقرار فى الدنيا الى حين
تمرجعه لالقوتهم بل لحماية الآخرين لهم . سواء اعطتهم الامان حكومة مسلمة
أم حمتهم حكومة غير مسلمة فكتيرا ما يجدون فرصة للقوة والتمكن غير أنها
فرصة لم ينالوها بقوة سواعدهم بل بفضل الآخرين ومساندتهم .

(١) انظر الآية ١٤٢ ، ١٤٣ من سورة البقرة .

وَبَاءَهُ وَيَغْضِبُ مِنْ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكِ بِأَنَّهُمْ

كَانُوا يَكْفُرُونَ بَيَّأَتْ اللَّهُ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ

ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ * لَيْسُوا سَوَاءً

مَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ

الَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ

فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا

مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ

كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ

شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ

مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ

أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ

المراد بالحرث في هذا المثل زرع الحياة الذي يجنى الإنسان ثمره ومحاميله في الآخرة . والرياح يقصد به عاطفة الخير الظاهرية التي ينفق الكفار على أساسها المال في سبيل الخيرات والنفع . والصر (١) في هذا المثل يقصد به فقدان الإيمان الصحيح وعدم اتباع قانون الله وشرعته وهو ما جعل حياتهم كلها تتجه وجهة خاطئة .

فإن الله سبحانه وتعالى يريد أن يقول بهذا المثل رغم أن البواء مفيد للزرع ، إلا أنه لو حمل معه صقيعا وبردا قارسا ماته يفسده بدلا من أن

(١) برد يصيب الحرث والنبات — المترجم .

يُقَيِّده وَيُهْمِيهِ وَكَذَلِكَ الْخَيْرَاتُ أَيْضًا فَمَعَ أَنَّهَا تَنْهَى . زُرْعَةَ الْإِنْسَانِ فِي آخِرَتِهِ
أَلَا أَنَّ هَذِهِ الْخَيْرَاتُ إِذَا صَادَفَتْ فِي دَاخِلِهِ سُمُومَ الْكُفْرِ صَارَتْ مَهْلَكَةً لَهُ لَا
مَنْعُشَةَ لَزُرْعَةٍ مَكْثَرَةٍ لِحَصَادِهِ .

وَطَبِيعِي أَنَّ اللَّهَ هُوَ مَالِكُ الْإِنْسَانِ ، وَمَالِكُ الْمَالِ الَّذِي يَتَصَرَّفُ فِيهِ
الْإِنْسَانُ ، وَهَذِهِ الْمَمْلَكَةُ الَّتِي يَعِيشُ فِيهَا الْإِنْسَانُ وَيَعْمَلُ هِيَ مَمْلَكَةُ اللَّهِ
وَدَوْلَتُهُ ، فَإِذَا لَمْ يُؤْمِنْ هَذَا الْعَبْدُ (الْإِنْسَانُ) بِسُلْطَةِ الْمَلِكِ الْعَلِيِّ أَوْ إِذَا أَقْرَ
لِمَالِكِهِ بِالْعِبُودِيَّةِ لَكِنَّهُ اشْتَرَكَ مَعَهُ فِيهَا شَرِيكَاً آخَرَ وَأَمَّ يَطْعَ قَانُونِ اللَّهِ وَشَرَعَهُ
فِي التَّصَرُّفِ فِي مَالِ اللَّهِ وَمَمْلَكَتِهِ ، فَإِنَّ كُلَّ تَصَرُّفَاتِهِ هَذِهِ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا
تَصْبِحُ جُرْماً كَبِيراً فَكَيْفَ يَنَالُ أَجْراً وَهُوَ الَّذِي سَتَقَامُ عَلَيْهِ قَضِيَّةُ جَنَائِيَّةٍ
تُظِيرُ مَا ارْتَكَبَهُ مِنْ تَصَرُّفَاتٍ وَأَعْمَالٍ ؟ وَمَا مِثْلُ خَيْرِهِ الْأَكْثَلُ عَبْدٌ فَتُفْتَحُ خَزَانَتُهُ
سَيِّدُهُ دُونَ أذنٍ مِنْهُ وَآخِذٌ يَنْفِقُ مِنْهَا فِيمَا يَرَاهُ مَنَاسِباً .

وَمَا ظَلَمَهُمْ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا

كَانَتْ تَتَوَشَّجُ الْيَهُودَ الَّذِينَ كَانُوا يَقِيمُونَ فِي أَطْرَافِ الْمَدِينَةِ وَاهِلِ الْأَوْسِ
وَالْخَزْرَجِ صِدَاقَةً وَوَدَّ مِنْذُ زَمَنٍ قَدِيمٍ . فَعَلَى الْمُسْتَوَى الْفَرْدِيِّ كَانَ أَفْرَادُ
هَاتَيْنِ الْقَبِيلَتَيْنِ يَصَادِقُونَ الْيَهُودَ ، وَعَلَى مَسْتَوَى الْقَبَائِلِ كَانَتْ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ
صَلَاتُ جَوَارٍ وَتَحَالُفٌ ، فَلَمَّا اسْلَمَتِ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ ظَلَمُوا بَعْدَ اسْلَامِهِمْ
حَافِظَيْنِ لِعِلَاقَاتِهِمُ الْقَدِيمَةَ بِالْيَهُودِ يَقَابِلُ أَفْرَادَهُمْ أَصْدِقَاءَهُمْ الْيَهُودَ بِالْوَدِّ
وَالْحُبِّ وَالْإِخْلَاصِ ، إِلَّا أَنَّ الْيَهُودَ بِسَبَبِ عِدَائِهِمُ لِلنَّبِيِّ الْعَرَبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ
وَالسَّلَامُ وَدَعْوَتُهُ ، صَارُوا كَارِهِينَ أَبْدَاءَ الْحُبِّ وَالْإِخْلَاصِ تَجَاهَ كُلِّ مَنْ انْضَمَّ
لِهَذِهِ الْحَرَكَةِ الْجَدِيدَةِ فَتَظَاهَرُوا بِالْحِفَافِ عَلَى مَا كَانَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْإِنصَارِ مِنْ
عِلَاقَاتٍ تَلِيدَةٍ ، وَبَطَنُوا لَهُمْ فِي قُلُوبِهِمْ أَشَدَّ الْعِدَاوَةِ وَابْغَضَاءِ وَاسْتَغْلَوْا
صِدَاقَتَهُمُ الظَّاهِرِيَّةَ لَهُمْ أَسْوَأَ اسْتَغْلَالٍ إِذَا رَاحُوا فِي كُلِّ حِينٍ يَثِيرُونَ الْفِتْنَ
وَالْفُسَادَ فِي دَاخِلِ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ مَا اسْتَطَاعُوا إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا ، فَكَانُوا إِذَا
مَا أُطْلِعَهُمُ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَسْرَارِ جَمَاعَتِهِمْ أَفْضَوْا بِهَا إِلَى أَعْدَائِهِمْ وَفِي هَذِهِ
الْآيَةِ يُطْلَبُ اللَّهُ إِلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَأْخُذُوا حَيْطَتَهُمْ مِنْ نِفَاقِ الْيَهُودِ وَمَسْلِكِهِمْ
فِي الْخَدِيعَةِ وَالْوَقِيعَةِ .

وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ
قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَآأَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا
يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ

يعنى انه لامر عجيب أنهم يشكون منكم بدلا من أن تشتكوا منهم ولا معنى أو سبب لشكواهم اذن وانتم تؤمنون بالتوراة الى جانب القرآن . ولو كان ثم مجال للشكوى لكان أخرى أن تصدر منكم لأنهم لا يؤمنون بالقرآن وهو كتابكم .

وَإِذَا الْقُوَّةُ قَالَُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُوا عَلَيْكُمْ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ
قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِنْ تَمَسَّكُمْ
حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا
لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ وَإِذْ
غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعَدَ الْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾

بالآية الأخيرة يبدأ الخطاب الرابع . وقد نزل بعد واقعة أحد وحوى تعليقا عليها .

ولقد انتهى الخطاب السابق بقوله تعالى « (وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ) » ولما كانت هزيمة المسلمين في أحد ترجع الى قلة صبر بدت منهم ، والى أخطاء تناقض تقوى الله صدرت عن بعض أفراد جماعتهم لهذا أدرجت هذه الخطبة التي أخبرهم الله فيها بعيوبهم ونقاط ضعفهم في ذيل الخطبة السابقة مباشرة .

وسياق هذا الخطاب الرابع واسلوبه درج على انتقاء أهم ما حريات وقعه احد واحدة بواحدة ، والتعليق على كل منها بآيات سديدات مناسبات تلقن المسلمين دروسا وعظات كبرى ولكي نفهم هذا الخطاب علينا أن نلقى نظرة على خلفية حوادثه ووقائعه التاريخية .

جمع كفار قريش في بداية شوال من العام الثالث للهجرة جيشا قوامه ثلاثة آلاف رجل وأغاروا على المدينة ، وكانوا في عدة وعتاد يفوق ما عند المسلمين بالإضافة الى كثرتهم العددية بالنسبة لجند المسلمين ، وجاءوا متحمسين مفعمين بروح الانتقام والثار لهزيمتهم في بدر ، وكان رأى النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته المجريين أن يتحصنوا بالمدينة ويدافعوا عنها إلا أن بعض الشباب ممن كانت نفوسهم تتوق لنيل الشهادة ولم يكن لهم حظ في الاشتراك في حرب بدر أصروا على الخروج للقتال حتى اضطر النبي آخر الأمر الى أن يصدر أمره بالخروج لقتال العدو فخرج في ألف من أتباعه ،

وما كادوا يصلون الى الميدان حتى انسلخ عبد الله بن أبي عن جيش المسلمين ومعه ثلاثمائة من رفاقه فوقع الاضطراب في صفوف المسلمين من جراء فعلتهم هذه حتى أن بنى سلمة وبنى حارثة قت في عضدهم وارادوا النكوص والرجوع فبذل اولو العزم من الصحابة ما رفع الاضطراب وقشع الوهن من بين صفوفهم فتقدمت المئات السبع الباقية مع الرسول واصطفوا عند جبل أحد (يبعد عن المدينة أربعة أميال تقريبا) فكان الجبل من ورائهم وجند قريش من امامهم والى جانبهم كان هناك مضيق صغير يخشى أن يشن منه العدو هجوما مفاجئا فجعل الرسول عليه الصلاة والسلام خمسين رجلا من الرماة يرابضون فيه تحت امرة عبد الله بن جبير وأكد عليه « انضح (ادفع) الخيل عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا ان كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لا نؤتين من قبلك » وبدأت الحرب ورجحت كفة المسلمين أول الامر ووقع الاضطراب والتشتت في جيش أعدائهم ، الا أن المسلمين بدلا من أن يصلوا بهذا النصر الأولى الى فتح كامل ونصر مؤزر غلبهم الطمع في المال والغنائم فراحوا يغتنمون جند عدوهم وهنا رأى الرماة الذين أمرهم الرسول بالمرابضة لتأمين عقب المسلمين جند العدو يفرون والغنائم تتناثر هنا وهناك ، فتركوا مكانهم وقصدوا الغنيمة فذكرهم عبد الله بن جبير بتاكيد الرسول عليهم ومنعهم فما بقى معه غير قليل فهاهبل خالد بن الوليد — وكان يقود جيش الكفار آنذاك — هذه الفرصة واستدار حول الجبل وهاجمهم من المضيق فثبت عبد الله بن جبير ومن معه فلم يقووا على دفعه وتدفقت على المسلمين جموع الكافرين ثم عادت فلولهم التي كانت فرت لتهاجم المسلمين من الجانب الآخر وبهذا انقلب حظ المسلمين في غمضة عين ولما رأوا ما آل اليه حالهم وما كانوا لايتوقعون حدوثه ذهلوا واستولت عليهم الحيرة حتى تفرق اكثرهم وفروا هاربين . واثناء بقاء بعض ابطال المسلمين وفوارسهم صامدين يقاتلون قتالا مراما سرت شائعة تقول ان النبي عليه الصلاة والسلام قد استشهد فافقد هذا الخبر الصحابة عتولهم وحواسهم ، وثبطت عزيمة بقيتهم الباقية وخارت همتهم ووهنت روحهم وكان النبي قد بقى حوله آنذاك عشرة أصحاب من الفدائيين أو يزيدون وقد جرح صلى الله عليه وسلم . وتمت هزيمة المسلمين ، غير أنهم حين عرفوا ان الرسول لم يزل حيا جمعوا شتاتهم من كل طرف واجتمعوا عنده وحملوه صوب الجبل وهنا ظهر لغز لاهل له : أى شىء جعل كفار مكة يرجعون من انفسهم دون أن يتموا فتحهم في حين أن المسلمين كانوا متفرقين بحيث كان اجتماعهم للحرب مرة اخرى امرا جد عسير ولو كان الكفار اصرروا على اتمام الفتح وتحقيق النصر الكامل لما كان فلاحهم في ذلك ببعيد ولا نعرف كيف تركوا الميدان وعادوا أدراجهم .

إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا

هذه إشارة الى بنى سلمة وبنى حارثة الذين ضعفوا بعد انفصال عبد الله بن أبى وأقرانه وعودتهم الى المدينة .

وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ
وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ
الآن يَكْفِيكُمُ أَنْ يُدْعَىٰ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ
مُنزِلِينَ ﴿١٢٤﴾

حين رأى المسلمون جند أعدائهم وقد بلغوا ألفا ثلاثة في حين أن جندهم ألف رجل لا غير بل لقد انفصل عنهم ثلاثمائة ، حزنوا حزنا شديدا فقال لهم الرسول « الآن يكفيكم ان يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين »

بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ
بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ
لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ
الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا
خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ
ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ
وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾

حين جرح النبي صلى الله عليه وسلم دعا على الكفار فقال « اشتد غضب الله على من دمي وجه رسوله » وهذه الآيات جاءت ردا على دعائه هذا .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً

كان السبب الأكبر وراء هزيمة المسلمين في أحد استيلاء الطمع في المال على قلوبهم وقت الظفر والفوز وجريهم ليأخذوا الغنائم بدلا من اتمام مهمتهم وعملهم ، ولذا رأى الحكيم المطلق من الضروري أن يسد نبع عبادة الذهب والفضة لرأب هذا الصدع واصلاح هذا الحال فأمرهم بالرجوع عن أكل الربا الذي يجلس المرء ليلا ونهارا ليحسب زيادة ربحه وفائدته والذي يزكى في نفس الانسان الحرص على المال والطمع فيه (١) .

وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾
وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ * وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ
مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾
الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ
النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾

المجتمع الذي يوجد فيه الربا يتفشى فيه بسبب قسمان من الامراض الاخلاقية :

الحرص والطمع والبخل والاثرة في نفوس المرابين ، والنصرة والالم والبغض والحسد في نفوس من يدفعون الفائدة للمرابين . وكان لهذين النوعين من الامراض الى حد مانصيب في هزيمة المسلمين في احد . فאלله سبحانه وتعالى يقول للمسلمين ان الصفات الاخلاقية التي تنشأ في كلا الفريقين المتعاملين بالربا تناقض ما يرييه الانفاق في سبيل الله من الاخلاق والشرائل الاخرى التي على عسكها تماما وفضل الله وجنته لمن حصلت فيه الثانية لا الاولى .

(انظر تفسير الاية ٢٧٦ من سورة البقرة)

(١) من المعروف أن الربا لم يكن هرم على المسلمين حتى ذلك الوقت - الترجمة -

وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا
لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾
أُولَئِكَ جَزَاءُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٣٦﴾ وَمَنْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ
مَنْشُورًا فَلَا يَنْصُرُهُمْ فِي حَرْبِهِمْ وَمَنْ يَنْصُرْهُمْ فِي حَرْبِهِمْ
فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٣٧﴾ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ
وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِنْ يَمْسِكُ الْقُرْحُ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قُرْحٌ مِّثْلُهُ

هنا يشير تعالى الى حرب بدر فيقول ان القرح (١) الذي اصاب
اعداءكم في بدر لم يفت في عضدهم او يثبط همتهم فكيف يوهن عزمكم ما
اصابكم من قرح مثله في أحد .

وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ

((ويتخذ منكم شهداء)) تعنى انه سبحانه وتعالى أراد أن يرزق بعضكم
الشهادة ويعزهم بها ، كما تعنى انه تعالى أراد أن يصطفى من الخليط
— بين مؤمن ومنافق — الذى كانت تضمه صفوفكم من هم شهداء على الناس
حقا يعنى أهل ذلك المنصب الجليل الذى شرف الله أمة المسلمين به .

وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ
الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ
الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ
الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿١٤٣﴾

(١) القرح : الجرح والاصابة والمقصود في هذه الآية الهزيمة — المترجم .

إشارة إلى من كانوا يتمنون الشهادة والذين أصدر الرسول عليه الصلاة والسلام أوامره بالخروج من المدينة والقتال بناء على إصرارهم .

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ

حين شاع في المسلمين خبر استشهاد الرسول أنهارت قواهم فبدأ المنافقون (الذين كانوا في جيش المسلمين) يقولون لنذهب عند عبد الله بن أبي ليأخذ لنا الأمان من أبي سفيان وراح بعض آخر منهم يقولون إذا كان محمد رسولا من الله فكيف يقتل ؟ فلنعد إلى مكة آباءنا فجاء الرد على أقوالهم هذه بأن لو كان شخص محمد هو الذي يربطكم بعبادة أنحسق وإذا كان أساس إسلامكم ضعيفا واهيا حتى إذا مات محمد سارعتم منقلبين إلى الكفر الذي تركتموه من قبل فليس بدين الله حاجة اليكم ولن تضروا الله بارتدادكم وكفركم .

وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٠٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَبْنَا مُوَجَلًّا

المقصود بهذا افهام المسلمين أن الفرار خوفا من الموت ما هو الا عبث ولا يمكن أن يموت امرء قبل أو بعد أجله الذي حدده له ربه فلا تفكروا في الموت أو تشغلوا بالكم به بل اهتموا بالحياة وهى المهلة التى منحكم الله اياها وتفكروا فى الغرض الذى تبغونه من وراء سعيكم وجهادكم فيها أهو الدنيا وعرضها أم الآخرة وجوهرها ؟ .

وَمَنْ يَرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يَرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا

الثواب معناه نتيجة العمل والمراد بثواب الدنيا الموائد التى ينالها الإنسان فى هذه الحياة الدنيا نتيجة سعيه وعمله ومعنى ثواب الآخرة تلك المنافع

التي سبيلها في الحياة الآخوية المخلدة نتيجة سعيه وجهده في الحياة الدنيا
والسؤال الفاصل فيما يختص بالأخلاق الانسانية من وجهة نظر الاسلام هو
أى النتائج يضعها المرء نصب عينيه وهو يخوض معترك الحياة اهى نتائج
دنيوية ام أخروية .

وَسَجِّزِ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾

المقصود بالشاكرين أولئك الذين يقدرون نعمة الله حق قدرها اذ حباهم
الدين الحق واطلعهم على خبر عالم لانهاى اوسع بكثير من الدنيا وحياتها
المحدودة الضيقة ، وعرفهم حقيقة ان سعى الانسان وعمله لا تنحصر نتائجها
في الحياة الدنيا وسنواتها المحدودة وانما تمتد صلتها الى عالم آخر وراء
هذه الحياة الدنيا . فمن رأى — بعد الملمه بهذه النظرة البعيدة وادراكه
للعواقب — ان جهوده ومسايعه لم تثمر في المرحلة الأولى من الحياة
الدنيا أو رأى نتائج عمله منقلبة راسا على عقب ومع هذا استمر وكله
ثقة في الله واعتماد عليه في أداء العمل الذي أكد له الله حسن عاقبته في
الآخرة فهو عبد شاكر ، وعلى عكس ذلك من ابتلوا بضيق النظر الناتج
عن عبادة الدنيا فيميلون الى المساعى الخاطئة والجهود العوجاء التي توتى
نائج طيبة في ظاهرها دون مبالاة بعواقبها السيئة في الآخرة ، اما الجهود
الصحيحة المستقيمة التي يأملون في نفعها لهم في الدنيا ، أو تلك التي يخشون
ان تصيبهم بأذى فلا ينفقون قواهم ومالهم وجهدهم على أمل ان تنفعهم في
الآخرة فاولئك هم الكافرون بنعمة الله والجاحدون بما وهبهم الله من علم .

وَكَايِّنَ مِنْ نَبِيِّ قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا
أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا

يعنى لم يستسلموا للكفار ولم يضعفوا أمام أهل الباطل وعبادة
رغم قلة عددهم وعتادهم بالنسبة لعدد وعتاد الكافرين .

وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا
 أَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا
 عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَكَاتَبَهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا
 وَحَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾
 يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى
 أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾

يعنى انكم ستعودون الى حالة الكفر التى خرجتم منها . ولقد نشر
 اليهود والمنافقون بين المسلمين بعد هزيمتهم فى أحد أن محمدا لو كان نبيا
 من الله حقا لما انهزم لكنه شخص عادى يقع له ما يقع للآخرين ، فاليوم
 نصر وغدا هزيمة ، وما نصر الله وحمايته الذى أكده لكم سوى محض خدعة
 وسراب .

بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الْمَوْلَىٰنَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا
 الرُّعْبَ ۖ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْهُ ۖ سُلْطٰنًا وَمَا لَهُمْ مِنَ النَّارِ
 وَبِئْسَ مَثْوٰى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ ۖ إِذْ تَحْسُونَهُمْ
 بِإِذْنِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ
 مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يَرِيْدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يَرِيْدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ
 عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾

يعنى أن الخطأ الذى ارتكبتموه لولا عفا الله عنكم لكان أدى الى
 ابادتكم أجمعين فمن فضل الله عليكم وحمايته وتأييده لكم أن ضلت عقول
 أعدائكم بعد ما هزموكم فعادوا أدراجهم دون سبب .

* إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلَوْنِ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَجِكُمْ

حين هوجم المسلمون من الناحيتين في آن واحد وتفرقت صفوفهم فر نفر الى المدينة ونفر تسلقوا جبل احد ، وثبت الرسول صلى الله عليه وسلم دون أن يتحرك من مكانه بوصة واحدة وكان هجوم الاعداء من كل جانب فثبت معه نفر قليل وهو جامد في مكانه كالطود الراسخ ينادى الفارين « الى عباد الله الى عباد الله » .

فَأَنْبَأَكُمْ غَمًّا بِغَمِّ

غم الهزيمة وغم نبأ استشهاد الرسول عليه الصلاة والسلام ، غم كثرة قتلهم وجرحاهم وغم خراب بيوتهم ودورهم وثلاثة الاف من الاعداء — وهو عدد يزيد على عدد أهل المدينة أجمعين — سوف يحشرون جيش المسلمين المهزوم في ناحية ويفنوه عن آخره .

لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٢﴾
ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ

كان هذا أمرا عجيبا حدث لبعض جنود المسلمين آنذاك يذكره سيدنا أبو طلحة وكان ممن اشرطوا في هذه الحرب اذ يقول وكان النعاس يغلبنا حتى كانت سيوفنا تسقط من ايدينا .

وَمَا يَفْقَهُ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ
الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنْ
الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ يُخَفُّونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يَبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ
لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ
فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ
وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ
الَّتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا
وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ يَأَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا
ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرَى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا
وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ

يعنى ان هذه الاقوال ليست قائمة على الحقيقة ، فالحقيقة ان قضاء
الله لا يرده مطل المماطلين أو تسويف المسوفين ، غير أن الذين لا يؤمنون بالله
ويحسبون كل شيء يقوم على حيلهم وتدابيرهم تبقى لديهم هذه الظنون
والتقديرات محض حسرة ويقولون ليت ما يحدث يكون كذا ولو كان حدث كذا
لكان حدث كذا .

وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ
 اللَّهِ أَوْ مِتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِنْ مِتُّمْ
 أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فِيمَا رَحِمَهُ مِّنَ اللَّهِ لَئِنْ هُمْ وَلَوْ
 كُنْتَ فِظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ
 لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
 الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ
 يَخْذَلْكُمْ فَنَازِلُ الَّذِينَ يَنْصُرُكُمْ مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
 الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ

لما رأى الرماة الذين وكل اليهم الرسول حماية ظهر المسلمين اغتنام جند
 العدو ظنوا أن الغنيمة سينالها من اغتنامها فحسب اما هم فلن يكون لهم
 نصيب منها ، وعلى هذا تركوا مكانهم . فلما رجع الرسول الى المدينة بعد
 انتهاء الحرب دعاهم وسألهم عن سبب عصيانهم ما أمرهم به فتعللوا بأعذار
 واهية فرد عليهم : « بل ظننتم ان نغل ولا نقسم لكم » وهذه الآية تفسر
 الى هذا الامر . ومعنى قول الله هذا انه اذا كان قائد جيشكم هو رسول
 الله نفسه وكافة الامور بيديه فكيف تظنون انه لن يحفظ مصالحكم وهل
 تنتظرون من رسول الله ان يقسم ماتحت يده من اموال بطريقتة اخرى غير
 الامانة والانصاف والتقوى ؟

وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمِنْ أَنْبَعِ رِضْوَانِ اللَّهِ كُنْ بَاءً بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَا لَهُ جَهَنَّمَ وَرِثَسَ الْمَصِيرِ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرِهِمْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَنِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوَلَمْ أَصْلَبْكُمْ مِصْبِيَّةً

كان أكابر الصحابة خير من يعرف الحقيقة ، وما كان لهم ان يقعوا في فهم خاطيء او تصور ثاذ اما عامة المسلمين فكانوا يرون « ان الكفار لا يستطيعون تحقيق فوز علينا ففينا رسول الله ومعنا نصر الله وتأييده » . لهذا حين لحقت بهم الهزيمة في أحد صدموا بعكس ما كانوا يتوقعون ، فتملكتهم الحيرة وراحوا يتساءلون : ماذا جرى ؟ لقد خرجنا نقاتل في سبيل دين الله وقد وعدنا بنصره ، وكان رسوله معنا في الميدان ثم انهزمنا ، وممن ؟ من الذين جاءوا لمحو دين الله . فجاءت هذه الآيات لتبعد عنهم هذه الحيرة .

قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا

سقط من المسلمين في أحد سبعون شهيدا بينما قتل من الكافرين بيد المسلمين سبعون وأسر سبعون آخرون .

قُلْتُ أَنِّي هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ

يعنى هو نتيجة اخطائكم ، فلقد تعجلتم ولم تصبروا وقارفتكم بعض ما يخالف التقوى وعصيتكم امر الرسول وطمعتم وجشعت نفوسكم وحل بينكم النزاع والخلاف ، فلم تتساءلون « انى هذا ومن أين جاءتنا هذه المصيبة » .

إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾

يعنى اذا كان الله على نصركم قديرا فهو كذلك على هزيمتكم قدير .

وَمَا أَصْبَرُ يَوْمَ التَّقَىٰ أَلْحَمَّعَانَ فَيَا ذَنَ اللّٰهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُزْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾
وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللّٰهِ أَوْ ادْفَعُوا
قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعَنَّاكُمْ

حين انسلك عبد الله بن أبى فى ثلاث مئات من رفاقه وقتلوا راجعين
راح اليه بعض المسلمين وقالوا له ولمن معه « لاتخذلوا قومكم ونبئكم عندما
حضر من عدوهم » فقالوا « لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم ولكننا لا نرى
انه يكون (اليوم) قتال » .

هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي
قُلُوبِهِمْ وَاللّٰهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ
أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾
وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللّٰهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾
(انظر تفسير الآية ١٥٤ من سورة البقرة) .

فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللّٰهُ مِنْ فَضْلِهِ

هناك حديث عن النبى صلى الله عليه وسلم مروي في مسند الامام
احمد معناه ان من ذهب من هذه الدنيا وقد عمل صالحا اتاه الله تعالى
لايتمنى بعده ان يعود الى الدنيا . الا الشهيد فهو يتمنى ان يرسل الى الدنيا
لينعم بنعيم وحلاوة مايرة حين تقيض روحه فى سبيل الله (١) .

(١) لعنه الحديث الذى قال فيه « والذى نفسى بيده ما من مؤمن يفرق الدنيا يحب
ان يرجع اليها ساعة من نهار وان له من الدنيا وما فيها الا الشهيد فانه يحب ان يرد الى الدنيا
ليقاتل فى سبيل الله فيقتل مرة أخرى » - المرجع .

وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ

حين رجع المشركون من احد وقطعوا شوطا الى مكة تداركوا امرهم
وقال بعضهم لبعض : ما هذا ؟ لقد سنحت لنا فرصة القضاء على محمد
وقوته فأضعناها ، ثم توقفوا في مكان وتشاوروا فيما بينهم أيرجعون الى
المدينة من فورهم ويكروا عليها كرة أخرى ؟ غير أن عزيمتهم ثبتت وفترت هماتهم
فعادوا الى مكة وهنا خشي الرسول عليه الصلاة والسلام من احتمال عودتهم
فأذن مؤذنه في غد يوم أحد بطلب العدو ، ورغم أن موقف المسلمين كان حرجا
إلا أن المؤمنين الصادقين تاهبوا لبذل أرواحهم وساروا مع الرسول عليه
الصلاة والسلام الى «حمراء الاسد» وتبعد عن المدينة ثمانية أميال . وهذه
الآية تشير الى هؤلاء الفدائيين الأوفياء .

لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ الَّذِينَ قَالُوا لَهُمُ النَّاسُ
إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ
الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسَّ مِنْهُمْ شَيْءٌ وَاتَّبَعُوا
رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾

الآيات من أول « الذين قال لهم الناس ... » وحتى « والله ذو فضل
عظيم » نزلت بعد أحد بعام واحد غير أنها أدرجت في هذا الخطاب لاتصالها
بأحد وما جرى فيها (١) .

(١) هذه الآيات نزلت في موقعة بدر الصغرى التي وقعت بعد عام من أحد وكان أبو سفيان
قد قال للمسلمين بعد أحد ان موعدكم بدر للعام المقبل فأبى الرسول عليه الصلاة والسلام
إلا أن يلقاه هناك فذهب في الموعد الى بدر وانتظر وأصحابه ثمانية أيام فلم يأت من مكة احد
لقتالهم حسب وعد أبي سفيان - المترجم .

إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُ ۚ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنتُمْ

مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾

حين كان أبو سفيان قافلاً من أحد توعد المسلمين وقال لهم «إن موعدكم بدر للعام القابل» فلما قرب الموعد جبن عن لقاءهم وكان القحط قد أصاب مكة في ذلك العام ولكي يتفادى حرج موقفه لجأ إلى حيلة من أحاييله إذ بعث شخصاً إلى المدينة خفية فأشاع بين المسلمين أن قريشاً تعد لكم هذا العام عدة قوية، وتجمع لكم جيشاً لأقبل للعرب كلهم به. وكان قصده من ذلك أن يفرغ المسلمون فيبقوا في مكانهم وبذا يكون المسلمون هم الذين جنبوا عن قتاله وقد ظهر أثر حيلته هذه حين سار الرسول عليه الصلاة والسلام إلى بدر ودعا المسلمين فلم يلق منهم جواباً مشجعاً فأعلن في الجمع أنه سيخرج وحده إذا لم يخرج معه أحد فوقف إليه سبعون فدائياً فصحبهم إلى بدر وكان أبو سفيان قد خرج إليها في ألفين من رجاله، لكنه بعد أن سار مسافة يومين قال لأصحابه يبدو أن القتال في هذا العام غير مناسب فلنات إليهم في العام المقبل ثم رجعوا. وأقام الرسول وأصحابه ثمانية أيام في بدر ينتظرونهم وفي تلك الأثناء تاجر أصحابه في تجارة وأصابوا منها ربداً كثيراً. ثم لما علموا برجوع الكفار عادوا إلى المدينة (١).

وَلَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ خَيْرًا لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ

يعنى ان الله لا يحب ان يرى جماعة المسلمين وقد اختلط فيها المؤمنون الصادقون بالمنافقين الكاذبين.

(١) قد يكون المقصود بفضل الله في الآية «فانقلبوا بنعمة من الله وفضل» ربيهم الذي أصابوه في تجارتهم هذه — المترجم.

حَتَّى يَمِيزَ الْخَيْثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظِلَّكُمْ عَلَى الْغَيْبِ

يعنى ان الله لا يتخذ طريق الغيب لاطهار الفرق بين المؤمنين والمنافقين فيلتقى في قلوب المسلمين ان هذا مؤمن وذلك منافق وانما يظهر حال كليهما عن طريق الامتحانات والتجارب التى تبين الغث من الثمين . والذى تقسم بلمره تعالى .

وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِيْ مِنْ رُّسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَعَامِنُوا بِاللَّهِ
وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾
وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَبْغُلُونَ بِمَا آتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ
هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ
يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

يعنى ان كل شىء يستخدمه اى مخلوق فى السماوات والارض هو ملك لله اصلا وتصرف المخلوق فيه وامتلاكه له ليس الا امرا عارضا وكل امرىء لاصلته له بممتلكاته على الاطلاق وكل شىء مرده الى الله فى النهاية ، لذا فبالعقل من ينفق مال الله اثناء امتلاكه العارض له بكرم وسخاء والاحق من جمعه وعدده واجتهد فى اكتنازه .

وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ
قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ

هذا قول اليهود . ولقد سخرُوا حين نزلت الآية « من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا » وقالوا افلس الله وها هو يطلب قرضا من عباده . (تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا) .

سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ
الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾
الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِينَا بَقَرَبَانٍ
تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي
قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨٣﴾

ذكر في مواضع متعددة من التوراة ان علامة قبول قربان المرء ان
تظهر من الغيب نار تلتهمه .

(انظر القضاة ٦ : ٢٠ - ٢١ و ١٣ : ١٩ - ٢٠)

كذلك جاء فيها ان أى نبي كان يقدم قربانا على المذبح كانت تظهر نار
من الغيب وتأكله (انظر مثلا اللاويين ٩ : ٢٤ واخبار الأيام الثاني ٧ : ١ -
٢) بيت ان التوراة تخلو تماما من القول بان مثل هذا القربان في ذاته دليل
لابد منه لاثبات النبوة وتأكيدها ، أو ان من لم يعط هذه المعجزة فليس بنبي قط
وانما ذلك عذر مخلق اخترعه اليهود لينكروا به نبوة محمد صلى الله عليه
وسلم والأدهى من هذا وما يثبت عداوتهم الحقيقية أن بعض أنبيائهم جاءوا
لهم بنفس هذه المعجزة (النار التي تظهر من الغيب لتاكل القربان) ولم يتورع
هؤلاء المجرمون عن قتلهم ومثال ذلك ما جاء في التوراة عن سيدنا الياس
(ايلياه) حين تحدى الذين كانوا يعبدون بعلا وقال ... (فليعطونا ثورين
فيختاروا لأنفسهم ثورا واحدا ويقطعوه ويضعوه على الحطب ولكن لا يضعوا
نارا وأنا أقرب الثور الآخر وأجعله على الحطب ولكن لا أضع نارا ثم تدعون
باسم آلهتكم وأنا ادعو باسم الرب والاله الذى يجيب بنار فهو الله فاجاب
جميع الشعب وقالوا الكلام حسن ... فآخذوا الثور الذى اعطى لهم وقربوه
ودعوا باسم البعل من الصباح الى الظهر قائلين يا بعل أجبنا فلم يكن صوت
ولا مجيب ... وكان عند اصعاد التقديم ان ايليا النبي تقدم وقال ايها الرب
اله ابراهيم واسحق واسرائيل ... استجبني ... فسقطت نار الرب
واكدت المحرقة) .

غير ان النتيجة كانت معاداة ملكة اسرائيل التي تعبد البعل لسيدنا
الياس ولأجل خاطرها تعقبه ذلك الملك عابد النساء كي يقتله (١) فاضطر
الياس الى الفرار من بلده والالتجاء الى جبال سينا .

(انظر الملوك الاول ١٨ و ١٩) .

(١) الملكة المشار اليها هي « ايزابل » والملك هو « آخاب » - المترجم .

وعلى هذا يقول الله لهم في هذه الآية يا أعداء الحق أنى لكم أن تطلبوا
 مجزة (القربان الذى تأكله النار) ؟ ومتى توقفتكم عن قتل أولئك الانبياء الذين
 أشهدوكم هذه المعجزة ؟

فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّنْ قَبْلِكَ جَاءُوكَ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ
 وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٥﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ
 أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَن زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ
 فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾

يعنى ان النتائج التى تظهر فى هذه الحياة الدنيا ان اعتبرها احدكم
 نتائج اصلية وعواقب اخيرة نهائية يقيم على اساسها تقرير الحق والباطل
 والفلاح والخسران فقد انخدع خدعة كبرى ، والحق ان نزول سيول النعم
 على احد ليس دليلا على انه على حق وانه يحظى بقبول الله ورضاه ، كذلك
 حيث تتساقط المصائب على راس احد فهى لاتعنى انه على باطل وانه
 مطرود من حضرة الله فانقد لرضاه وكثيرا ما تكون نتائج هذه الحياة الدنيا
 عكس ما يكون فى الحياة الأخرى والعبرة بنتائج الآخرة ولا قيمة الا لها .

* لَتُبْلَوْنَ فِيْ أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ
 أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا
 وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾

يعنى لاينفذ صبركم امام طعنهم وتشنيعهم وتهمهم واغترائهم وكذبهم
 ودعائيتهم الزائفة فقتتلوا الى ما يخالف الصديق والانصاف والوقار والتهديب
 والاخلاق الفاضلة .

وَإِذَا أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنَهُنَّ
 لِلنَّاسِ وَلَا تَكْفُرْنَ

يعنى أنهم تذكروا أن بعض أنبيائهم قد أعطوا القربان الذى تأكله النار كآية من عند الله لكنهم لم يتذكروا أى عهد قطعه الله عليهم فى كتابهم وقت أن اسند اليهم الزعامة ، وإى مسئولية القاها على كواهلهم .

وانا لنجد ذكر هذا العهد فى مواضع من التوراة خاصة سفر التثنية الذى وردت فيه آخر خطب سيدنا موسى عليه السلام والذى عاهدهم فيه مرارا على أن :

« الرب الهنا رب واحد فثحب الرب الهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قوتك ولتكن هذه الكلمات التى انا اوصيك بها اليوم على قلبك وقصصها على اولادك وتكلم بها حين تجلس فى بيتك وحين تمشى فى الطريق وحين تنام وحين تقوم واربطها علامة على يدك ولتكن عصائب بين عينيك واكتبها على قوائم أبواب بيتك وعلى أبوابك » .

(اصحاح ٦ : ٤ - ٩)

ثم اكد فى آخر وصاياه :

« احفظوا جميع الوصايا التى انا اوصيكم بها اليوم فيوم تعبرون الارض الى الارض التى يعطيك الرب الهك تقيم لنفسك حجارة كبيرة وتشبدها بالشيد وتكتب عليها جميع كلمات هذا الناموس » .

(اصحاح ٢٧ : ٢ - ٤)

كذلك اعطى موسى عليه السلام بنى لاوى نسخة من التوراة وامرهم ان يجمعوا رجال ونساء واطفال الشعب من كل مكان ويسمعوهم الناموس كلمة كلمة غير ان بنى اسرائيل زادت غفلتهم تدرجا الى حد ان كاهن الهيكل السليماني ، بل وحتى حاكم بيت المقدس اليهودى نفسه — بعد وفاة سيدنا موسى بسبع مئات من السنين — لم يكونا على علم بأن لديهما كتابا اسمه التوراة .

(انظر الملوك الثانى ٢٢ : ٨ - ١٣) .

فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْتَرَوْا بِهِ تَمَنَّا قَلِيلًا فَبُئِسَ
مَا يَسْتُرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا
وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا

يعنى يحبون مثلا ان يقال عنهم سيدنا فلان هذا تقى ورع متدين زاهد وفضيلة الشيخ فلان هذا خادم الدين وحامى حوى الشرع المتين وهو رجل

مصلی ومزکی فی حین أن شیئاً من ذلك كله ليس فیهم أو یحبون أن یلقبوا فی المحافل وغیرها بأن فلان هذا زعیم مؤمن كله ایثار وقائد مخلص علی خلق ودين فی حین أنه علی عکس ذلك كله .

فَلَا تُحْسِبْنَهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾
وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَافِ
الَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾

من هنا يبدأ ختام الكلام وهو ختام لا يتصل بالآيات السابقة له مباشرة وإنما ينبغي أن نتلمس صلته ونبحث عنها في السورة بأكملها ومن الضروري لفهمه أن نضع امام أعيننا تمهيد السورة على وجه الخصوص .

الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

يعنى أن كل انسان يستطيع الوصول الى الحقيقة في سهولة ويسر عن طريق هذه الايات شريطة الا يكون غافلاً عن الله ولا ينظر الى الكون نظرة البهم والحيوانات بل يتفحصه بعين الفكر والتدبر .

رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾

حين يشاهدون نظام الكون بعين فاحصة متأمله تتضح لهم حقيقة أنه نظام حكيم من اوله الى آخره ، وأنه لما يخالف الحكمة تمام المخالفة أن هذا المخلوق الذى بث فيه ربه هذه الاخلاق واعطاه سلطات التصرف وحرية الإرادة ، وحباه العقل والتمييز لا يحاسب على أعماله في الحياة الدنيا ولا يثاب على خير أو يعاقب على شر ، كذلك اذا ما تدبر المرء نظام الكون أيقن بالآخرة وطلب من الله ملجأ يقيه عذابه .

رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٩٢﴾
 رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا

هكذا يبعث تدبر الكون في قلوبهم الاطمئنان الى ان وجهة النظر التي
 ياتى بها الرسول عن الكون وبدايته ونهايته وطريق الحياة الذي يبينه حق
 كله من الغه الي يائه .

رَبَّنَا فَاعْفُ عَنَّا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾
 رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ
 الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾

يعنى انهم لا يرتابون في وفاء الله بوعده وانما يشكون بالطبع في مدى
 صدقهم في الوفاء بهذه الوعود ، ولهذا هم يدعون الله ان اجعلنا يارب نصدق
 عهدك ونفى بوعدك واعنا على اتمامه وتحقيقه حتى لانصبح هدف سخرية
 الكفار وطمع وتشنيع الفجار بعد ايماننا بالرسول ويصينا الخزي امامهم يوم
 القيامة فيضحكوا منا ويقولوا هاقد آمنوا ولم ينفعهم ايمانهم .

فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ
 أَوْ أَنثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ

يعنى انكم جميعا بشر وكلكم في عيني سواء وليس عندي تفرقات او
 تفریق واختلاف بين المرأة والرجل ، والسيد والعبد ، والاسود والاحمر ،
 والشريف والوضيع في اصول الانصاف ومعايير الحكم والقضاء .

فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقُتِلُوا
 أَوْ كَفَرُوا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دُخْلَ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
 الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾

يروى أن بعضاً من الذميين جاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا له لقد جاء موسى بالعصا واليد البيضاء وإبراهيم عيسى الأكمه والابرص وجاء غيرهم بشيء من المعجزات فبماذا جئت ، فتلا عليهم الآيات من أول ((ان في خلق السماوات والأرض ... حتى والله عنده حسن الثواب)) وقال جئت بهذا .

لَا يَغْرَنَّاكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ

جَهَنَّمَ وَيُبْسَ أَلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ

جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ

عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلَّهِ بَرَّارٍ ﴿١٩٨﴾ وَإِنْ مِنْ

أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا

أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشَعِينَ لِلَّهِ لَا يَسْتُرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ ثُمَّ

قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ

الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا

وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

لفظ ((صابروا)) الذي جاء هنا له معنيان اولهما : اظهروا للكفار ثباتا وجلدا يفوق ثباتهم في تمسكهم بكفرهم وخوضهم المشلق في سبيل سيئاته ورفعته . وثانيهما تباروا وتسابقوا فيما بينكم في الصمود والثبات امامهم .

هذا ما عندي والعلم عند الله عليه توكلت واليه انيب

محتويات الكتاب

الصفحة	الموضوع
٥	تصدير
٧	مقدمة
٣١	سورة الفاتحة
٣٣	مقدمة (سورة الفاتحة)
٣٧	سورة البقرة
٣٩	مقدمة (سورة البقرة)
١٩٣	سورة آل عمران
١٩٥	مقدمة (سورة آل عمران)

* * *

تصويب الاخطاء

صفحة	سطر	خطأ	صواب	صفحة	سطر	خطأ	صواب
٨	٣٤	وأمثالهم	وأمثالها	١٣٤	٦	أوامرهما	أوامرها
٩	الأخير	حرا	حر	١٦٠	٧	فلكم	فلكم
١٢	٦	الموضات	الموضوعات	١٦٥	١٠	عاجزا	عاجز
١٢	٢٠	يدمر	يدور	١٧٣	٨	جهاء	جهلاء
١٣	٣	متطلبات	بمتطلبات	١٧٩	٧	فلعى	فعلى
١٣	١١	المكبرة	المبكرة	١٨١	٨	للمطنق	للمنطق
١٨	الأخير	أوحت	أوحيت	١٨٣	١٢	الاقتراض	الاقراض
٣٥	٧	آياتى	يأتى	١٨٥	١٥	يحل	يحلل
٧١	١٧	ذكرها	ذكرهم	١٨٦	١٣	تتعامل	تعامل
٧٩	١٦	١٦٦ (١)	١٦٦	١٩٦	١٦	المصاعب	المصاب
٨٢	٧	كبتهم	كتبهم	٢٠١	١٩	يتيسر	يتيسر
٩٦	٥	متماثل	متماثل	٢٠٧	٨	مثمرة	مثمرا
١٠٨	٤	حقيقة	الحقيقة	٢٢٥	٩	ويشكون	ويشكوا
١٠٩	١١	والقومة	والقومية	٢٤٤	١٢	امرؤ	امرء
١١١	الأخير	من	عن	٢٥٥	٢٠	وأكلت	واكدت
١٢٣	٢٣	التأثر	الثأر	٢٥٨	٢٠	فلانا	فلان
١٢٥	٤	صورة	سورة				

٢٥٢٦/٨٧
٢٧ - ١ - ٢٠٠٠

هذا الكتاب

كنت أشعر منذ زمن أن عطش المتقنين المسلمين لفهم روح القرآن ومقصود آياته يزداد يوما بعد يوم رغم مساعي المفسرين قبلي في هذا الشأن ، وكنت أشعر أيضا أن في مقدوري أن أقدم لهم ما قد يروى عطشهم .. فشرعت في محاولتي هذه ... ولم أضع أمامي - وأنا أكتبها - أشباع حاجات العلماء والباحثين ولا من درسوا العلوم العربية والدينية ويريدون دراسة القرآن دراسة عميقة ، إنما أردت أن أقدمها للمتقنين غير المتخصصين الذين لا يستطيعون الاستفادة من كنوز العلوم القرآنية الضخمة ... كذلك وضعت نصب عيني أن يفهم القارئ العادي - وهو يقرأ كتابي هذا - معنى آيات القرآن فهما جيدا .

وكنت بدأت هذه المحاولة في المحرم عام ١٣٦١ هـ (فبراير ١٩٤٢) ووصلت في مدى سنوات خمس إلى نهاية سورة يوسف ثم وقع لي ما منعني من مواصلة الكتابة أو حتى مراجعة ما كتبت ، إلى أن أودعت السجن عام ١٩٤٨ فكان سجنى فرصة استطعت فيها إعداد هذا الكتاب للنشر .

وما توفيقي إلا بالله العلي العظيم .

المودودي

توزيع
دار الاعتصام

